سلسلة «الحقيقة الصعبة» (٢)

Series "The Truth Hard" (2)

نَبيّ الرحمَة وَقرآن المسلمِين

بَحث في مجتمَع مكَة

PROPHET OF MERCY & QUR'AN OF MUSLIMS

STUDY ON SOCIETY OF MECCA

www.muhammadanism.org
September 1, 2010
Arabic

أبو موسى الحريري

ABÛ MÛSÂ AL-HARÎRÎ

نَبيّ الرحمَة وَقرآن المسلمِين

سلسلة «الحقيقة الصعبة» (٢)

أبو موسى الحريري

نَبيّ الرحمَة وَقرآن المسلمِين

بَحث في مجتمَع مَكة

بيروت ١٩٨٥

صدر من « سلسلة الحقيقة الصعبة »:

(١) أبو موسى الحريري، قسّ ونبيّ، بحث في نشأة الإسلام.
(٢) أبو موسى الحريري، نبيّ الرحمة وقرآن المسلمين. بحث في مجتمع مكّة.
(٣) أبو موسى الحريري، عالم المعجزات. بحث في تاريخ القرآن.
(٤) أبو موسى الحريري، أعربيّ هو؟! بحث في عروبة الإسلام.
(٥) أبو موسى الحريري، العلويون النصيريون. بحث في العقيدة والتاريخ.
(٦) أنور ياسين، وائل السيّد، بهاء الدين سيف الله، بين العقل والنبيّ. بحث في العقيدة الدرزية.
(٧) حمزة بن علي، اسمعيل التميمي، بهاء الدين السموقي، رسائل الحكمة، كتاب الدروز المقدّس. تحقيق أنور ياسين.

بيروت ١٩٨٥

المقدّمة

من أولى الأمور لمعرفة الإسلام معرفة البيئة التي نشأ فيها ونمى. ولكنّ لدى المسلمين عاملاً آخر لمعرفة دينهم، هو الله. الله الذي يعلو على البيئة ويتخطّى أحوال المجتمع وظروفه. يصل الإنسان إليه بالوحي والإيمان. وعلى العقل أن يخضع لمعطيات الوحي والإيمان هذه، وأن ينتصر لها.

بيد أنّنا نعلم أنّ أحوال المجتمع تساعد في فهم معطيات الإيمان والوحي. والعقل المتواضع يحتاج إلى هذه كما إلى تلك. فالتاريخ والمجتمع والبيئة الطبيعيّة والعلم والثقافة والعوامل الاقتصاديّة والسياسيّة.. كلّها ضروريّة لفهم نشأة الإسلام وإدراك عقائده وحسن الإيمان به. وهي أيضاً وسائل فعّالة لمعرفته وفهمه.

فالإسلام، بهذه النظرة، منوط، إلى حدّ بعيد، بالحركة التاريخيّة؛ بل هو رهين البيئة التي نشأ فيها، ومرتهن بها. لهذا السبب كان الإسلام، ككل دين، لأجل خير الإنسان ابن البيئة والتاريخ. وأحوال الإنسان الاجتماعيّة هي التي تفرض نوعيّة الشريعة الموحاة. وحياة الإنسان هي المرجوّة في كل دين.

فالإنسان إذن هو الغاية. وواجب محبّته قيمة في ذاتها، حتى أنّ الدفاع عن حقوق الله على حساب كرامة الإنسان ومحبّته يجعل الدين برمّتَه غير مُجدٍ. فكل إيمان بالله لا ينطلق من محبّة الإنسان وصالحه هو دين حرب وموجهة. وقد يتبرّأ الله من كل جهاد في سبيله يكون الإنسان فيه ضحيّة.

في رأي المسلمين، إنّ الإسلام نشأ مع النبي محمّد، وتمّ مع النبيّ محمّد، ويستمرّ على ما هو عليه طالما يوجد في أيديهم « كتاب منزل » من عند

الله على النبيّ محمّد. فالقرآن لا تبديل فيه ولا تحريف، هو الضامن لاستمراريّة الإسلام وثباته. ولا يخالج المسلمين شكّ بأنّ القرآن هو « الحقّ اليقين »[١] ...

ومع هذا نستطيع القول: إن أحداث التاريخ والظروف الاجتماعيّة والعوامل الاقتصادية والسياسية.. كلّها ساهمت في نشأة الإسلام. وإذا كنّا نؤمن بالوحي القرآني أو لا نؤمن، فإنّ ذلك لا يمنعنا البتة عن البحث في كلّ شيء: في ما هو لله، وفي ما هو للتاريخ. وهذا الأمر لا يجعلنا ـ بنظر المذهولين ـ مؤمنين، كما لا يجعلنا ـ بنظر المؤمنين ـ كافرين. بل نحن عن الحق نبحث، وفي الحق ندور. والبحث عن الحقّ يستوجب لنا من الكافرين والمتديّنين سماحاً.

******

على هذا نسأل: ماذا كان قبل القرآن والإسلام؟ أكان هناك شِرْكٌ أم توحيد؟ آلهة أوثان أم « إله بني إسرائيل »[٢]؟ ونسأل أيضاً: أكان هناك مجتمع فاسد أم مجتمع يعرف بعضَ مبادئ الخير والصلاح؟ كيف كانت مكّة عند ظهور الإسلام؟ وعلامَ صارت إليه بعده؟ هل في القرآن إصلاح لمجتمع مكّة أم فيه إصلاح لمجتمع عالمي؟ وبكلمة: كيف كان المجتمع الذي نشأ فيه الإسلام؟.. وهل جاء النبيّ محمّد لإصلاح هذا المجتمع أم لأجل رسالة عالميّة؟ وهل نسأل: لو نشأ الإسلام في غير البيئة التي نشأ فيها لكان على غير ما هو عليه؟!

يدور البحث إذن حول بيئة الإسلام الاجتماعية، على أنّنا عالجنا البيئة الدينية في كتابنا « قسّ ونبيّ ». وعالجنا البيئة التاريخية في كتابنا « أعربيّ هو؟ ».

---

(١) القرآن، سورة ٦٩ آية ٥١. وسنشير إلى ذلك كما يلي: ٦٩ / ٥١.

(٢) جاء في القرآن: « لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل » (١٠ / ٩٠). هذا ما يشير إلى أنّ « إله بني إسرائيل » كان يعرف في بيئة النبي، وأن النبي دعا إليه وإلى الإيمان به، في جميع ما عرفه عنه بنو إسرائيل من صفات وكمالات.

في البيئة الاجتماعيّة هذه لا بدّ من توضيح مقصدنا. ومقصدنا يبحث عن مفاهيم جديدة لا ندّعي فيها المعرفة، بقدر ما نسأل عن حقيقة نبحث عنها باستمرار. هذه الحقيقة باتت لدينا مكشوفة. والسؤال عنها لم يعد بدعة. وبصريح العبارة نقول: هل كان محمّد نبيّاً مرسلاً من لدن الله ليؤسّس ديناً عالمياً؟ أم إنّه جاء ليصلح مجتمعاً فاسداً، وبذلك أصبح نبيّاً؟

انّ خطورة السؤال تضعنا في خانة الكافرين لا محالة. ولكنّنا، قبل أن يؤخذ علينا الكفر أو الإيمان نودّ السعي خطوة خطوة، مستلهمين لها المصادر الاسلاميّة ذاتها، التي يعتمدها المسلمون أنفسهم. وأهمّها « القرآن » الذي « هو مرآة صافية للعصر الجاهلي » ولصدر الإسلام[٣]. وثانيها « كتب التفسير » التي « هي ثروة تاريخية قيّمة تفيد المؤرّخ في تدوين هذا التاريخ »[٤]. وثالثها « كتب الحديث وشروحها، وهي أيضاً مورد غنيّ من الموارد التي لا بدّ منها لتدوين أخبار الجاهلية المتّصلة بالإسلام »[٥]. ورابعها « كتب السِيَر والمغازي »، التي رغم طرافتها، تكوّن أصلاً مهمّاً لمعرفة أحوال مكّة والنبيّ. وخامسها « الشعر الجاهلي الذي فيه قال عكرمة: « إذا أعياكم تفسيرُ آيةٍ من كتاب الله، فاطلبوه في الشعر، فإنّه ديوان العرب، وبه حُفظتِ الأنساب، وعُرفتِ المآثر، ومنه تُعلِّمت اللغة، وهو حجّة فيما أُشكِل من غريب كتاب الله وغريب رسول الله، وحديث صحابته والتابعين »[٦].

ولئن وفّق المؤرّخون المسلمون في كتابة تاريخ الإسلام، بعد الهجرة بمائة وخمسين سنة ونيّف، فإنّهم لم يوفّقوا قط في كتابة تاريخ ما قبل الإسلام، ولم يظهروا أيّة مقدرة في تدوينه، ولا همّة في استقصاء أخباره، ولا براعة في

---

(٣) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١ / ٦٦.
(٤) المرجع نفسه، ١ / ٦٧.
(٥) المرجع نفسه، ١ / ٦٧.
(٦) السيوطي، المزهر ٢ / ٤٧٠، ٢ / ٣٠٢، الجمحي، طبقات الشعراء، ١٠.

تمحيص رواياته. وهو أمر يدعو إلى التساؤل: فهل تعمّد المسلمون طمسَ أخبار الجاهليّة؟ يبدو ذلك. و « لقد عزا بعض الباحثين هذا التقصير إلى الإسلام، فزعم أن رغبة الإسلام كانت قد اتّجهت إلى استئصال كل ما يمتّ إلى أيّام الوثنية في الجزيرة العربيّة بصلة، مستدلاً بحديث « الإسلامُ يهدمُ ما قبله »[٧]. ولئن لم يكن قصدُ الرسول هذا المعنى فإنّ المسلمين لم يفهموا به إلاّ هذا المعنى.

فالإسلام، الذي قضى، بنظر هؤلاء المؤرّخين، على الشِرك والوثنيّة والشِيَع والأحزاب..، قضى، بالوقت نفسه، على كل أثر للمشركين والوثنيّين والأحزاب. وحتى مصاحف القرآن العديدة والمختلفة أُحرقت وأُتلفت، لكي لا يبقى إلاّ مصحفٌ واحد يتوحّد عليه الناسُ في عقيدتهم[٨]. وقد وعى الخلفاء الأوّلون خطورة تعدّد الكتب والمصاحف، فعمدوا إلى الجهاد ضدّها، ولم يُبقوا على كتاب واحد في الأصقاع التي افتتحوها، لكي لا يبقى إلاّ كتاب الله الكريم، الذي « فيه نبأُ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحكمُ ما بينكم ».. وبسبب ذلك بات من الصعب على الباحثين أن يجدوا لهم مصادر ومراجع غير التي وضعها المسلمون، وتفنّنوا في وضعها. فما أدراك تكون النتائج؟

******

بقي علينا البحث في شرعية هذا السؤال الكبير والخطير: أكان محمّد نبيّاً مرسَلاً من عند الله، أم كان مصلِحاً اجتماعيّاً جاء ليقوّم اعوجاجَ مجتمعٍ فاسدٍ ؟ أكان محمّد يعي أنّه نبيّ، أم أنّ الظروف الاجتماعيّة جعلته كذلك؟ ثمّ بماذا نجح محمّد أوّل ما نجح؟ أنجح كمصلح اجتماعي بادئ ذي بدء، أم أنّ نبوّته جعلتْ منه مصلحاً اجتماعيّاً؟.. لنا ملء الحرّيّة بطرح هذه الأسئلة.

---

(٧) صحيح مسلم ١ / ٧٨. انظر: جواد عليّ، المرجع المذكور ١ / ١٠٨.
(٨) انظر كتابنا « عالم المعجزات »، رقم ٣ من « الحقيقة الصعبة ».

والمبادئ المشروعة لطرحها لا تقلّ قيمة عن مبادئ الإيمان بالنبوّة. ولا نزال عند إيماننا بأمرين: بالله القدير على كل شيء، وبحريّة الإنسان بقبوله ورفضه كل شيء. ولا يعتدّنّ أحد بإخلاصه في الدين وبمعرفة علامات النبوّة والأنبياء فيما هو يقضي على حريّة الإنسان وشرعيّة بحث العقل في ماهيّة الأشياء جميعها.

فإذا كانت هناك حقائق إلهيّة منزلة، ويتوجّب علينا تقديسها، فهناك أيضاً للإنسان حرّيّة، يتوجّب علينا إجلالُها. وعظمة الإيمان بالله وبالنبوّة تكمن في مدى تدخّل الله في حرّيّة الإنسان دون أن يقضي عليها. وهذا ما يسمّى في المسيحيّة بـ« سر النعمة »، التي تنساب بين ما هو لله وبين ما هو للإنسان بدقّة متناهيّة، دون النيل من قدرة الله أو من حرّيّة الإنسان. وبغير ذلك لا نستطيع فهم أيّ أمر إلهي...

فالشكّ والقلق والبحث المستمرّ.. معطيات إلهيّة في طبيعة الإنسان. وكلّها تنكبّ في الحرّيّة التي تصنع كيانه وتحدّد هويّته البشريّة. فلا الله ينزعها منه، ولا الإنسان يحقّ له أن يتخلّى عنها. وقد تبلغ درجة الشكّ عند الإنسان مبلغاً تتحدّى به كل طمأنينة؛ حتى أنّ أيّ دليل على وجود الله لم يُعطَ للإنسان ليعيش مع الله بارتياح وسكينة. فما أدراك يكون في سائر الأمور الإلهيّة! إنّ خشيَتنا من الله أن نطمئنّ إليه كثيراً، ونكفّ عن البحث عنه. وبذلك نقف، مطمئنّين، عند حدود ما نرسمه من معطيات نظنّها أصبحت لدينا أكيدة.

******

من هذه المعطيات مثلاً أن ننسب إلى الله « شريعة » أنزلها في كتاب، وأن نلزمه بـ« دين » أوحى به إلى أحد الأنبياء، وأن نتصوّر عنده « عقيدة » يربط بها الإنسان إلى الأبد، وأن نغار عليه غيرة تجعلنا نتقاتل لأجل « الجهاد في سبيله »... هذه كلّها من صنع الإنسان، والله منها بريء. واحدة فقط يطلبها الله، وهي أن يكون الإنسانُ رحيماً، يعامِل

أخاه بالتسامح والمحبّة. ولا يُفرض عليه، باسم الله، ما لم يَفرضه اللهُ نفسه. إنّ الله بريء من إنسان يحبّه ويكره أخاه، وبريء من كل « دين » و « نبوّة » و « كتاب » و « شريعة » و « عقيدة »، اعتبرها الإنسان منزلة من السماء نكاية بأخيه.

يربأ الله أن يختار أناساً ليرذل آخرين. إنّ نظريّة « الشعب المختار » هي نظرية قوميّة، تعصّبيّة. كل البشر مدعوّون ليكونوا من مختاريّ الله. ولم يكن لله يوماً شعب خاصّ ميّزه عن سائر الشعوب بالعصمة والاختيار. وليس له في الأرض « هيكل » يُعبد فيه على حساب أبنية الأرض كلّها. وليس له « كتاب » ضمّه هويّته وكمالاته يتحدّى به كتبَ العالم الداعية إلى الخير والمحبّة. وليس له أخيراً « دين » يربط الإنسانَ فيه بـ« شريعة » منزلة.. كل إنسان، عند الله، قيمة في ذاته. يقيم بينه وبين الله رباطاً روحياً باطنياً عميقاً، لا يحتاج معه إلى أيّ انتماء يحدّ من حرّيّته. فما بال البشر يفرضون على الله قيودَهم!!!

ويُخشى أن يكون لله رجالٌ يتعصّبون له، فيما هم يتعصّبون لما لهم. يميّزون أنفسَهم عن سائر الناس، ليحظَوا، لأجل اسم الله، بقدسيّةٍ واحترامٍ واجلال، لا تليقُ إلاّ بالله. يخصّون أنفسَهم بزِيٍّ وألقابٍ تحمل علامةَ تعصّبِهم.. فهل يظنّ هؤلاء الرجال أنّهم، في امتيازاتهم هذه، يكوّنون ضميرَ العالَم الذي يبكّت الناس على تصرّفاتهم! هل يظنون أنّهم يعكسون في وجوههم روح الله وصورتَه! وينطقون بكلامِ الله! ويُستودَعون أسرارَ الله! ويعرفون إرادةَ الله!.. أي غشّ هو هذا الذي يُقيمون عليه! وأي مَكر يمكرون به اللهَ والعباد!

مصيبة الدهر في « المعصومين ». وليس من متديّن مذهول الاّ ويقع في ادّعاء « العصمة ». بل كل من وقف موقفاً، أو اعتمد مبدأ، أو وضع كتاباً، أو أسّس حزباً، أو أنشأ ديناً.. ظنّ نفسه فيه معصوماً. لكأنّ الإنسانَ يتحدّى اللهَ في عصمته، ويحاشره على علمه وسَعَةِ معارفه.. لكأنّ العصمةَ أصبحت، عند الإنسان عِوضَ ضَعفهِ، ومَظهراً شديدا لكبريائه.. وفي هذا الحدّ من الادّعاء، بدل أن

تقضي العصمة على الشرّ، نراها تغذّيه وتوسّع دائرته.. وكم أراد الإنسان ردع الآخرين عن شرّهم، فإذا به يقوم بعنف هو أعنف من عنف الشرّ نفسه.

وما معنى « النبوّة » و « الرسالة » أخيراً؟ أحقّاً يختار الله له رجالاً يكشف لهم عن أسراره وأسرار الكون؟ أحقاً يبعث الله رجالاً يحمّلهم كتاباً منزّلا من عنده، فيه علوم الدنيا جميعها، ويستمرّ قائماً على مدى الدهر؟ لا بدّ من إعادة النظر في ما به نتّهم الله. إنّ الأنبياء، منذ القديم، كانوا، في بدء دعوتهم، اناساً صالحين مصلحين وقوّاداً لشعوبهم، يدلّونهم على الخير وفعل الصالحات، ويُعِدّونهم لمرحلة أحسن ممّا هم عليه، ويَعدونهم بالخلاص ممّا هم فيه من مفاسد. وأفضل الأنبياء كان أولئك الذين تخطّوا إصلاح المجتمع إلى عالم الروح، وبشّروا العالم بطرق المحبّة وعمل الرحمة. أمّا أولئك الذين دعوا إلى فرض دينهم وشريعتهم بالعنف والقوّة فهم مدّعو نبوّة، ومختلسو رحمة الله.

******

هذه الأمور هي من شرعيّة السؤال الذي نطرحه. فهل يقابلنا مدّعو العصمة والتنزيل بسماحة ورحابة صدر! والبحث كله هو جواب على هذا السؤال الكبير. فليتمهّل من استطاع التمهّل والصبر. إنّنا في البحث عن « الحقيقة الصعبة » نعمل. والمطمئنّون إلى ما هم عليه من « عصمة » عندهم الحقيقة سهلة، موحاة، منزلة، ذات عصمة. وكل ذلك على حساب الإنسان وحرّيته. فليكن لنا منهم بعضُ رحابة صدرهم، لنعمل، وإيّاهم، لأجل الإنسان، في البحث عن الحقيقة. وبذلك يتمكّن فينا الإيمان بالله الذي نبغي أن نجرّده من تصوّراتنا، ونحرّره من حجم عقولنا الضعيفة. وخشيتنا كبيرة في أن يكون الله بحجم عقولنا.

ولئلا تكون الحقيقة سهلة اخترنا معالجة موضوع هو في غاية الصعوبة والخطورة. ونبحث فيه، لا انتقاصاً من نبوّة محمّد، بل توضيحاً لها وتعليلاً.

ولا بدّ، لأجل ذلك، من الكلام على البيئة التي نشأ فيها محمّد، وعلى وعيه للرسالة التي حملها، وعلى تطوّر هذا الوعي بتطوّر الأحداث والأحوال. وعدّتنا في ذلك ما نعرفه عن مكّة، عن طبيعتها، وسكّانها، ومجتمعها، وأحوالها الاقتصادية والسياسية والدينية والحضارية، ثم عن أولويّات الدعوة المحمّديّة، التي لم تكن، في بدايتها، الاّ إصلاحاً لمجتمع كان يدبّ فيه الفساد من كل جانب. ولو لم يتدارك محمّد، بقوّة شخصيّته وذكائه، تلك المفاسد، لامّحتْ، عن سطح الجزيرة العربيّة، قبائل وعشائر برمّتها. لذلك، كان أوّل ما قام به محمّد، حرباً على الفساد. ودعم دعوته، لنجاحها، بتعاليم عرف ربطها بوحي السماء. فكان لدعوته نجاح لا مثيل له.

ولنا أمل في الكشف عن الحق التاريخي الذي لا ننكره على محمّد بحال من الأحوال. ويبقى لنا حقّ ما ندعو إليه، وهو الكشف عن حقيقة ما جرى، لنكفّ عمّا يجرى عندنا، بحجة الدفاع عن حقوق الله وأنبيائه. ومرّة أخرى، ليكفّ المتديّنون المذهولون عن ادّعاء معرفة أسرار الله، وهم مطمئنون كثيراً إلى رسل السماء. وليرحمنا مدّعو العصمة ويرتدعوا عن النطق باسم الله. فهل يسدّ الله عندهم فراغاً؟ أو هل يكون الإنسان ضحيّة من ضحاياهم الدينية وشرائعهم السرمديّة؟ فأين هي الحريّة إذن؟ وأين هو حقّنا في الإنسانيّة؟

الفَصل الأول

طَبيعة مَكَّة

أولاً : مَوقَع مَكَّة في الجغرافيَا

ثانياً : الفقر والجوع في مَكَّة

ثالثاً : حَرّ مَكَّة وجَفافُ مَناخِهَا

رابعاً : ندَرة المَاء في مَكَّة

خَاتِمَة الفَصْل الأول

[Blank Page]

أولاً : موقَع مَكَّة في الجغرافيَا

تقع مكّة بين إقليمي تهامة والحجاز. بينهما وبين دمشق مسيرة شهر. ومنها إلى عدن شهر أيضاً. تبعد عن يثرب نحو مائتين وخمسين كلم، وعن الطائف سبعين، وعن مرفأ جدّة ثمانين. وهي « مدينة في واد، والجبال مشرفة عليها من جميع النواحي محيطة حول الكعبة »[١].

وبناء مكّة « من حجارة سود وبيض ملس.. حارّة في الصيفِ، الاّ أنّ ليلها طيّب. وقد رفع الله عن أهلها مؤونة الاستدفاء، وأراحهم من كَلَفِ الاصطلاء.. وليس بمكّة ماء جارٍ. ومياهها من السماء. وليست لهم آبار يشربون منها. وأطيبها بئر زمزم. ولا يمكن الادمان على شربها. وليس بجميع مكّة شجر مثمر إلاّ شجر البادية »[٢].

أطلق القرآن على مكّة أسماء عديدة. فهي : مكّة[٣]، وبكّة[٤]، وأم القرى[٥]، والبلد[٦] واحدى القريتَين[٧]، والوادي[٨]... ولها أسماء كالبيت العتيق، لأنّه عُتِقَ من الجبابرة، والرأس، لأنّها مثل رأس الإنسان،

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، لفظة « مكة »، ٥ / ١٨٧.
(٢) المرجع نفسه، ٥ / ١٨٧ ـ ١٨٨. شجر البادية أي النخيل.
(٣) « سميت مكّة لأنها تمكّ الجبارين، أي تذهب نخوتهم. ويقال : إنما سمّيت مكّة لازدحام الناس بها ». معجم البلدان ٥ / ١٨١ ـ ١٨٢. وردت في القرآن مرّة واحدة في ٤٨ / ٢٤.
(٤) سمّيت بكّة أيضاً « لازدحام الناس بها. ويقال مكّة اسم المدينة، وبكة اسم البيت ». معجم البلدان ٥ / ١٨١ ـ ١٨٢. وفي القرآن مرة واحدة في ٣ / ٩٦.
(٥) القرآن ٦ / ٩٢، ٤٢ / ٧، أي عاصمة القرى.
(٦) القرآن ١٤ / ٣٥، ٣٥ / ٩، ٩٠ / ١ و٢، ٩٥ / ٣، ٢ / ١٢٦، ٢٥ / ٤٩، الخ..
(٧) القرآن ٤٣ / ٣١، أي : مكة والطائف.
(٨) « واد غير زرع » القرآن ١٤ / ٣٧.

والحَرَم، والعرش، والقادس، والمقدسة، لأنّها تقدّس من الذنوب، والباسّة لأنّها تبسّ أي تحطّم الملحدين، وكوثى باسم بقعة كانت منزل بني عبد الدار [٩].

وأمّا عن شرف مكّة ومكانتها فقد جاء على لسان رسول الله قوله : « إنّي لأعلم أنّكِ أحبُّ البلاد اليّ، وأنَّكِ أحبُّ أرضِ الله إلى الله. ولولا أنّ المشركين أخرجوني منك ما خرجت ». وعن عائشة قولها : « لولا الهجرة لسكنتُ مكّة. فإنّي لم أرَ السماءَ بمكانٍ أقرب إلى الأرضِ منها بمكة. ولم يطمئنّ قلبي ببلدٍ قط ما اطمأنّ بمكة. ولم أر القمر بمكان أحسنَ منه بمكّة ». وفي حديث صحيح عن النبيّ قال : « يا أيّها الناس إنّ الله حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض. لا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً » [١٠].

لقد احتفظت مكّة بمكانتها المقدسة منذ البدء حتى اليوم. ولها اليوم شرف عظيم بأن لا يدخلها كافر أو مشرك أو ذمّيّ. فهي محرّمة إلاّ على المسلمين [١١]: إنّها دار قرار وسلام، فيما سواها من بلدان هو دونها في المقام، لأنّها دار الإسلام الأولى، وفيها لا تمارس إلاّ الشريعة الإسلاميّة بدّقتها؛ لها على العالم بأسره كل الفضل، وليس للعالم عليها أيُ فضل. شرفها أنّها أعطتْ للإسلام من مميزاتها التي اختصّها اللهُ بها منذ الأزل. وقد اصطبغ الإسلام بما لها، وتأثّر بها، وأخذ عنها معظم شرائعه المدنيّة. وليس على أحد أن يُنكر لها هذا الفضل إلى الأبد.

بيد أنّ مكّة، رغم فضلها وشرف مكانتها، لم تكن ذات طبيعة غنيّة لتسهل فيها الحياة. بل كانت إلى حدّ من الجدب والفقر يصعب معها العيش بهناء. فلنفصّل ذلك.

---

(٩) معجم البلدان، ٥ / ١٨٢ ـ ١٩٣، ١٨٥.

(١٠) البخاري، باب العلم ٣٧، الترمذي، باب الحج ١، سورة التوبة ٩ / ٢٨.

(١١) إلاّ أنّ « بورخاردت » السويسري دخلها سنة ١٨٢٩، وكذلك الانكليزي « برتن » زارها سنة ١٨٥٣. وكلاهما كتب عنها ووصفها بدقّة.

ثانيَاً : الفقر والجوع في مَكَّة

الحجاز بصورة عامّة هو « بلد الجدب والفقر والضيق »[١٢]، فيما سوريا هي بلاد « الخمر والخمير والأمر والتأمير والديباج والحرير »[١٣]. وأكثر جدب الحجاز في مكّة، ذات الطبيعة الصحراوية القاحلة، إذ هي « اقليم صعب عسير، تجدب فيه الأرض، ولا تبتسم له السماء إلاّ قليلاً »[١٤]. وقد أشار القرآن إلى كثرة الأمراض فيها، فتكلم على « أولي الضرر »[١٥]، أي على « كل صاحب زمانة أو عمى ونحوه »[١٦]. ووصفها المقدسي بقوله : « يكون بالحرم حرّ عظيم، وريح تقتل، وذباب في غاية الكثرة »[١٧].

وهي أيضاً، بشهادة القرآن، قرية جدباء، لا زرع فيها ولا نخيل. يعيش أهلها على ما يُجلَبُ إليها من خارج، وما « يُجبَى إليها من ثمرات كل شيء»[١٨]. يأتيها « رزقُها رَغداً من كل مكان »[١٩]، لأنّها « وادٍ غير ذي زرع »[٣٠]، بل هي « بلدة ميتة »[٢١] و « بلد ميت »[٢٢] أو أيضاً « أرض ميتة »[٢٣] يحييها الله من

(١٢) الاصفهاني، كتاب الأغاني ١٤ / ١٥٦.
(١٣) المرجع نفسه ١٩ / ١٩٦، انظر الأزرقي، أخبار مكّة ٥٥.
(١٤) طه حسين، على هامش السيرة ١ / ١.
(١٥) القرآن ٤ / ٩٥.
(١٦) تفسير الجلالين على ٤ / ٩٥.
(١٧) المقدسي، جغرافيا ٩٥ / ٨.
(١٨) القرآن ٢٨ / ٥٧، ٢ / ١٢٦. « قوت أهلها من غيرها » (اليعقوبي، جغرافيا صفحة ٢٣٦).
(١٩) سورة النحل ١٦ / ١١٢.
(٢٠) سورة ابراهيم ١٤ / ٣٧.
(٢١) القرآن ٢٥ / ٤٩، ٤٣ / ١١، ٥٠ / ١١.
(٢٢) القرآن ٣٥ / ٩، ٧ / ٥٧.
(٢٣) القرآن ٣٦ / ٣٣.

سخائه[٢٤]، وينزّل عليها من السماء ماء[٢٥]، ويوجد فيها أنعاماً[٢٦]، حتى يجعل لأهلها فيها معايش[٢٧] لم تكن لها في طبيعتها الجدباء.

هذه البلدة الميتة « أذاقها اللهُ لباسَ الجوع »[٢٨]، وابتلى به أهلَها[٢٩]. وليس على المكّيين إلاّ التوسّل إلى الله « الذي أطعمهم من جوع »[٣٠]، هم الذين « ليس لهم طعام إلاّ من ضَريع لا يُسْمِنُ ولا يُغني من جوع »[٣١]. ولكثرة الجوع في مكّة عَمَدَ بعضُ الناس إلى قتل أولادِهم، فحذّرهم الله بقوله: « ولا تقتلوا أولادكم خشيةَ إملاق. نحن نُرزقهم وايّاكم »[٣٢]؛ كما حذّر الذين يبيعون بناتهم للزنى ليكسبوا أجورَهنّ بقوله : « لا تُكرِهوا فَتياتِكم على البَغاء لتبتغوا عرضَ الدنيا »[٣٣].

وقد يكون الجوع، الذي اختبره المكّيون في حياتهم، من أشدّ عذابات جهنم. بل هو صورة كافية عنها. قال القرآن عن سكّان جهنم: « ليس لهم طعام إلاّ من ضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع » . في حين أنّ أفضل خيرات الجنّة يكمن في طعامها الدائم : « مثل الجنّة التي وعد المتّقون تجري من تحتها الأنهار. وأكلُها دائم »[٣٤]. فيها « فواكه كثيرة »[٣٥] قد حُرِمَ منها أهلُ مكّة في حياتهم، فعوّض الله بها عليهم في جنّته.

---

(٢٤) القرآن ٥٠ / ١١.
(٢٥) ٤٣ / ١١.
(٢٦) ٢٥ / ٤٩.
(٢٧) ٧ / ١٠، ١٥ / ٢٠.
(٢٨) ١٦ / ١١٢.
(٢٩) ٢ / ١٥٥: « لنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات... ».
(٣٠) ١٠٦ / ٤.
(٣١) ٨٨ / ٦ « ضريع » ، أي : شوك خبيث.
(٣٢) ١٧ / ٣١، ٦ / ١٥١.
(٣٣) ٢٤ / ٣٣.
(٣٤) ١٣ / ٣٥.
(٣٥) ٧٧ / ٣١.

هذه الصورة عن الفقر والجوع، التي أشار إليها القرآن، والتي عاشها المكّيون، لم تغب عن بال المسلمين الفاتحين الذين لم يهجموا هجمتهم الخاطفة إلى بلاد الشام، إلاّ بسبب الجُهد والفقر والجوع والبؤس الذي ضربهم في جزيرتهم القاحلة. لقد عرفَ المسلمون أنفسُهم، كما عرف عنهم ذلك أعداؤهم، بأنّ الذي دعاهم إلى الفتوحات كان الجوعُ والفقرُ أكثر ممّا كان الدين.

وقد نقل إلينا الواقدي (+ ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) صورةً ضافية عن مكّة وأوضاع أهلها السيّئة. فجاء في خطبة لعمر بن الخطّاب بعد عزلِ خالد بن الوليد من قيادة الجيوش المسلمة، فقال: « سمعتُ رسولَ الله (ص). يقول: مَن صبر على أذاها (أي أذى مكّة) وشرِّها كنتُ له شفيعاً يومَ القيامة » . وأضاف عمر: « وبلادكم بلادُ لا زرعَ فيها ولا ضَرْع، ولا ماءَ أوقِرُ به الابلَ لآمَنَ مسيرةَ شهر. وقد وعدَنَا الله مغانمَ كثيرة. وإنّي أريدُها للخاصةِ والعامّةِ لأؤدّي الأمانةَ والتوقير للمسلمين »[٣٦].

وفي مساجلة بين فلسطين بن هرقل وعمرو بن العاص، قال فلسطين: « شيمتكم أيّها العرب الغدرُ والمكر » . أجاب عمرو: « نريد أن.. نأخذَ ما في أيديكم من العَمَارة والأنهار عِوَضاً عمّا نحن فيه من الشوكِ والحجارة والبَلَدِ القفر » . فقال فلسطين: « أعلَمُ إنّه ما حَمَلكم على ذلك وأخرجَكم من بلادكم الاّ الجُهدُ العظيم » . فردّ عمرو: « أيّها الملِك! أما زعمتَ أنَّ الجُهدَ أخرجَنا من بلادنا. فنعم. كنّا نأكلُ خبزَ الشعيرِ والذرة، فإذا رأينا طعامَكم واستحسنّاه فلن نبارحَكم حتى نأخذَ البلادَ من أيديكم، وتصيروا لنا عبيداً، ونستظلَّ تحت أصول هذه الشجرةِ العالية، والفروعِ المورقةِ، والأغصانِ الطيّبةِ الثمار. فإنّ منعتمونا ممّا ذقناه من بلادِكم من لذيذِ العيش، فما عندنا إلاّ رجالٌ أشوَقُ

(٣٦) الواقدي، فتوح الشام ١ / ٩٦.

إلى حربكم من حبّكم الحياة، لأنّهم يحبّون القتالَ كما تحبّون أنتم الحياة »[٣٧].

وجاء على لسان هرقل عن المسلمين وأحوالهم الرديئة قوله: « هؤلاء العرب خرجوا من بلاد الجدب والقحط وأكْل الذرة والشعير إلى بلاد خصبة كثيرة الأشجار والثمار والفواكه، فاستحسنوا ما نظروه من بلادنا وخصبنا. وليس ما يزجرهم شيء لما فيه من العزم والقوّة وشدّة الحرب »[٣٨]. ومرّة أخرى، وصفهم بقوله : « .. العربُ وهم أضعف الخلق، عراة الأجساد، جياع الأكباد »[٣٩].

والكلام نفسه جاء على لسان وَرْدَان أحدِ قوّادِ الروم يقول فيه عن العرب : « إنّ أكثرهم جياعٌ، وعبيدٌ، وعراةٌ، ومساكين. أخرجهم إلينا قحطُ الحجاز وجوعُه وشدّةُ الضرر والبلاء »[٤٠]. ووَرَد على لسان هربيس الرومي بَطْريقِ حمص يقول لجماعته: « إنّ العربَ مَثَلُهم كمَثَلِ السُبع إذا وجَد فريستَه لم يرجع إلى غيرها. وهم قد لحقهم الجوعُ في مدينتكم. وإذا أشبعناهم انصرفوا عنّا »[٤١].

وجاء أيضاً على لسان بولص قائد قوّاد الروم في مصر ما توجّه به إلى العرب بقوله: « قد علّمنا أنّكم كنتم في بلادكم، قبل أن تفتحوا البلاد، في قحط وجوع، وتموتون هزالاً. وقد ملكتم بلاداً، وشبعتم لحماً، وركبتم خيولاً مسوَّمةً وتقلّدتم بسيوف مجوهرة، وسعدتم بعد فقركم وفاقتكم »[٤٢].

والشيء نفسه عرفه الفرس واختبروه عن العرب. فها هو كسرى يَجمَع

---

(٣٧) الواقدي، فتوح الشام ٢ / ٢١ ـ ٢٢.
(٣٨) المرجع نفسه ١ / ٤١.
(٣٩) المرجع نفسه ١ / ١٦١.
(٤٠) المرجع نفسه ١ / ٦١.
(٤١) المرجع نفسه ١ / ١٤٩، و١ / ٩٨.
(٤٢) المرجع نفسه ٢ / ٢٣٧.

قوّاده ويُعلمهم: « اعلموا أنّ هؤلاء العرب قد أخرجهم الجدب والجهد. فهم ينظرون لهم مواضعَ يسكنون إليها، وينزلون فيها.. واعلموا أنّ العرب لهم الطمع.. »[٤٣].

وفي مصادر أخرى غير الواقدي، نرى الشيء نفسه يتكرّر. ففي مروج الذهب نرى قول المغيرة بن شعبه لذي الجناحَين ملكِ نهاوند: « إنّا معشر العرب! كنّا أذلّة يطؤنا الناس، ولا نطؤهم، ونأكلُ الكلابَ والجِيَف »[٤٤] وفي اليعقوبي قولٌ لقُصَيّ جَدِّ قريش: « ولا أعلم مكرمةً عند العرب أعظمُ من الطعام. فليخرِجْ كل إنسان منكم من مالِه خرجاً » . ويعلّق اليعقوبي بقوله: « فثبتَ المُلكُ في يد قُصَيّ بسبب ذلك »[٤٥].

وكم صلّى النبيّ إلى ربّه يقول له: « اللهم إنّي أعوذ بك من الجوع »[٤٦]. وكم صلّى من أجل أمّته بقوله : « اللهمّ إنّهم جياع فأشبعهم »[٤٧]. وتأكد النبيّ بأنّ الله « لا يقتل أمّتي بسَنَةِ جوع »[٤٨]. وقد عرف بأنّ الله « لا يسلّط على أمّتي جوعاً فيهلكهم به عامّة »[٤٩]. وكم نصح لأمّته بقوله لهم: « أطعموا الجائع »[٥٠]. فعرف أخيراً نعمة الله حتى قال: « إن الله أعطاني أن لا تجوع أمّتي »[٥١].

---

(٤٣) الواقدي، فتوح الشام ٢ / ١٨٤.
(٤٤) المسعودي، مروج الذهب ٢ / ٣٢٣.
(٤٥) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٣٩.
(٤٦) سنن أبي داود، باب الوتر ٣٢، سنن النسائي، باب الاستعاذة ١٩ و٢٠، سنن ابن ماجه، باب الأطعمة ٥٣.
(٤٧) سنن أبي داود، باب الجهاد ١٤٥.
(٤٨) ابن حنبل ٥ / ٢٤٢.
(٤٩) ابن ماجه، باب الفتن ٩، ابن حنبل ٤ / ٣٣٢ و٣٣٣، ٦ / ١٦.
(٥٠) البخاري، جهاد ١٧١، أطعمة ١، مرض ٤، درامي، سير ٢٦، حنبل...
(٥١) سنن ابن حنبل ٥ / ٣٩٣.

الجهد والفقر والجدب والقحط والبؤس والحرمان.. كلّها كانت في مكّة. وبسببها زحف العرب، قبل الإسلام، بتجارتهم نحو بلاد واليمن وغزّة ومصر والهند؛ وزحف المسلمون، بفتوحاتهم الخاطفة.. وهي التي قرّرت نوعيّة الحياة في مكّة والحجاز وتهامة ونجد والعروض، كما قرّرت مستوى شرائع القرآن، بما أجازت لهم من « مغانم » و « جهاد ». ولم تكن دعوة الإسلام الملحّة إلى فعل الحسنات وإتيان الصدقات مع اليتامى والأرامل والمساكين وأبناء السبيل.. إلاّ من وحي جوع مكّة وفقرها. وربّما أيضاً لم تكن شريعة « قطع يد السارق » ومنع « الربا » إلاّ لأجل ضرب جشع الأثرياء في أكلهم أموال الفقراء..

فلو لم يكن الفقر والجوع في مكّة إلى هذا الحدّ، لما كان المسلمون في فتوحاتهم بلغوا إلى هذا الحدّ، وبهذه السرعة الخاطفة، وتبقى كلمة الرسول في صلاته: « تعوّذوا بالله من الفقر والقلّة والذلّة » (ابن حنبل ٢ / ٥٤٠) صورة صادقة عمّا كان عليه أصحابه في مكّة.

ثالثاً: حَرّ مَكَّة وجَفاف مَناخِهَا

وزاد في فقر مكّة وقحل طبيعتها شدّةُ الحرّ والجفافِ في « مناخها. لهيبُ رمالِها، وحرارةُ شمسها، ونشفُ هوائها، جعلتْ أرضَها يابسةً قاحلةً جدباء؛ لا شجر على سطحها ينعم الإنسان بظلّها، ولا عين ماء ترطّب أجواءها، ولا اخضرار يخفّف من حدّة حرّها. لا غرابة في ذلك، فمكّة تقع في صحراء قاحلة، بين جبلين، تحجز عنها رطوبةَ البحر وأبخرته. وقد ذكر حديثُ نبويٌّ شدّةَ الحرّ فيها، فقال: « مَن صبر على حرّ مكّة ساعةً من نهار، تباعدتْ عنه جهنم مسيرةَ مائة عام » . وقال أيضاً: « إن حرّ مكّة هو جزءٌ واحدٌ من سبعين جزءاً من حرِّ جهنّم »[٥٢].

وفي القرآن عن حرّ مكّة ومقابلته بحرّ جهنّم كلامٌ كثير. فها هو يدعو المسلمين الذين تخلّفوا عن الجهاد في غزوة تبّوك بقوله: « قل: نار جهنّم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون »[٥٣]. ويعتبر أنّ من نِعَم الله على الإنسان في مكّة وفرةَ الظلال والغمام والسراويل. قال: « والله جعلَ لكم ممّا خلقَ ظِلالاً... وجعلَ لكم سروايلَ تَقِيكم الحَرّ »[٥٤]. وقال أيضاً: « وظللنا عليكم الغمام »[٥٥].

ويوم يأتي الله، في آخر الأزمان، ليَدينَ الإنسان، سيأتي في ظلال وغمام: « هل ينظرون إلاَّ أن يأتيهم الله في ظلل مَن الغمام »[٥٦]. كما أنّه من دلائل صحّة الإيمان بالله أن يرى الإنسانُ نعمةَ الظلِّ يمدُّه اللهُ عليه: « ألمْ

---

(٥٢) ابن حنبل ٢ / ٣١٣، ٤٦٧، ٤٧٨، مسلم باب الجنّة ٣٠.
(٥٣) سورة التوبة ٩ / ٨١.
(٥٤) سورة النحل ١٦ / ٨١.
(٥٥) سورة البقرة ٢ / ٥٧، انظر : ٧ / ١٦٠.
(٥٦) سورة البقرة ٢ / ٢١٠.

ترَ إلى ربّك كيف مدّ الظلّ »[٥٧]. وقد يكون الظلّ الذي يفقده أهلُ مكّة، من مباهج الجنّة التي يشتهيها المسلمون؛ إلى درجة أن تتصف جنّة القرآن بـ« ظلّ ممدود »[٥٨]، و « دائم »[٥٩].

وهكذا هو بالفعل حال المتّقين، فهم « في الجنّة في ظلال »[٦٠]، يتكّئون « فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً »[٦١]. يُدخلهم اللهُ إليها مع « أزواج مُطَهَّرة ونُدخِلُهم ظلاّ ظليلاً »[٦٢]. فهم « وأزواجُهم في ظلال على الأرائك متكّئون »[٦٣]. وجميعُهم « في ظلال وعيون »[٦٤]، « يتفيئوا ظلاله عن اليمين والشمائل سُجَّداً لله »[٦٥]، و « ظلالهم بالغدوّ والآصال »[٦٦]. في الجنّة أشجارٌ وصف بـ« دانيةٍ عليهم ظلالُها »[٦٧].. أمّا أصحابُ النار فلا يَنعمون بأيّ ظلّ : « لا ظليل ولا يغني من اللهب »[٦٨].

وفي الأحاديث النبويّة صورةً أخرى رائعةً عن الذين يَرضى الله عليهم، هؤلاء يمتّعهم الله بظلّه يومَ القيامة. يقول: « أظلَّه اللهُ يومَ القيامة تحتَ ظلِّ عرشِهِ يومَ لا ظِلَّ الاّ ظلُّه »[٦٩]. وهي نعمةً أعطاها اللهُ لرسولِهِ ليكونَ له ظِلٌّ كظلّ الله. يقول: « أظلّه في ظلّي يوم لا ظلّ إلاّ ظلّي »[٧٠]. والمسلم الذي يحظى بالسعادة القصوى « يتقلّب في ظلّها في الجنّة »[٧١][*].

---

(٥٧) ٢٥ / ٤٥.
(٥٨) ٥٦ / ٣١.
(٥٩) ١٣ / ٣٥.
(٦٠) ٧٧ / ٤١.
(٦١) ٧٦ / ١٣.
(٦٢) ٤ / ٥٧.
(٦٣) ٣٦ / ٥٦.
(٦٤) ٧٧ / ٤١.
(٦٥) ١٦ / ٤٨.
(٦٦) ١٣ / ١٥.
(٦٧) ٧٦ / ١٤.
(٦٨) ٧٧ / ٣١.
(٦٩) سنن الترمذي، باب البيوع ٦٧، سنن الدرامي، البيوع ٥٠، مسند ابن حنبل ١ / ٧٣، ٢ / ٣٥٩، ٣ / ٤٢٧، الخ...
(٧٠) صحيح مسلم، باب البر ٣٨، الدرامي، باب الرقاق ٤٤، ابن مالك، الموطّأ، باب الشعر ١٣، ١٤، ابن حنبل، ٢ / ٢٣٧، ٣٣٨. الخ...
(٧١) مسند ابن حنبل ٣ / ١٥٤، ٢٣٠.
(*) قد يكون من براهين القرآن والإسلام على وجود الله وجود الظل، إذ هو الذي « جعل لكم ممّا خلق ظلالاً » (سورة النحل ١٦ / ٨١).

رابعَاً : نذَرة المَاء في مَكَّة

وساهم في فقر أرض مكة ندرةُ الماء فيها وقلّةُ الأمطار فوقَ سطحها. وبحقٍ سمّي المطر « غيثاً » لأنّه يغيثُ الناسَ والأنعامَ من مَوتٍ محتّم. وليس في مكّة سوى بعض الآبار المحفورة لسقايةِ الناس والسَرْح؛ وكان أهمَّها شهرةً « بئرُ زمزم » حفرها عبدُ المطلب جَدّ النبي قربَ الكعبة. وقيل إنّها منَ عهد اسماعيل. وقد جرى عليها خصامٌ شديد بين زعماء مكّة، وذلك لشدّةِ حاجةِ الناس إليها وإلى الاستفادة من مائها والاستقلال بها.

وقد أشارت كتبُ الأحاديثِ والسِيَر إلى أنّ الله فضّلَ قريشاً بسَبْعِ خصال، أهمّها وأعظمها « السقاية »، على درجةٍ أنِ اتّهمَ القرآنُ أصحابَه بجعلِهم سقايةَ الحجّاج تعادلُ الإيمانَ باللهِ والجهادَ في سبيله. قال: « أجعلتمَ سقايةَ الحاجِّ وعمارةَ المسجدِ الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخَر وجاهدَ في سبيل الله! لا يستوون عند الله »[٧٢].

ولقلّة الماء في مكّة اعتبر القرآنُ وجودَها نعمةً يمدُّ اللهُ بها الأرضَ فتنبتُ الزرع، وتسقي الشجر، وتروي السَرْحَ، وتحيي الناسَ، وتفجّر الينابيعَ، وتبعد عن السكّان الهلع والظمأ والمرض والموت. ووفرتُها آيةٌ من آياتِ الله البيّنات. قال: « هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم. منه شرابَ، ومنه شجر فيه تَسِمون. ينبتُ لكم به الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعناب ومن كلِ الثمرات. إنّ في ذلك لآيةً لقوم يتفكّرون »[٧٣].

---

(٧٢) سورة التوبة ٩ / ١٩.
(٧٣) سورة النحل ١٦ / ١٠.

ولا بدّ من ذكر بعض آيات القرآن ـ مع ما فيها من ترداد ـ تأكيداً على نعمة الماء التي أحيي بها اللهُ الأرضَ بعد موتِها. قال: « وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم »[٧٤]. و« هو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء »[٧٥]. و« أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى »[٧٦]. و « نزّلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنّات رحب الحصيد »[٧٧]. « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها »[٧٨]. و « جعلنا من الماء كل شيء حيّ »[٧٩]. وبالماء فاضت الينابيع وتفجّرت: « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها »[٨٠].

وكما أنّ الأكل والظلّ في الجنّة دائمان، كذلك الماء فهو فيها دافق أبداً: « ظلّ ممدود وماء مسكوب »[٨١]. وفي الحديث « إنّ في الجنّة بحر الماء »[٨٢]. وما وعد الله بالماء الغزير والأنهار الجارية في الجنّة إلاّ تعويضاً عمّا حُرِم منه المكّيون في حياتهم الدنيا، ومكافأة للذين عملوا الصالحات. قال: « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار »[٨٣].

وبسبب ذلك شدّد النبي في أحاديثه على « فضل صدقة الماء »[٨٤]، كأفضل صدقة يستحق المسلم معها الجنّة حيث « الأنهار تجري من تحتها ».

---

(٧٤) سورة البقرة ٢ / ٢٢، سورة ابراهيم ١٤ / ٣٢.
(٧٥) سورة الانعام ٦ / ٩٩.
(٧٦) سورة ٢٠ / ٥٣. انظر : ٣١ / ١٠، ٣٥ / ٢٧.
(٧٧) سورة ٥٠ / ٩.
(٧٨) سورة ٢ / ١٦٤، ١٦ / ٦٥، ٢٩ / ٦٣، ٣٠ / ٢٤.
(٧٩) سورة ٢١ / ٣٠.
(٨٠) سورة ١٣ / ١٧.
(٨١) سورة ٥٦ / ٣١.
(٨٢) سنن الترمذي، باب الجنّة ٢٧، أحمد بن حنبل ٥ / ٥.
(٨٣) انظر: ٢ / ٢٥، ٣ / ١٥، ٥ / ١٢، ٦ / ٦، ٧ / ٤٣، ٩ / ٧٢، ١٠ / ٩. الخ..
(٨٤) ابن ماجة، باب الأدب ٨، صحيح البخاري، باب المساقاة ١.

خَاتِمَة الفَصْل الأوّل

مكّة إذن قرية فقيرة الموارد، قليلة الخيرات، شديدة الحرّ، جافّة المناخ، شحيحة المياه، مجدبة التربة، نادرة الأمطار، ضئيلة الرزق، ضعيفة المواسم، صعبة المعاش. تحتاج إلى سَنَدٍ لها من الخارج لتدرأ عنها خطرَ الجوع والموت. إنّها صحراء قاحلة محرومة، محط ظلم الأرض والسماء: إنْ أمطرتْ جَرَفَ « السيلُ » ما عليها، وإنْ جفّتْ ألهبَ الحرُّ رمالَها. لا مأمنَ فيها من وحشٍ ضارٍ يبحث عن فريسةٍ ليسدّ بها جوعَه، ولا ملجأ لسكّانها من غضبِ السماء في حالتَي السيلِ والقيظ. كل ما فيها يدعو إلى حتميّة الموتِ عليها. إنّها بحسب وصف القرآن لها: « بلدة ميتة » أو « بلد ميت » أو « أرض ميتة »، تعوزها نفحةُ الحياة من كل مكان.

إلاّ أنّ اللهَ لا يترِكُ للموتِ باعاً طويلاً، ولا للفقرِ والجوعِ أن يمرحَا ويستبدّا. فنعمتُه تشمَلُ كلَ مكان، ورحمتُه تفيضُ على جميع أهل الأرض... فكان على مكّة من نِعَم اللهِ ومراحمِه أنْ أوجدَ لها نوعاً من المعاش استعاضتْ به عن ظلم الطبيعة وجدبها. وهو تجارتها الواسعة التي تحدّثتْ بها قديماً كل تجارة في زمانها. وقد نتج عنها مالٌ وثراءٌ وحياةٌ ونعيم. وبسبب هذه التجارة الرابحة ونشاطِ المكّيين أصبحتْ مكّة موقعاً تجاريّا لا مثيل له.

واليوم كما بالأمس، تنعم مكّة بما استخرجتْ من بطنِ الأرض من كنوز : كنوز النفط والذهب والفضة، وبما يأمّها في مواسم الحجّ من حجيج وسائحين ومصلّين. ولها كل ذلك، بحسب تعبير القرآن « رغداً من كل مكان ». يجلب إليها رزقها من « خارج ».

ولكن، قبل التعرّف على تجارة مكّة مورد رزقها الوحيد، يجدر بنا أن نتعرّف على سكّانها، في ألوانهم وأنواعهم ومختلف مشاربهم. فهؤلاء هم الذين قاموا برزق مكّة وجلبوا إليها الخيرات. وهم الذين قاموا بالتجارة الواسعة كتعويضٍ عن فقر طبيعتها وقحط أرضها.

وسكّان مكّة كانوا هم أيضاً « جلباً » من خارج. معظمهم طارئون عليها. وبحسب تعبير الروايات الإسلاميّة « عرب مستعربة »، أي ينتمون إلى العروبة انتماء. ولم تكن لهم « العروبة » في الأصل. ونحن نبغي، في الفصل التالي، اظهار هذا الانتماء، وتبيانه بما يتيسّر من أدلّة عليه.

الفَصْل الثَاني
سكّان مَكَّة

أولاً : قبل قصيّ

منذ بدء البدء كان الله. وكان الملائكة في مكّة يسبّحون. ومنذ بدء الخلق أوجد الله مكّة على صورةٍ لها في السماء حيث « البيتُ المعمور يدخله كلّ يوم وليلةٍ سبعون ألف ملك »[١]. واندفعتِ الناس صوبَ مكّة، وتدفّقت منذ آدم وبنيه، حتى ازدحمتْ بالسكّان، وارتكبوا فيها الفواحش، فأرسل الله عليهم الطوفان ليزيحهم عنها ويطهّر الأرضَ منهم، « فرفع اللهُ الكعبةَ وقتَ الطوفان إلى السماء الدنيا »[٢]. ثمّ انتهى الطوفان، فأعاد اللهُ الكعبةَ إلى ما كانت عليه.

عن مُجَاهِد قال: « لقد خلقَ الله موضعَ البيتِ قبلَ أن يخلقَ شيئاً من الأرض بألفَي سنة ». وعن كعبِ الأحبار قال : « كانتِ الكعبة غَثَاءً على الماء قبل أن يخلقَ اللهُ السماواتِ والأرضِ بأربعين سنة ». وعن ابن عَبّاس قال : « لمّا كان العرشُ على الماء.. بعثَ اللهُ ريحاً.. وَدَحَا الأرضَ.. فمادتْ ثمّ مادت.. فكانت مكّةُ أمَّ القرى »[٣].

بعد الطوفان عادَ الناس إلى مكّة، وقامتْ فيها قبائلُ عديدة، وكان أوّلَ من اشتهر منهم، بعلم المؤرّخين المسلمين، قبائلُ يمانيّةٌ أفسدتِ الأرضَ وما عليها. عُرِفَ منها قبيلتا « جرْهَم » و « قَطُورَا ». هاتان جاءتا في الوقتِ الذي جاء فيه ابراهيمُ وابنُه اسماعيل من بلادِ الكلدانيين. و « نكحَ اسماعيلُ في جرهم »[٤].

---

(١) الأزرقي، أخبار مكّة ١ / ٣٤.
(٢) الأزرقي، أخبار مكّة، ١ / ٣٢.
(٣) الأزرقي، أخبار مكّة، ١ / ٣٢، ٣٥، ٧٨ ـ ٧٩ وما بعدها.
(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥ / ١٨٥ ـ ١٨٧.

ولمّا توفّي اسماعيل تولّى أمرَ البيتِ بعدَه ابنُه « نابت » أكبرُ أولاده. ثمّ وَليَ بعده مَضاضُ بن عمرو الجِرهمي خالُ أولادِ اسماعيل. ثم تنافستْ جِرهمٌ وقطورا في المُلك، وتداعَوا إلى الحرب، فانهزمتْ قطورا. ثم تداعَوا إلى الصلح.. ثمّ إنّ جرهماً بَغَوا بمكّة فاستحلّوا حَرَاماً، وظلموا مَنْ دَخَلها، وأكلوا مالَ الكعبة.

في هذه الأثناء جاء « العماليقُ » من سيناء، هرباً من وجه موسى الذي حاربهم وطردهم إلى نواحي مكّة، وسكنوا مع جرهم الذين ملكوا واستبدّوا. ثمّ هجرتْ « خُزاعة » قبيلةٌ أخرى من اليمن، وفرعٌ من الأزْد. وكان ذلك عقبَ خرابِ سَدِّ مَأْرب. ووقع بين خزاعة، من جهةٍ، وجرهم والعماليق، من جهةٍ ثانية، معارك. فكان النصرُ لخزاعة التي « وَليتِ البيتَ ثلاثمائة سنة. يتوارثون ذلك كابراً عن كابر، حتى آخرهم حُلَيل بن حبشيّة »[٥]، الذي تزوّج قُصَيٌّ بنُ كِلابٍ بنْتَه حُبَّى.. فكانت بنهايةِ حُليل نهايةُ عهدِ بني خزاعة، وبدايةُ عهدِ قريش، على يدِ قُصَيّ.

وفي علم المؤرّخين المسلمين أيضاً أنَّ خزاعةَ، بعد تملّكها، أقامتْ عليها مَلِكاً اسمه « عَمرو بن لُحَيّ »[٦]. هذا كان أوّلَ مَن نصبَ الأوثانَ في مكّة، وأدخلَ إليها عبادتَها، وغيّر دينَ التوحيد، بعد أنْ كان « إلهُ بني إسرائيل » هو المعبود فيها. ووضع في الكعبة صنمَ « هُبَلْ » الشهير، وقد استقدمه من بلادِ الشام، وفرضَ سيطرتَه على سائر العشائر والبطون حتى صارت جميعُها تُقبِلُ على « هبل » للتبرّك منه. وبه قُضِي على إيمان ابراهيم الحنيف الذي، بمجيء الإسلام، سيعودُ ويُفرَضُ على شعوبِ الجزيرة كلّها. وعند « فتحِ مكّة » سيكون « هُبل » أوّلَ ضحيّةٍ من ضحايا الإسلام.

جميعُ سكّان مكّة إذن نزحوا إليها من « خارج ». فهم طارئون « مستعربون ».

---

(٥) معجم البلدان، ٥ / ١٨٥ ـ ١٨٧.
(٦) انظر ابن سعد ١ / ٦٦، الأزرقي ١ / ٥٧، ابن الأثير ٢ / ٧ وغيرهم.

ثانيَاً : أسبَابُ الهِجْرَة إلى مَكَّة

الهجرة إلى مكّة هي من ثوابت التاريخ الجاهلي. وهو أمر سهل اثباته. إلاّ أنّ أمرين مختلَفٌ فيهما : الأوّل مِن أين كانتِ الهجرة ؟ والثاني ما هي أسبابُ الهجرة ؟ وأمران آخران يؤكّد أن ذلك : الأوّل ـ وبشهادة المؤرّخين المسلمين أنفسِهم ـ هويّةُ سكّان مكّة « الاستعرابيّة »، أي انتماؤُهم إلى « عروبةٍ » لم تكن لهم في الأصل. والثاني تنوّع سكّان مكّة واتنيّاتُهم المختلفة.

يُجمع أهلُ الأخبار أنّ معظمَ سكّان مكّة كانوا دخلاء عليها، ونازحين إليها من خارج. فهم من مختلَفِ أنحاء الجزيرة المسمّاة عربيّة، ومن الهلال الخصيب. أي : من اليَمن، وبلادِ فارس والروم، ومن مصر والحبشة والسودان، ومن فينيقيا وفلسطين، وسوريا وبلاد ما بين النهرين.

واختلاط اتنيّاتِهم أدّى إلى اختلاطِ أديانهم وتنوّع معتقداتهم ولغاتهم. فكان منهم يهود ونصارى وصابئة ومجوس وعبدة أوثان. كما كان في لغاتهم اللغة الحِميريّة والمِسنَد والثموديّة واللحيانيّة والدَيدانيّة والقبطية والحَبشية والروميّة واليونانية والعبرانية والآرامية والعربيّة، وغيرها. وحسناً ما قال اليعقوبي: « وكانت أديانُ العرب مختلِفَةً بالمجاورات لأهلِ الملل والانتقال إلى البلدان والانتجاعات »[٧]. يعني: أنّ أديانَ العرب كانت من كل بلد مجاور لمكّة، وكانت مختلَفةً باختلاف الملل، وقد دخلتْ مكّة إمّا بواسطة المبشِّرين، وإمّا بواسطة أعمالٍ تجاريّة[٨].

---

(٧) تاريخ اليعقوبي، ١ / ٢٥٤.
(٨) انظر كتابنا: « أعربيّ هو ؟ » في سلسلة « الحقيقة الصعبة » رقم ٤.

والنزوح إلى مكّة كان في فترات عديدة، ولألف سبب وسبب من أسباب الهجرة والتهجير. وقد ابتدأ النزوح من اليمن مثلاً منذ دولتي سَبَأ وحِمْيَر في الألف الثالث قبل الميلاد. وتكرّر مراراً إلى أن أصبحَ نزوحاً عامّاً بعد خرابِ سَدِّ مَأْرِب في منتصف القرن السادس للميلاد. وقد اجتاحتِ القبائلُ اليمنيّة مختلَف أنحاء الجزيرة العربيّة والهلال الخصيب. وكذلك كان الأمرُ من فلسطين في زمن سبي اليهود منها إلى بابل في سنة ٧٢١ ثم في سنة ٥٨٦ ق. م. وقبل ذلك أيضاً كان نزوح من بلاد الكلدانيين، منذ ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل. واستمرّ الأمر كذلك مع دولتي الفرس والروم، حيث أمّ مكّة جماعةٌ من الأحباش والسودان والأقباط والغساسنة والمناذرة حتى نهاية الامبراطوريتين المتقاتلتين في زمن الفتوحات الإسلاميّة.

وأسباب الهجرة إلى مكّة كانت إمّا طبيعية، أو سياسية، أو اجتماعيّة... لقد كانت أحياناً بسبب كوارث طبيعيّة، من زلازل وبراكين وانحباسِ الأمطار أدّى إلى قحط في الأرض، فاقتتال بسبب المراعي، وبحث عن لقمة العيش... أو أيضاً بسبب معارضة سياسيّة أدتْ بالمعارضين الفاشِلين أو بالحكّام المغلوبين إلى ترك مواطنهم. أو أيضاً كانت الهجرة هرباً من ثأرٍ ينالُ دماءً مهدورة ديّةَ القتلى، أو أيضاً بسبب البحث عن الحريّة في البوادي الشاسعة، أو بسبب تجارةٍ أفلسَ أصحابُها، ودَيْنٍ ثَقُلَ عليهم، أو بسببِ اضطهادٍ دينـي بين مختلَف المذاهبِ والأديان، أو لأجلِ ممارسةِ اللصوصيّة على طرقِ القوافل، أو لأنّ بعضَهم طُرِدَ من أرضه بسبب شرٍّ صنعه، أو اقتُلعَ من وطنهِ بسبب إهمالٍ أو جريمةٍ اقترفَها...

هؤلاء النازحون من مختلَف الأصقاع إلى الصحراء عاشَ معظمُهم فيها عشائرَ وأفراداً، وسكنوا على طرق القوافل التجارية، بحثاً عن لقمة العيش، إمّا بواسطةِ عمل ينالون أجرَه، وإمّا بواسطةِ النهب والسلب والغزو. وجلُّهم عاش حوالي مكّة، وبالقرب منها، أو على الطريق الممتدّ بين مكّة والمدينة ووادي القرى

وتيماء مروراً بالبتراء حتى بلاد الشام حيث يتوافر الرزق ومراعي الإبل والحماية الطبيعيّة وبعض الاطمئنان. وفي نهاية القرن الخامس كانت تجمّعات هائلة حول مكّة، للاستفادة من مكانتها الدينيّة وموقعها التجاري.

ولاستفادةٍ أكبر استطاعَ أحدُ زعماء مكّة من « تجميع » هذه العشائر وهؤلاء الأفراد « المستعربين » في قبيلة واحدة سمّاها « قريشاً » ، أي « تجمّعاً ». هذا « التجمّع » لم يكن عربيّاً خالصاً، أو كما يسمّيه المحدّثون « عرباً عاربة ». بل هو من « العرب الخلطاء » أو « العرب المستعربة ». وهم في هذه التسمية على حقّ وعلى ضلال معاً. هم على حقّ لأنّ تنوّع سكّان مكّة واختلاط أعراقهم أفقداهم عروبتَهم القحطانية العاربة اليمنيّة الخالصة. وهم أيضاً على ضلال لأنّ العروبة الخالصة لم تكن في مكّة من جهة اليمن والجنوب، بقدر ما كانت من جهة « غربي الفرات » والشمال. ومن نسبتهم إلى « غرب » الفرات جاءهم اسم « عرب ». ولفظة « عرب » في العبريّة والآرامية والسريانيّة والعربيّة القديمة تعني « غرب ». وأعظم دليل على انتقال « العروبة » من الشمال إلى مكّة، يكمن في أصل « اللغة العربيّة » ونشأتها، وفي أصل « القلم العربي » واشتقاقه. كلاهما دخل مكّة على أيدي المرسَلين والمبشِرين النصارى من مناذرة الحيرة والأنبار، وعلى أيدي تجّار مكّة الذين برعوا في تجارتهم مع بلاد الشام[٩].

وكانت نهضة مكّة قد بلغت عزّها في عهد « قريش »، منذ زمن قُصَيّ حتى مجيء النبي، على امتداد مائة سنة ونيّف. فمن هي « قريش »؟ وكيف نشأت؟

---

(٩) انظر في ذلك كتاب « أعربيّ هو؟ »، وهو بحث في أصل العروبة وعلاقتها بالإسلام، لأبو موسى الحريري، سلسلة « الحقيقة الصعبة » رقم ٤ بمجمله.

ثالثاً : قرَيْش قبِيْلة التجَمّع

كـان « قُصـيّ » أوّل مَـن أصـابَ المُلكَ بعد وُلْدِ اسماعيل. وذلك فـي أيّـام المنـذر بـن النعمان على الحِيرة والمَلِكِ بَهرام جور في الفرس »(١٠). وقصيّ هو الجدّ الرابع للنبـيّ محمّد. توفّي أبوه وهو صغير. فتزوّجت أمّه من ربيعة بن حرام، من قبيلة « بني عذرة » النصـرانية، التي هي فرع من فروع الغساسنة عملاءِ الروم. ثم أخذته أمّه إلى أرض زوجها على مقربة من تَبوك، من أرض الشام. فسمّي « قصيّاً » لاقصائه عن بني قومه، أو « لبعد داره عن دار قومه »(١١). ولمّا كبر رجع إلـى مكّـة حيث تـزوّج مـن حُبّـى بنت حُليل الخزاعـي، وولـدتْ لـه أربعـة ذكور، هم: عبد الدار، عبد مَناف، عبد العِزّى، وعبد قُصيّ.

ولمّـا استقرّ أمرُ قصـيّ فـي مكّـة، وكثر مالُـه، استولى علـى المدينـة، بعد مـوت حُليل الخزاعي. و « جَمَعَ » حواليه شتاتَ القبائل والعشائر، وتزعّمهـا، وسمّاهـا « قريشـاً »، أي « تجمّعاً ». وفي ذلك قال ابن الكلبي: « إنّما قريشٌ جُمّـاعُ النسَـبِ ليس بـأب ولا بـأم، ولا حاضـن ولا حاضنة »(١٢). وقال اليعقوبي : « وكان قُصيّ أوّل من أعزّ قريشاً.. فَجَمَعَهَا وأسكَنهـا مكّـة »(١٣). وقال ابن سيّده: « قرَشَ قرشاً، أي جَمَعَ وضمّ من هنا وهنا »(١٤). وقيل: « سمّيت بذلك لتقرّشها أي تَجَمُّعِهَا إلى الكعبة بعد تفرّقها في البلاد »(١٥). وقيل أيضاً: « وقُصيّ هو

---

(١٠) معجم البلدان لياقوت الحموي، ٥ / ١٨٧.
(١١) تاريخ الطبري، ٢ / ٢٥٥، السيرة الحلبية، ١ / ١١ ـ ١٢.
(١٢) انظر: طبقات ابن سعد، ١ / ٦٦، ٦٩، ٧١، نهاية الارب، ١٦ / ٢٠..
(١٣) تاريخ اليعقوبي، ١ / ٢٤٠.
(١٤) عن لسان العرب، ٦ / ٣٣٤، مادة « قريش ».
(١٥) انظر أيضاً: ابن هشام ١ / ٨٧، الحلبية ١ / ٢٤، الأزرقي ١ / ١٠٨ وغيرها.

جُمَّاعُ قريش. فلا يقال لأحد من فوقه قرشيّ »[١٦]. وفي ذلك قال الشاعر[١٧]:

قُصيٌّ أبوكم كان يُدعى مُجَمِّعاً بهِ جَمَعَ اللهُ القبائلَ مِن فَهَرِ.

وكان قُصَيّ « رجلاً جليداً حازماً بارعاً »[١٨]. وهو « أوّل رجلٍ من بني كنَانة أصابَ مُلكاً، وأطاعَ له به قومُه. فكانت إليه الحِجابةُ والرَفادة والسِقاية والنَدوة واللِواء والقيادة »[١٩]. وكان أيضاً « أوّل من أعزّ قريشاً، وظهر به فخرُها، ومجدُها، وسناها، وتقرُّشها. فجمعَها وأسكنها مكّة، وكانت قبل ذلك متفرّقة الدار، قليلةَ العزّ، ذليلةَ البقاع، حتى جمعَ اللهُ إِلْفَتَها، وأكرم دارَها، وأعزّ مثواها »[٢٠]. و « كان أمرُه في قومهِ كالدِين المتّبع في حياته وبعد موته »[٢١].

أمّا كيف تمّ له ذلك ؟ فيذكر أهل الأخبار أنّ قيصَر الروم أعانَ قُصيّا على خزاعة[٢٢]. وكان ذلك عن طريقِ الغساسنة حُلفاء الروم، بواسطة قبيلة زوجِ أمِّه « بني عذرة »، من « قضاعة » النصرانيّة التي كان تقيم في بادية الشام، على مقربَة من « تبّوك ». وقد كانت خاضعةً لنفوذ الروم[٢٣]. ولم تكن الاستعانة بالروم بِدْعاً بين القبائل العربية والأفراد، فعثمانُ بنُ الحوَيْرث توسّطَ فيما بعد، لدى الروم، لتنصيبِ نفسِه مَلِكاً على مكّة. ولكنّه لم يوفّق[٢٤].

---

(١٦) السيرة الحلبية، ١ / ٢٤.
(١٧) انظر: الأزرقي ١ / ١٠٧، ابن هشام ١ / ١١٦، اليعقوبي ١ / ٢٤٠، ابن سعد في الطبقات ١ / ٧١، الطبري ٢ / ٢٥٦، الحلبية ١ / ١٣، العقد ٣ / ٣١٢.
(١٨) السيرة الحلبية ١ / ٢٤.
(١٩) الأزرقي ١ / ١٠٧. انظر معاني هذه المآثر في ما بعد.
(٢٠) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٤٠.
(٢١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٣.
(٢٢) ابن قتيبة، المعارف، ٦٤ حيث قال: « وأعانه قيصر عليها ».
(٢٣) الشريف، مكّة والمدينة، ١٦٠، وات، محمد في مكّة، ١٣.
(٢٤) الثعالبي، ثمار القلوب ١٦، الكامل لابن الأثير ٢ / ٧، المعارف لابن قتيبة ٦٠، ١١٧، ١٢٠، ١٣٠، طبقات ابن سعد ١ / ٦٨، ابن حبيب، المحبر، ١٧١، وات، محمّد في مكّة ١٥، لامنس، مكّة عشية الهجرة (بالفرنسية) ص ١٥.

هكذا كانت علاقات قصيّ وأبنائه من بعده مع مسيحيّ سوريا والامبراطوريّة البيزنطية، منذ أن تكوّنت قريشٌ وتملّكت على مكّة. وربّما كان انتماء قريش إلى بلاد الشام أكثر ممّا هو إلى قبائل اليمن أو غيرها. والدليل على ذلك: لغة قريش التي هي لغة أهل الحيرة والأنبار(٢٥)، ثم تجارة قريش التي نشطت وتوسّعت وازدهرت مع بلاد الشام، ثمّ ديانة قريش وآلهتها التي أُخِذَت من الشمال أكثر ممّا أُخذتْ من الجنوب، مثال ذلك الإله « هُبل » و « أيل » واسم « الله »، وأسماء كـ« عبد الله »، وعبد اللاة، ثمّ علاقة قريش ببقايا النبطيين الذين تراجعوا نحو الصحراء بعد غزوا الرومان لهم(٢٦)، ثمّ مخاصمتهم لقبائل نزحت من الجنوب. وأخيراً العداوة التاريخية بينهم وبين الجنوبيين، وقد تسمّت بأسماء عديدة، واتّخذت أشكالاً كثيرة، كالعداوة بين القحطانيين والعدنانيين، أو بين اليمنيين والقيسيين، أو أيضاً بين عرب عاربة وعرب مستعربة، وغير ذلك... ممّا يدلّ على تعاطف قريش، منذ تكوينها، مع بلاد الشام وسكّانها النصارى.

لقد نظّم قصيّ بطونَ قريش ودبّر لهم منازلَ في مكّة وضواحيها. فأسكن بعضَهم في « ظواهر » مكّة، فسمّوا « قريش الظواهر »، وكانوا في الغالِب فقراء معدَمين، وأسكن بعضَهم الآخر في « بطاح » مكّة، وسمّوا « قريش البِطاح » وكانوا أغنياء ميسورين. عرف القسم الأوّل بتبدّيه وفقره وغزواته، وعرف القسم الثاني باستقراره وغناه واهتمامه البالغ بالتجارة(٢٧). والقسمان يضمّان اثنتي عشرة قبيلة، لم تنصهر بعضها ببعض تمام الانصهار، ولم تؤلّف « جماعة » واحدة ذات مصير واحد مشترك، بل بقيت « تجمّعاً ». وربّما يكون في قول القرآن: « إن هي أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم »(٢٨) إشارة إلى تنوّع نسبتهم.

---

(٢٥) انظر كتاب « أعربي هو؟ ». فصل اللغة العربية، ١٤٧ ـ ١٩٨.
(٢٦) انظر إشارة الأغاني ١ / ١٤٧، ٣، والأزرقي، ٦٠.
(٢٧) السيرة الحلبية ١ / ١٣، الشريف، مكة والمدينة...، ١٢٢.
(٢٨) ٥٣ / ٢٣، ٧ / ٧١. انظر: لامنس، مكة...، ص ١٤٨.

وكـان قصـيّ أوّل مـن بنـى المسـاكن فـي مكّـة، ونقـض الخيـام، وحوّلهـا إلـى بيـوت ذات أعمدة من خشب وذات سقوف. و « هو الذي أمر قريشاً أن يبنوا بيوتهم داخل الحرم وحول البيت. وقال لهم : إن فعلتم ذلك هابتكم العرب (أي البدو) ولم تستحلّ قتالكم »(٢٩). وهو الذي ثبّت الملك في عقبه. ونظّم شؤون المدينة، وقسّم الوظائف على أولاده. وأوجد لمكّة مكانة تجارية واسعة. وخلق لها نوعاً من الإدارة.

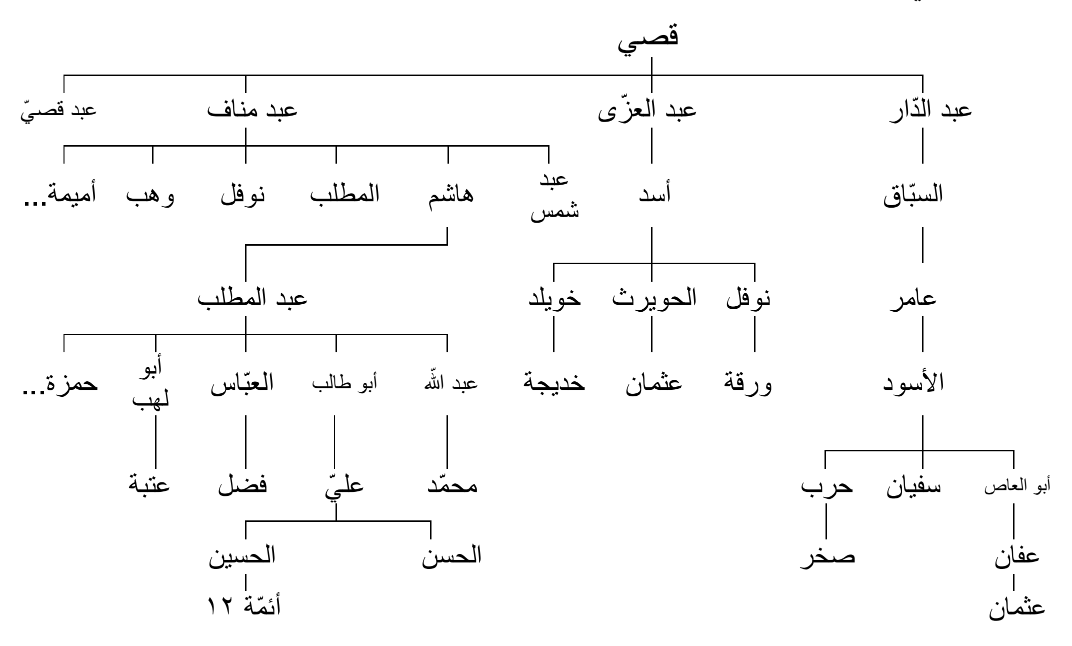
وعرف عنه أيضاً أنّه أحدث في قريش ستّ مآثر، تقاسمها أولاده من بعده، وبسببها جرى بينهم خلافٌ ومعارك، استمرّت إلى ما بعد الإسلام. هذه المآثر هي: الرفادة، وهي اطعام الحجّاج في موسم الحجّ. والحجابة، وهي الوصاية على مفاتيح الكعبة. والسقاية، وهي توفير الماء لحجاج بيت الله وللقوافل التجاريّة. واللواء، وهو علم من قماش يربط على رأس رمح عند إعلان الحرب. والقيادة، وهي حكم الأمّة الذي يُسَلّم إلى زعيم قريش الأكبر. وأخيراً دار الندوة، وهي الدار التي يجتمع فيها أهل قريش للتشاور بأمور المدينة. فكانوا لا يعقدون أمراً إلاّ فيها، ولا يزوّجون امرأة أو رجلاً، ولا يعقدون لواء حرب، ولا يخرجون بعيراً للتجارة.. إلاّ منها. يديرها جماعة تسمّى « الملاء الأعلى »، هم أمثال أعضاء مجلس شيوخ أثينا، يمثّلون زعماء الأسر والعشائر، ورؤساء الأحياء والبطون، وأصحاب الراي والمشورة(٣٠).

هكذا كان أمر قصيّ « في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدِين المتّبع »(٣١). ولمّا مات، دُفن في الحجون، جبلٍ بأعلى مكّة، واقتسم أولادُه المنافع. حكم قصيّ في بداية النصف الثاني للقرن الخامس للميلاد. و « هو

---

(٢٩) السيرة الحلبية ١ / ١٩.
(٣٠) انظر: الطبري ٢ / ٢٥٨، الكامل ٢ / ١٣، ابن هشام ٢ / ١٢٤، البلاذرى، أنساب ١ / ٥٢، الأحكام السلطانية ١٦٢، نزهة الجليس ١ / ٢٤.. وغيرها.
(٣١) تاريخ الطبري ٢ / ٢٥٩، الكامل لابن الأثير ٢ / ١٣.

أوّل رئيس من رؤساء مكّة يمكن أن نقول إن حديثنا عنه هو حديث عن شخص عاش حقّاً، وعمل عملاً في هذه المدينة.. وهو أوّل رجل نتكلّم عن بعض أعماله ونحن واثقون ممّا نكتبه عنه ونقوله »[٣٢]. ونثق أيضاً بنسبة عظماء قريش إليه وإلى أولاده. ومعظم مشاهير رجال الإسلام ينتسبون إليه. فإليه ينتسب مثلاً النبيّ محمّد والقس ورقة وخديجة وعلي وبنو هاشم وأميّة، كما في هذه الشجرة:



في هذه السلسلة « القُصَيويّة »، كما ترى، ظهرَ الإسلام، ومنها جاء محمّد، وبلغتها نزل القرآن، ومن رجالاتها استخلف الخلفاء، وظهرت الأئمّة، وتكوّنت الفرق، وأُنشأتِ الدول، وافتتحت بلاد الشام وأفريقيا وأوروبا، وأسلمت المسكونة... ومن هذه السلسلة قامت ممالك وانقرضت أخرى، وبعضها لا يزال مستمرّاً. وإليها انتسب رجال عظماء في العلم والأدب والدين. ومنها أيضاً تأسست شيع دينية وأحزاب سياسيّة، حاربت بعضها بعضاً، ولا تزال. منها من انتمى إلى الإسلام في الظاهر دون الباطن، ومنها من اتّخذ الإسلام غطاءً لستر معتقد باطني.. وكلّ ذلك يكوّن لدينا دليلاً بعد دليل على أنّ « قريشاً » لم تكن إلاّ « تجمّعاً » لم تنصهر أفراده بحال من الأحوال.

---

(٣٢) د. جواد عليّ، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤ / ٢٢.

رابعاً : سكَّان مَكَّة مِن غَير قرَيْش

مرّة أخرى نعود إلى تنوّع السكان في مكّة. ومن الطبيعي أن يكون فيها مثل هذا التنوّع، نظراً إلى مكانتها التجاريّة الشهيرة، وموقعها الجغرافي الوسيط بين الشمال والجنوب، ووجود الكعبة محجّة لجميع الملل والأديان، وشرعة احترام الأشهر الحرم التي أوجبت أمناً وسلاماً وحرّيّة.. فبسبب ذلك وفد إلى مكّة شعوب من مختلف الاثنيّات والمنتجعات والبلدان.

مِن هؤلاء مَن كان مِن الحبشة ومصر والسودان، ومَن كان مِن فينيقيا وفلسطين وغزّة وبلاد الشام، ومَن كان مِن العراق وفارس ومملكتي الغساسنة والمناذرة، ومَن كان مِن اليمن وحضرموت والبحرين، ومَن كان من دولتي الفرس والروم، ومن اليونان وآسيا... ومنهم أيضاً من كان يهوديّاً، أو نصرانياً، أو مجوسيّاً، أو صابئاً، أو عابدَ أوثان... ومنهم من كان تاجراً، أو بنّاءً، أو حدّاداً، أو صائغاً... ومنهم من كان موالياً أو مملوكاً يعمل لحساب غيره... ومنهم من كان من المبشّرين أو من أهل العلم والمعرفة، أو أيضاً من أصحاب الأدب والشعر والخطابة... ومنهم أخيراً من كان يتجسّس لصالح بلد منشأه، أو كان مهاجِراً، أو سائحاً، أو مهجَّراً، أو مطروداً خليعاً.

كل هذه الأصناف من البشر كان في مكّة، في بداية البعثة النبويّة. والدليل على ذلك وجود كلمات في القرآن مأخوذة عن « الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريانيّة والعبرانيّة والقبط.. »[٣٣] ممّا جعل أبا بكر يقول: « في القرآن من اللغات خمسون لغة »[٣٤]. وهناك أيضاً آيات غير قليلة تشير

(٣٣) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١ / ١٣٥: « فيما وقع فيه بغير لغة العرب ».
(٣٤) أبو بكر الواسطي، الارشاد في القراءات العشر. عن الاتقان ١ / ١٣٥.

إلى عدد الوافدين إلى مكّة، كما تشير إلى ديانتهم وآلهتهم ومعتقداتهم ومستوى العلم عندهم؛ وربّما أشارت أيضاً إلى نشاطهم الرسولي في المدينة وفي القرى المجاورة والأسواق الموسمية.

غير أنّ هؤلاء السكّان، وإنْ لم يكونوا من قريش، فإنّهم من مواطني مكّة. وإنْ كانوا أيضاً من حضارات مختلفة وأعراق متباينة، فهم، مثل قريش، من أهل مكّة وقاطنيها منذ أمد. فالكلام عليهم إذن لا يعني كلاماً على « جاليات أجنبيّة » تعيش في المدينة إلى حين، ثم تعود إلى مواطنها الأصليّة. بل ذلك يعني أنّهم يؤلّفون القسم الثاني من قريش، قبيلة « التجمّع ».

إلاّ أن مؤرّخي الإسلام لم يهتمّوا بهم بقدر ما اهتمّوا في تدوين أخبارِ مَن كان له بالنبي صلةُ نَسَبٍ أو رحم، أو مَن استجابَ لدعوته.. لذلك فهُم أهملوا تماماً ذكرَ هؤلاء « الأجانب »، وتجاهلوا دورَهم ونشاطَهم ومعتقدهم. وإنْ تكلّموا بعضَ الشيء عنهم فبالعرض، وبسبب علاقتهم بقريش أو بالإسلام. وبغير ذلك لم يتعرّضوا لذكرهم، لا من قريب ولا من بعيد. مع أنّ النبيّ لم يعرضْ عن ذكر بعض الذين أعانوه منهم، أو علّموه[٣٥].

وها نحن نذكر بعض الذين حفظ لنا التاريخ منهم ذكراً ودوراً فعّالاً، مثل الأحباش والغساسنة والروم والمناذرة والفرس واليهود. وقد أشار القرآن إليهم ونوّه بنشاطهم في مكّة وفي انطلاقة الدعوة الإسلامية.

---

(٣٥) انظر سورتي النحل ١٦ / ١٠٦ والفرقان ٢٥ / ٥ ـ ٦ حيث يردّ النبيّ تهمة وجّهت إليه. قال: « ولقد نعلم إنّهم يقولون: إنّما يعلّمه بشر. لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين » (النحل). وقال أيضاً: « قال الذين كفروا: إن هذا إلاّ افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون. فقد جاؤوا ظلماً وزوراً. وقالوا: أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً » (الفرقان). في هذين القولين، تهمة ورد تهمة. وفيهما أنّ قوماً من أهل الكتاب علّم النبي.

ً١ ـ الأحباش والسودان:

مِن هؤلاء « الأجانب » الأحباش أو الأحابيش. وهم شعب نزح من الحبشة، على دفعات متوالية. وسبب نزوحهم اضطهادات فيما بينهم، أو فقر وجوع، أو طمع بمكاسب التجارة الرابحة، أو تبشير بمعتقد.. ومعظمهم كان يشتغل في خفارة القوافل التجاريّة، في بيوت الأغنياء وأرباب الثراء، أو في صناعات وحرف يدويّة.. تكاثر عددهم حتى أصبحوا ذا شأن خطير في مكّة.. وكان لهم مع زعماء قريش، بالنظر إلى فاعليّتهم وكثرة عددهم، حِلْفٌ شهيرٌ في التاريخ، سمّي « حِلف الأحباش ». فيه عَقَدوا الدفاعَ عن مكّة، والقتالَ في سبيل « حرمة البيت والمقام والركن والشهر الحرام ». وغايته « النصر على الخلق جميعاً حتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها، وعلى التعاقدِ، وعلى التعاونِ على كل مَن كادَهم من الناسِ جميعاً »[٣٦].

مثلُ هذا الحِلْفِ يدلّ على أمورٍ هامّة وخطيرة: منها كثرةُ عددِ الأحباش ونفوذُهم في مكّة، ومنها إنّ البيتَ الذي تحالفوا عليه لم يكن بيتَ أوثان، كما يريده المسلمون، لأنّ الأحباشَ في معظمهم كانوا نصارى، بشهادة قول النبيّ عن واحد منهم اسمه « الحلّيس » وهو زعيمهم وسيّدهم آنذاك: « إن هذا من قوم يتألّهون ». « وقد يشير الرسول بذلك إلى أنّهم كانوا نصارى »[٣٧]. ولا غرابة في تنصّر الحبشة منذ عهود المسيحية المبكّرة.

وفي كتب الأَخبار الإسلاميّة ذكرٌ هامّ لحملةِ أَبْرَهَة، قائدِ الجيوش الحبشيّة إلى اليمن، انتقاما من اليهودِ الذين قضَوا على مسيحيّ نَجْران، وحفروا الخنادقَ لدفنهم فيها أحياء.. ممّا أثار حفيظةَ مسيحيّ الحبشة، وعلى رأسِهم

---

(٣٦) تاريخ اليعقوبي ١ / ١١٢ النجف ١٩٦٤، ابن هشام ٧٤٢، الطبري ١ / ١٥٣٨، الأغاني ٤ / ١٩، طبقات ابن سعد ٢ / ٧٠، الخراج لأبي يوسف ٢٤٨.

(٣٧) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٤ / ٣٥.

النجاشي الذي وجد المسلمون الأوّلون فيه « خيرَ جار في خير دار »، وحملوا لـه من الرسول « سورة مريم »، وهي آية في الإيمان بالمسيح وأمّه وعجائبه... وفي القرآن أيضاً ذكر لحادثة نجران لبقاء صورتها في مخيّلة الناس[٣٨].

إلاّ أنّ الأحباش لم يَبقوا على صفاء دمهم الحبشي، بل تزاوجوا مع قريش وسائر القبائل القاطنة في مكة، حتى أصبح كثير منهم يُعَدّ مِن قريش وكنانة، ويَحْسَبَ، بالتالي، فرعاً من فروع قريش، وإنْ دون مستواهم فخراً. وبهذا أصبح الأحباشُ، بنظر بعضِ الباحثين، من سكّان مكّة الأصيلين. وقد أشار بعضهم إلى أنّ قوماً من أشراف مكّة تزوّجوا من حبشيّات، فأولدنَ لهم أولاداً حفظَ التاريخ اسمهم، أمثال : فضلة بن هاشم بن عبد مناف، ونفيل بن عبد العزّى، وعمرو بن ربيعة، والخطّاب بن نفيل والد الخليفة عمر، وعمرو بن العاص، وجماعة آخرين[٣٩].

وكان المكّيون يعتمدون على شجاعة الأحباش وانصياعهم ليكلّفوهم بمهامّ التجارة وخفارة القوافل والأعمال الصعبة. ويذكر لنا ابن سَعْد عن أحد سادة هُذيل أنّه كان « يمشي وراءه الأحابيش »[٤٠]. والنبي محمّد « كان عنده من الأحابيش بَلال وأخوه أبو رويحَة. وكان بَلال يمشي أمامَه مستلاًّ سيفَه. وأشار المحدِّثون إلى وجود غيرهما في حاشية النبيّ، حتى أنّهم ذكروا من هؤلاء أخا النجاشيّ نفسه »[٤١]. ويذكرون أيضاً أنّ النبيّ، بعد فتح مكّة، فكّر بالسير على بني هوازن، فنصحه أبناء وطنه أن يستخدم في ذلك الحبشان[٤٢].

---

(٣٨) انظر سورتي مريم ١٩ والبروج ٨٥ في القرآن.
(٣٩) انظر فصل « أبناء الحبشيات » في المحبر لابن حبيب، ص ٣٠٦.
(٤٠) طبقات ابن سعد ٢ / ٣٦.
(٤١) انظر: أسد الغابة في أسماء الصحابة ٢ / ١٤٤، ٣ / ٣٦، ٤ / ٢٥٣، مسند ابن حنبل ٤ / ٩٠، الخراج لأبي يوسف، ص ١١٩.
(٤٢) كتاب الأغاني للأصفهاني ١ / ٢٣.

ولكثرة الأحباش في مكّة وشدّة نفوذهم كانوا ينشرون الذعر بين الناس. وكان قد سرى اعتقاد فيما بين قريش بـ« أنّ الكعبة يهدمها الأحباش »[٤٣]. وبالفعل كانت قد تعدّدت غزوات الأحباش على ساحل مكّة، في حياة النبيّ[٤٤]. وبعد موته، فاضطرّ عمر بن الخطّاب إلى إرسال حملة خاصّة بهم، ولكنّها هلكتْ كلّها[٤٥]. وبسبب ذلك وُضِعَ على لسان النبيّ حديثٌ خطير في شأنهم يقول فيهم: « لا تبعثوا الرابضين التركَ والحبشة ». يريد: « لا تهيّجوا عليكم الأحباش (والأتراك في أيّام العبّاسيين) ما داموا رابضين ساكنين لا يقصدونكم »[٤٦].

وقد رأى الأب هنرى لامنس أنّ الأحباش كانوا يؤلّفون قوّة عسكريّة وتنظيماً قائماً، كوّنتهم مكّة للدفاع عنها[٤٧]. وتبيّن له أنّهم كانوا جماعة قائمة بذاتها، مستقلّة في إدارة شؤونها، يدبّر أمورَها رجالٌ منهم، يُعرف أحدهم بـ« سيّد الأحابيش »[٤٨]. وقد عاشوا عيشة بدويّة خارج مكّة، يعملون لسادة قريش، في خفارة تجارتهم، وفي حراسة أعمالهم، وصناعات يدوية، وخدمات منزليّة. وقد كان من نسائهم مرضعات ومربّيات كثيرات. ويذكر أنّه كان منهنّ للنبيّ أكثر من واحدة..

بيد أنّ انفصال الأحباش عن أهل قريش لم يكن ظاهراً إلى هذا الحدّ، كما أنّه لم يكن بدون اختلاطهم مع قريش اختلاط مصالح، ومصاهرة، ومشاركة في أمور عامّة، وفي معتقدات دينيّة، لم يَسْلَمِ القرآنُ منها في تقرير عقيدته في الله والمسيح وسائر الأنبياء وفرائض الدين العمليّة.

---

(٤٣) الأزرقي ١٩٣، سنن أبي داود ٢ / ١٣٣، النهاية لابن الأثير ٢ / ١٩٣ و٢٦٤. و٤ / ١٨٨.
(٤٤) طبقات ابن سعد ٢ / ١١٨.
(٤٥) أسد الغابة ٤ / ١٤.
(٤٦) النهاية ٢ / ٥٩، ابو داود ٢ / ١٣٣، ابن الديبع، تيسير الوصول ٣ / ١١.
(٤٧) الأحابيش والنظام العسكري في مكّة زمن الهجرة، المشرق سنة ١٩٣٦ ج ٣٤.
(٤٨) ابن سعد ٢ / ٧٠، الأغاني ١٤ / ٢٠، ١٩ / ٧٩، ابن هشام ٢٤٥، ٧٤٣...

٢ - الغساسنة والرّوم:

هؤلاء هم من بلاد الشام وفينيقيا الداخليّة. تَميّزوا ببَشَرتِهم البيضاء، على غير بَشَرَةِ أهل الحبشة والسودان. كان عندهم مهارةٌ وخبرةٌ وفنّ، قاموا بأعمال البناء والنجارة والحدادة وصنع الآلات الحربيّة والزراعيّة والمهنيّة... لبعضهم علمٌ ومعرفة تفوقُ أربابَهم المالِكين لهم. ولا بدّ من أنّهم تركوا في البيئة التي يعيشون فيها ويعملون أثراً فعّالاً وأعمالاً ذاتَ شأن(٤٩).

وما يُستَلهمُ من آيات القرآن في ذكرِ النصارى والمسيحيين(٥٠) وما لهم من معتقدات، وما فيهم في اختلافات، يكفي للدلالة على وجودهم الواسع وأثرهم الفعّال. فمِن قصّةِ ولادة يحيى بن زكريّا، إلى بشارة مريم وولادتها لعيسى، وعجائبه، إلى الكلام على صَلبه وموته وبعثته، إلى الثالوث الإلهي، إلى الفرائض والواجبات العملية، إلى الكلام عن الرهبان السائحين، إلى مباحثات النبي مع وفد نجران المسيحي.. إلى خبر انكسار الفرس والبشرى بفوز الروم عليهم.. إلى غير ذلك من دقائق الدين النصراني.. كلّه يدلّ على معرفة واسعة بالنصرانيّة، وإلى وجود نصراني كبير في مكّة(٥١).

هذا بالإضافة إلى ذكر أسماء نصرانيّة من مختلف الأعراق نجدها في كتب السِيَر وروايات المخبرين. فكتب السِيَر تشيرُ إلى شَمّاس زارَ مكّة في زمن الجاهليّة(٥٢)، وإلى الراهب عِيْص يعيش في مرّ الظهران(٥٣)، وإلى الراهب عَدّاس النينوي الذي شفى محمّداً في صِغَره من رَمَد في عينَيه(٥٤)،

(٤٩) جواد علي، ٤ / ١١٩ - ١٢٠، أسد الغابة ٥ / ٥٩، مسلم ٢ / ١٨٩.
(٥٠) ميزنا في « قسّ ونبيّ » بين نصارى وهم يهود تنصّروا، ومسيحيين من الأمم.
(٥١) انظر في هذا كتاب « قس ونبيّ » وهو بحث في نشأة الإسلام الدينية.
(٥٢) ابن هشام ١ / ٣٤٩، أسد الغابة ٣ / ٣٧٥، ٤ / ١٤٨.
(٥٣) الحلبية ١ / ٧٥، ابن كثير ٢ / ٢٧٢: « كان الله آتاه علماً كثيراً.. »
(٥٤) الحلبية ١ / ٢٦٧، السيرة المكية ١ / ١٨٣، الأغاني ١١ / ٤٣.

إلى القسّ بن ساعدة الذي سمع محمّدٌ عظاته في عكاظ[٥٥]، إلى القسّ ورقة بن نوفل الذي عاش مع محمّد أربعاً وأربعين سنة، وكان له نسيباً يدرّبه، ويعلّمه، ويهتمّ به، وقد زوّجه من خديجة، ونقل له « الإنجيل العبراني »؛ وعند وفاته قيل عنه: « ولم يَنْشَبْ وَرَقَة أن تُوفّي وفَتَرَ الوحيُ »[٥٦].

هذا قليل ممّا تذكره كتب السِيَر والأخبار عن الرهبانِ والقسّيسين في مكّة أيّام بدء الدعوة المحمّدية. وقد كان إلى جانبهم أسماء نصرانيّة أخرى لا تَقِلّ أثراً وأهميّة في شؤون مكّة. فمنهم « جَبْر النصراني غلامُ الخضرَمي »[٥٧] الذي اتُّهِم بتلقين القرآن لمحمّد[٥٨]، ومنهم « غلامٌ آخر اسمه يَسَار »[٥٩] واتُّهم بما اتُّهم به « جَبر ». وأشير أيضاً إلى غلام آخر اسمه « بَلعام » ذُكِر عنه أنّ النبي « كان يدخلُ عليه ويخرجُ من عنده. وقالوا: إنه كان يتعلّم منه. وكان نصرانيّاً »[٦٠]. وذُكر أيضاً عن رجلٍ اسمه « نَسطَاس » وكان من موالي صَفوان بن أميّة[٦١]، وعن « نسطورِ الرومي » و « يوحنّا مولى صُهيب »، وصهيب الرومي كان من صحابة الرسول، اشترك مع عبد الله بن جدعان الثري الكبير، ثم استقلّ عنه، بعد ما صار من أثرياء مكّة[٦٢]. ويُذكر أيضاً عن مولًى يونانيّ تزوّجَ أمَ بَلال الحبشي مؤذِّنِ الرسول الأوّل[٦٣].

---

(٥٥) انظر كتب السير جميعها، وفيها قول النبي عنه: « هذا رجل من إياد قد تحنّث، أي تحنّف وتعبّد. انظر مثلاً الأغاني ١٤ / ٤١.

(٥٦) صحيح البخاري ١ / ٣٨. انظر في القسّ « ورقة » كتابنا « قسّ ونبيّ » فهو في مجمله بحث في حياة « ورقة » واهتمامه بالنبي وعلاقته به، وفي تعاليمه القرآنية.

(٥٧) ابن هشام ١ / ٢٦٠.

(٥٨) انظر سورة ١٦ / ١٠٦ و٢٥ / ٥ ـ ٦ والتفاسير عليها.

(٥٩) الاصابة ١ / ٢٢٢.

(٦٠) الاصابة ١ / ١٦٥.

(٦١) الأغاني ٤ / ٤٢، ابن هشام ١ / ٦٤٠، أسد الغابة ٢ / ٢٣٠، الواقدي، أسباب النزول، ٢٥٣.

(٦٢) ابن هشام ١ / ٣٢١، أسد الغابة ٣ / ٢٣، ٤ / ٤٢٧، ميزان الاعتدال ٣ / ٢٢٥.

(٦٣) لامنس، النصارى في مكّة قبل الهجرة، المشرق ج ٣٥ سنة ١٩٣٧.

وعند أهل الأخبار أيضاً ذكر عن جماعات نصرانيّة من عين التمر، في ما بين النهرين[٦٤]، ومن المصريين ذكور وإناث رافق عدد منهم ماريّة القبطية هديّة المقوقس ملك الأقباط إلى النبيّ[٦٥]، ومن اليونانيين جارية في حرم عبّاس[٦٦]. ونذكر أيضاً « فرات بن حيّان » وهو أشهر الأدلاّء وقادة القوافل في مجاهل الصحراء[٦٧]..

وقبل دعوة النبيّ بسنوات عدّة، وكانت الكعبة « لا سقف عليها »[٦٨]، جاء رجل من الروم، أو من الأقباط، اسمه « باقوم » أو باخوميوس، وراح يعمل فيها ويسقّفها وينجّر أبواباً لها. وتذكر كتب الأخبار أيضاً أطبّاء وجرّاحين وأطبّاء أسنان « كانوا كلّهم من النصارى في مكّة »[٦٩]. كما تذكر الكتّاب والحَسَبة والمعلّمين دون أن تذكر « اسم معلم واحد من القرشيين »[٧٠].

وهناك عنصر آخر من الوجود النصراني الواسع في مكّة، وهو يعود إلى نساء نصرانيّات تزوّجن من أهل مكّة. وهنّ من اثنيّات مختلفة. فوالدة « عائشة » زوج الرسول، واسمها « أم رومان » من نساء النصارى، وهي من قبيلة طيّ النصرانيّة، تزوّجها أبو بكر الصديق ليكون له مع قبيلتها حِلفٌ ومصاهرة[٧١]. وكذلك كان لعثمان بن عفّان زوجةٌ نصرانيّة[٧٢]، وللخليفتين معاوية ويزيد أيضاً زوجات نصرانيّات من بني كلب[٧٣].

---

(٦٤) الواحدي أسباب النزول ٢١٢، أسد الغابة ٣ / ١٣١، ٥ / ٤٦٢، ١٩٤.
(٦٥) أسد الغابة ٤ / ٢٦٨، وغير ماريّة القبطية من أقباط مصر تجدها في أسد الغابة ٥ / ١٢٨، ٤ / ٢٤٢، الذهبي، ميزان الاعتدال ٣ / ١٣٤.
(٦٦) أسد الغابة ١ / ٢١٢، ٤ / ٢٣٢.
(٦٧) ابن سعد ٣ / ٧، يذكر أبو داود عنه أنه كان حليفاً للأنصار في ١ / ٢٦٢.
(٦٨) تاريخ الطبري ٢ / ٢٠٠، الحلبية ١ / ١٤٣، الاصابة ١ / ١٣٦، ١٦٦.
(٦٩) لامنس، النصارى في مكّة... مشرق ج ٣٥، سنة ١٩٣٧، ص ٢٦٧.
(٧٠) المرجع نفسه، ص ٢٦٨.
(٧١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٨٠.
(٧٢) شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ص ١٢٠.
(٧٣) لامنس، في كتابَيه بالفرنسيّة « معاوية » ص ٣٠٩، و « يزيد ».

وعُرف عن عثمان أنّه زوّج بنتاً له اسمها « أم حبيبة » من أحد شبّان النصارى[٧٤]. وكذلك النبيّ زوّج إحدى بناته إلى عتبة بن أبي لهب الذي اعتنق النصرانيّة ومات عليها[٧٥]. وقد شَهِدَ على نصرانيّته أمام النبيّ نفسِه، وقال له بجرأة: « يا محمّد! أَشهَدُ أني نصراني قد كفرتُ بربّك، وطلّقتُ ابنتَك »[٧٦].

وليس مَن ينكر على أبي سفيان دورَه وحماسَه في إسلامه حتى كان « لا يسقط له رأي في الجاهليّة ». ومع هذا « لم يتراجع عن اختيار أصهرة وأحماء من النصارى. ولقد تبعه محمّد نفسُه في هذا السبيل »[٧٧]. والنّبيّ، الذي يجهل المسلمون دينَه الأساسي، أو يتجاهلون، كانت معظمُ زوجاتِه ممّن لهنّ علاقةٌ قريبةٌ بالنصرانيّة، إنْ لم نقلْ من النصرانيات: لقد تزوّج أوّلَ ما تزوّج من خديجة، وهي بنت عمّ القس ورقة رئيس النصارى في مكّة[٧٨]، وبنت عمّ عثمان بن الحويرث أيضاً، وقد مات على نصرانيّته في بلاد الروم. ثم تزوّج من عائشة بنت « أم رومان » النصرانيّة، كما رأينا. ثمّ من سَودَة مطلَّقةِ زَيْد بن نفيل زعيمِ الحنفاء ثمّ من أم حبيبة مطلَّقة عبد الله بن جحش الذي تنصّر وهو في الحبشة، وهو ابن عَمّة الرسول المدعوة « أميمة ». ثم من ماريّة القبطية هديّة ملك القبط...

وتبقى إشارةٌ سريعة إلى بني أسد بن عبد العزّى بن قصيّ. هؤلاء هم من « الملأ الأعلى » في مكّة. وكانوا أقرب أُسَرِ قريش إلى النصرانيّة. بل « قومٌ كثيرٌ منهم قد تَنَصّر »، على حدّ قولِ اليعقوبي[٧٩]. وقد منحوا « لقَبَ

(٧٤) طبقات ابن سعد ٨ / ٦٨، ابن هشام ١٤٣ ـ ١٤٤، ابن قتيبة المعارف ٤٢.
(٧٥) أسد الغابة ٥ / ٤٥٦.
(٧٦) الأغاني ١٥ / ٢، لامنس، فاطمة (بالفرنسية)، ص ٣.
(٧٧) لامنس، النصارى في مكّة، المشرق ج ٣٥، سنة ١٩٣٧، ص ٤٧٢.
(٧٨) راجع كتابنا « قس ونبي ».

الأحلاف لعددٍ من نصارى غسّان »[٨٠] الذين كان لهم حظُّ النزول في « بطحاء مكّة، منزلِ الأسر الكريمة، وحظّ السكن بجوار الكعبة في أقدس بقعة من مكّة »[٨١]. إذا عرفنا ذلك نكون عرفنا « أيّ تأثير كان لهم، وبأيّة عناية كان يحيطهم أبناء مكّة »[٨٢].

ومن المعروف أن الغسّانيين كانوا « ملوك الشام »، وذوي تأثير كبير بسهرهم على الحدود البيزنطيّة، وبحفظهم طرق القوافل الذاهبة والآيبة من بلاد الروم وإليها. وهو أمر في بالغ الأهميّة بالنسبة إلى المدينة المقدّسة.

٣ - المناذرة :

لقد حصل رجال مكّة من كسرى عهداً للمتاجرة في بلاده[٨٣] كتلك العهود التي حصلوها من الروم والحبشة واليمن ومصر. وبواسطة هذا العهد أيضاً سُمِحَ للفرس بدخول مكّة، وبشراء البضائع منها بأسعار مقبولة، ليبيعوها للبيزنطيين، عن طريق العراق وتدمر، بأغلى الأثمان. وبدخول الفرس مكّة، وتنقّل المكّيين في بلاد فارس، حصلت علاقات على مختلف الصعد. فكانت الديانةُ المجوسيّة، على ما يبدو من القرآن وكتب السِير، معروفةً في مكّة معرفة تامّة. وكذلك لغة الفرس التي أدخلت الكثير من مفرداتها في اللهجات المكّيّة. وذلك قبل اجتياح المسلمين لبلاد فارس، وقبل معرفتهم باللغة الفارسيّة.

---

(٧٩) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٥٧.
(٨٠) الأزرقي، ٤٦٦، أسد الغابة ٥ / ١٥.
(٨١) الأزرقي، ٤٥٨، ٤٦٠، لامنس، النصارى في مكّة زمن الهجرة، مشرق ١٩٣٧، ج ٣٥، ص ٢٧٦.
(٨٢) لامنسن المرجع السابق مع مراجعه.
(٨٣) تاريخ الطبري ٢ / ١٢.

وبسبب عهود قريش مع الفرس استطاع المكّيّون الاتّصال المباشر مع المناذرة أهل الحيرة والأنبار، حلفاء الفرس، وأعداء الغساسنة والبيزنطيين. وكان هؤلاء المناذرة يتاجرون في أسواق مكّة في حماية بعض رؤساء القبائل العربيّة[٨٤]. وبسبب هذا النشاط التجاري تعلّم المكّيون أصولَ الكتابة والقلم العربي من الحيرة[٨٥]. وجاء معلّمون من الحِيرة والأنبار يدرّسون لغتهم في مكّة، حتى أصبحتْ لغتُهم وقلمُهم هما لغة قريش وقلمها المعمول به حتى اليوم[٨٦]. ومع اللغة دخلت معتقدات وعادات من أهل الحيرة، وظهرت جليّاً في القرآن والأحاديث النبويّة.

ولكن، رغم اتّصال مكّة بالفرس، لم يعرف عن هؤلاء أنّهم نشطوا في تجارتهم مع مكّة، وذلك بسبب استيراد الفرس أنفسِهم للبضائع من بلد نشأتها، أي من الهند وامارات الخليج الفارسي. فلهذا لم يكن تأثير بالغ بين مكّة وبلاد فارس. بل كان اتّصال مباشر بين هؤلاء الفرس ومصادر بضائعهم، ممّا أضعف الحركة التجارية بينهم وبين مكّة. أضف إلى ذلك: إنّ « احتكار الفرس للتجارة الشرقيّة، ومغالاتهم في قيمة الضرائب، ورفع الأسعار، من الأسباب التي روّجت تجارة مكّة، وقوّت مركزها لدى البيزنطيين »[٨٧]. ومع ذلك استفادت قريش من حلفاء الفرس أعظم ما يمكن أن يستفيده إنسان، أي اللغة والقلم العربيين. لقد كان المناذرة بالنسبة إلى مكّة والحجاز تماماً كما كان الفينيقيون بالنسبة إلى اليونان والرومان.

---

(٨٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١ / ٣٥٩ ـ ٣٦٠، النويري، نهاية الأرب، ١٥ / ٤٢٥، أحمد أمين، فجر الإسلام، ١٤.
(٨٥) ابن هشام ٢٩١، الزبيرى، نسب قريش ١٣٦، وخاصّة البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧.
(٨٦) انظر كتابنا « أعربي هو؟ »، فصل اللغة العربية.
(٨٧) الشريف، مكّة والمدينة..، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

٤ ـ اليهود ـ المتنصّرون (أي النصارى):

لا نجد لليهود، في السور المكيّة، أيّ ذكر. بل لفظة « يهود » نفسها لم يستعملها القرآن المكّي. ولكن هناك استعمال واسع للفظتي « أهل الكتاب »[٨٨] و « بني إسرائيل »[٨٩]، وللفظة « نصارى »[٩٠]؛ كما أنّ هناك ذكر لأنبياء العهد القديم وشخصياته البارزة، ابتداء من آدم وقصّته في الجنّة، وأبنائه وأحفاده، إلى نوح وأولاده وحادثة الطوفان، إلى ابراهيم وابنيه وامرأته هاجر، إلى لوط وعمله الشنيع مع بناته، إلى يعقوب وأسباطه الاثني عشر، إلى يوسف وقصّته مع أخوته، إلى موسى وهارون ويشوع بن نون، وقصّتهم مع فرعون مصر... إلى تعاليم مأخوذة مباشرة من التوراة والمزامير والأسفار الحكمية.. إلى غير ذلك الكثير الكثير...

ولكن هذا لا يعني أنّ القرآن المكّي أخذ معارفه عن اليهود مباشرة. فهذه كلّها أمور مشتركة بين اليهود واليهود ـ المتنصّرين، أي، النصارى. وليس من حجّة تدلّ على أنّ النبيّ أخذ علمه بها من اليهود. بل هناك حجّة تثبت عكس ذلك، أي تثبت أن القرآن لم ينقل عن اليهود، إذ لو كان أخذ عن اليهود مباشرة، لكان، أقلّه، ذكره، ولو مرّة واحدة، اسماً من أسماء أحد الأنبياء اليهود الكبار، أمثال: أشعيا، وارميا، وحزقيال، وعاموس، وهوشع، وغيرهم.. وغيرهم.. جلّ ما أخذه القرآن كان من الأسفار الخمسة الأولى، وهي أسفار مشتركة بين اليهود والنصارى، دون سواها من أسفار العهد القديم.

والمسلمون أنفسهم يشهدون على غياب اليهود عن مكّة. فصاحب كتاب « مكّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول » يؤكّد بـ« أنّه لم تكن في مكّة جالية

---

(٨٨) يرد هذا التعبير ٥٤ مرّة. انظر المعجم المفهرس للقرآن.
(٨٩) يرد هذا التعبير ٤١ مرّة. انظر المعجم المفهرس للقرآن.
(٩٠) يرد هذا التعبير ١٤ مرّة. انظر المعجم المفهرس للقرآن.

يهوديّة كبيرة، ولا صغيرة، حيث لم يذكر القرآن المكّي احتكاكاً ولجاجاً بينهم وبين النبي كما حدث في يثرب. ومن المحتمل أنّ المستقرّين منهم بمكة كانوا أفراداً قلائل.. وإنّه لم يكن لهم أثر في حياة مكّة السياسيّة، كما كان شأن الإسرائيليين في يثرب »(٩١).

وربما يعود سبب ذلك إلى أنّ عمل اليهود لم يكن يناسب وضع مكّة التجاري، ولا وضع اليهود الديني والقومي يناسب وضع بلد مفتوح كمكّة: فمكّة مدينة تجارية، واليهود شعب يعمل في الصناعة والزراعة. مكّة مدينة مفتوحة، واليهود شعب مغلق على ذاته. مكّة سمحة، متساهلة، تترفّع عن كل تعصّب، واليهود يشدّهم التعصّب، وتتأكّلهم الأنانيّة والأثرة. مكّة تقبل في كعبتها آلهة متنوّعة، وتمارس عبادات وتقاليد متلّونة، واليهود يغارون على يَهْوَاْهُم ويتشدّدون في ممارساتهم الدينية. مكّة تستميت في فعل الحسنات والصدقات، واليهود يتأكّلهم الشحّ والبخل. مكّة تهوى الحركة والتنقّل وتغيير السلع والبضائع، واليهود يفضّلون الاستقرار، ويميتهم التفريط والإسراف...

فإذا ما استجاب القدر ونجح أحد مكّة بثورة اجتماعيّة ما، فسوف يكون اليهود أوّل ضحيّة لأيّة ثورة. سيكون ذلك لا محالة. ولا محالة قد كان ذلك.

زد على ذلك: إن اجلاء الأحباش لليهود عن اليمن، بعد حادثة نجران، أكمل سعيَه فأجلاهم عن مكّة، طريق الأحباش إليها. وأيضاً: إنّنا لم نسمع قط بأيّة قبيلة يهوديّة سكنت مكّة، أو رابطت في ضواحيها. وأيضاً: منذ البدء، وتحسّباً لما بعد، تنبّه تجّار مكّة وأربابها إلى خطر اليهود عليهم في اقتصادهم ومعتقداتهم. وفي السيرة أيضاً، نرى جميع الذين عرفوا علامات النبوّة العتيدة في محمّد، حذّروه من خطر اليهود المحدق. ونحن إنْ لم

---

(٩١) ابراهيم الشريف، ص ٩٥.

نأخذ بهذه التنبؤات، فإنّنا لا نستطيع إلاّ الأخذ بهذا الخطر والتأكّد منه والتنبّه إليه(٩٢).

إلاَّ أنّ خطأً جسيماً وقع فيه المخبِرون والمحدِّثون وأصحاب السِير، وهو يكمن في خلطهم بين اليهود واليهود - المتنصّرين. أولئك لم تعرفهم مكّة، أمّا هؤلاء فمعظم مكّة منهم. هؤلاء هم المسمّون في القرآن « أهل العلم » و « بني إسرائيل » و« أهل الكتاب » و « النصارى » و « الحنفاء » و « الحمس » و « الصابئة ». وهم يختلفون في عقيدتهم عن اليهود وعن المسيحيين سواء. عن اليهود لأنّهم يؤمنون بالمسيح، فيما اليهود لا يؤمنون؛ وعن المسيحيين لأنّهم يؤمنون بالمسيح نبيّاً ورسولاً فحسب، فيما المسيحيون يعتبرونه إلها أو ابناً لله. على هؤلاء المسيحيين لم يتعرّف محمّد إلاّ في السنة ما قبل الأخيرة من رسالته، أي في ما يسمّى بـ« عام الوفود »؛ وقد كان لهم مناوئاً(٩٣).

---

(٩٢) انظر في ذلك كتب السير عن تنبّؤات الأحبار والرهبان والكهّان والسحرة والملوك.. وجميعهم يحذّر النبيّ من خطر اليهود. راجع: سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، والسيرة الحلبية، والمكيّة، وابن كثير، والطبري، وابن الأثير، واليعقوبي، والمسعودي، وابن خلدون، والواقدي، وغيرهم وغيرهم...

(٩٣) انظر كتاب « قسّ ونبيّ » في الفرق بين المسيحيين والنصارى واليهود.

خَاتِمَة الفَصْل الثَاني

نستنتج من وضع سكّان مكّة جملة أمور، قد تكون بالغة الأهميّة في بدء البعثة النبويّة، في مطلع القرن السابع للميلاد. ونوعيّة سكّان مكّة، كطبيعتها وموقعها، تقرّر نوعيّة البعثة المحمدية. فالرسالة إنّما تكون لشعب يدركها ويفهمها. إنّها رسالة معيّنة لشعب معيّن، في وضع معيّن، في زمن معيّن، وفي بيئة معيّنة. وتكون بلغة يدركها الجميع، وفي متناول الجميع. ألم يقل القرآن: « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم »[٩٤]؟ ألم يقل أيضاً: « أرسلنا فيكم رسولاً منكم »[٩٥]؟ أو قوله: « لكل أمّة رسول »[٩٦]؟ أو « بعثنا في كل أمّة رسولاً »[٩٧]؟.. لهذا السبب نستطيع القول: إن نوعيّة الشعب تحدّد نوعيّة الرسالة وتفرضها عليه.

وشعب مكّة لا بدّ هو الآخر من أن تميّزه طبيعة الأرض التي تغمره، فتطبعه البيئة بطابعها، ويوجّهه المجتمع بحسب توجّهاته وقيمه. وأهم صفات هذا المجتمع البشري في مكّة إنّه « شعب تجمّع »، لا يؤلّف « جماعة ». وشعب « منفتح » لا مغلق. وشعب « حركة » تجاريّة ناشطة، لا شعب راكد خمول. إنّه شعب متساهل سموح، لا شعب متعصّب متزمّت. ومكّة لم تكن في عزلة عن العالم الخارجي. وسكّان مكّة لم يكونوا ليكرهوا الغريب والجار، كما يصوّره أهل الأخبار بل كانوا يرحلون، يسافرون، يتاجرون، يأخذون ما عند غيرهم، ويتأثرون بما لغيرهم من مناقب وقيم، ويتصاهرون مع غيرهم، ويتعاملون مع الكل في كل شيء.

---

(٩٤) القرآن ٣ / ١٦٤، انظر: ٦٢ / ٢، ٢ / ١٢٩.
(٩٥) القرآن ٢ / ١٥١، ٢٣٩.
(٩٦) القرآن ١٠ / ٤٧.
(٩٧) القرآن ١٦ / ٣٦.

والمكّيون، في مدينتهم، كان لهم اختلاط واسع بشعوب الأرض المعروفة لديهم آنذاك. ومدينتهم لم تكن محرّمة، في ذلك التاريخ، على النصارى أو اليهود أو المجوس أو عبدة الأوثان، كما هي حالها اليوم. ولم يكن أهل مكّة ليخافوا على مدينتهم إذا ما مارس كل صاحب دين دينه. وهذا الانفتاح قرّر، في الواقع، نوعيّة المجتمع فيها، وبالتالي، نوعيّة الرسالة النبويّة.

فقريش لم تكن وحدها متحكّمة بمكّة. وليست وحدها تستأثر بالحياة فيها. بل هناك قبائل وشعوب مختلفة الأعراق والأنساب انصهرت بالمجتمع المكّي. كما كان فيها أغراب وطارئون أمّوها للاستفادة من التجارة والأرباح، ولأجل وفرة الأمن فيها، أو للتعبّد في كعبتها.. إلاّ أنّ المؤرّخين المسلمين اقتصروا، منذ عهد العباسيين، الكلام على قريش؛ وذلك اعلاءً لشأن النبيّ. وهكذا، أنقصوا من حقّ بقيّة السكّان، دون مبرّر غير مبرّر الاحتفاظ بصحّة انتماء النبيّ القوميّ إلى ما سمّوه بـ« الأمّة العربيّة ».

ولنا أن نلاحظ أيضاً أنّ الهجرة إلى مكّة لم تكن متدفّقة إليها من جهة الجنوب فحسب، كما يحلو للمسلمين اثباته، بل كانت متتالية إليها من كلّ حدب وصوب، من مختلف البيئات والمجتمعات. ومن أجل كل سبب من تلك الأسباب التي رأينا. وقد توقّفنا على هويّة بعض السكّان، لما لهم في مكّة وفي الدعوة القرآنيّة من أثر ونفوذ. فكان للأحباش، مثلاً، في مكّة، أثر في الحياة العامّة. وكان للغساسنة أثر في تجارة مكّة وسياستها. وكان للمناذرة أثر في اللغة والعلم. وكان للنصارى أثر في العقيدة والفرائض الدينيّة... وغير هؤلاء الكثير من الرومانيين واليونانيين والمصريين والسودانيين والأقباط. كلّهم طرأوا أبواب مكّة. وكلّهم وجدوا فيها معاشاً.

الفَصل الثَالِثْ

مَكّة مَدينة التّجَارَة

أولاً : مَوقَع مَكَّة التجَاري

ثانياً : دَور مَكَّة التجَاري

ثالثاً : تِجَارة مَكَّة في القرْآن

رابعاً : البضَائع والأربَاح

خامساً : قرَيشْ التجَّار

سادساً : سِرّ نجَاح قرَيْش

خَاتِمَة الفَصْل الثَالث

أولاً: مَوقَع مَكَّة التجَاري

إذا كانت مكّة قد اشتهرت في التاريخ بكعبتها، فإنّها لم تقلّ شهرة من حيث دورها التجاري الذي يعود إلى موقعها الجغرافي الممتاز. ففقر أرض مكّة لم يُعدِم أهلَها حيلةً. وجدب صحرائها يعادله نشاط أهلِها. وحال طبيعتها القحل لم يقف حائلاً دون استراتيجيّة موقعها في جغرافيا الجزيرة. لقد عوّض الله على مكّة بموقعها هذا حتى غدت تستفيد منه إلى أقصى حدود الاستفادة.

تقع مكّة في منتصف الطريق التجاري الممتدّ بين اليَمَن ـ بلادِ اليُمْنِ والخيرات ـ وبلاد الشام ـ سوقِ الاستهلاكِ الكبير. في هذه العِقدة تتجمّع القوافل الواردة من « العربيّة السعيدة » باتّجاه بلاد الشام، والقوافل العائدة من بلاد الشام باتّجاه العربيّة السعيدة. وفيها تستريح الرجال من حرّ البادية وعناء السفر. ومنها تتزوّد رزقها وبضاعتها وما تحتاج إليه. وبفضل هذا الموقع سكن الناسُ مكّة، وهم من جميع الأنحاء ومختلف الألوان والمشارب. وكان لهم فيها ربح وأموال وترف.

فـ« في منتصف الطريق المعبّد للقوافل، بين اليمن والشام، تقوم مكّة في واد منبسط من أودية جبال السراة، تحيط بها الجبال الجرداء من كلّ جانب، وتكاد تحجبه إلاّ من ثلاثة منافذ، يصله أحدُها بطريق اليمن، ويصله الثاني بطريق قريب من البحر الأحمر عند مرفأ جَدَّة، ويصله الثالث بالطريق المؤدّي إلى فلسطين »(١). بهذه الطرق اتّصلت مكّة بالجهات الأربع، وكانت

---

(١) الشريف، مكّة والمدينة..، ٩٥. انظر معجم البلدان ٥ / ١٨٧.

على صلة باليمن وممالك حمير وسبا وحضرموت، ومنها مع بلاد الهند، ثم مع بلاد العراق وسوريا وفينيقيا وفلسطين، ومع غزّة ومصر والسودان والحبشة... عبر الجبال والبوادي والسهول والسهوب.

وبسبب موقعها التجاري الهامّ سمّاها القرآن « أمّ القرى »[٢]، أي عاصمة الجزيرة آنذاك، والمركز الرئيسي لمناطق تَهامة ونَجد والحجاز، والملتقى الطبيعي للقوافل الراحلة والمحمّلة بالسلع التجارية، والتجمّع الكبير للقبائل والعشائر من مختلف الأقاليم، والعقدة التي يمرّ بها الغادون والعائدون. « وفي القرن السادس الميلادي كانت أهمّ المراكز التجاريّة في شبه الجزيرة العربيّة »[٣]. لكأنّها مدينة « كوسموبوليتيّة » تضمّ فيها من كل لون ونوع.

وممّا زاد في أهميّة موقعها أنّها « بَعُدَتْ عن منطقة الصراع الدولي لبُعْد موقعها. فنجت ممّا أصاب غيرَها من أطراف الجزيرة العربيّة من الوقوع في مجال العراك القائم بين الشرق والغرب (الفرس والروم) في ذلك الوقت، ولبُعدِ موقعها وصعوبةِ وصول الجيوش إليها احتفظتْ باستقلالها.. بعدما أصاب الممالكَ القائمة في أطراف الجزيرة من انهيار، ووقوعها جميعاً تحت سلطان الدول الكبرى. وقد أتاح لها هذا كما أتاح لها موقفُها الحيادي أن تمثّل دورَ الوسيط المحايد في نقل التجارة التي كانت ضرورية لكل من الطرفين المتنازعين »[٤].

ومن المزايا التي أكسبت مكّة ثروة ومالاً أنّ « مَن دخلها كان آمناً، ومن أحدث في غيرها من البلدان حَدَثاً ثم لجأ إليها فهو آمِنٌ إذا دخلها. فإذا خرج منها أُقيمتْ عليه الحدود.. وكان أهلُها آمنين يَغزُون الناسَ ولا

---

(٢) القرآن ٦ / ٩٢، ٤٢ / ٧.
(٣) حوزيين، العربية والشرق الأقصى (بالانكليزية)، القاهرة ١٩٤٢، ص ١٤٢.
(٤) الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٠٠.

يُغزَون، ويَسبُون ولا يُسَبون.. ولم تُسَبْ قرشيّةٌ قط فتوطَأ قهراً، ولا يُجال عليها السهام »[٥]. وقد أشار القرآن إلى أمن مكّة وأبلغ. كما أشار إلى متاعب غيرها من القرى ومخاوف أهليها فيها:

لقد استحثّ النبيّ أهل قريش إلى عبادة الله، ربّ الكعبة « الذي أطعمهم من جوع وأمّنهم من خوف »[٦]. وقال أيضاً في طلب ابراهيم: « وإذ قال ابراهيم: ربّ اجعل هذا بلداً آمناً »[٧]. وجاء في القرآن أيضاً: « من دخله كان آمناً »[٨]. وأيضاً: « أولم نمكّن لهم حَرَماً آمِنا »[٩]؟ و « أولم يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً »[١٠]؟ وقوله: « لندخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين »[١١]. وأخيراً: « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً »[١٢]. فالأمن في مكّة إذن مستتباً، ممّا جعلها تلعب دورا تجاريّاً هامّاً ومميّزاً.

ثمّ أنّ وجود البيت الحرام في مكّة أكسبها دوراً اقتصادياً بارزاً. هذا البيت الذي أمّه أهل الجزيرة من مختلف الأنحاء، كان له عندهم قدسيّةٌ واحترام لم يحرزهما أيُّ بيت آخَر يُعبَد فيه اسمُ الله. وقد ضاهى بما فُرِضَ عليه من اجلالٍ واكرام هيكلَ اليهودِ في أورشليم. عنده كان يجتمع عبدة الأديان جميعُهم، من يهودٍ ونصارى ومجوس وصابئة. وقد انعقد إجماعُهم على تعظيمه والحجِّ إليه. وأحاطوه بِسُورِ أَمْنٍ حتى أمسى أكثرَ أمكنةِ الجزيرةِ استقراراً وسلاماً. فيما كان كل مكان آخر غيرُه يَتَعَرّضُ للنهْبِ والسلْب والغزو[١٣]. وكان يُمنَع

---

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥ / ١٨٢ ـ ١٨٣، ١٨٥.
(٦) القرآن ١٠٦ / ٢ ـ ٤.
(٧) ٢ / ١٢٦، ١٤ / ٣٥.
(٨) ٣ / ٩٧.
(٩) ٢٨ / ٥٧.
(١٠) ٢٩ / ٦٧.
(١١) ٤٨ / ٢٧.
(١٢) ٢ / ١٢٥.
(١٣) انظر سورتي ١٠٦ / ٤، ٤٨ / ٢٧.

فيه اتيان أيّ محرّم، من قتال واقتتال[١٤]، أو اعتداء[١٥]، أو كفر[١٦]، أو مباشرة النساء[١٧].

ولأهميّة التجارة في مكّة، كمورد رزق وحيد لها، فَرضَ التجّارُ فيها، لأجل سلامة البائعين والشارين، « أشهراً حُرّماً »، لا يكون فيها غزو أو نهب أو قتال. وهي أشهر: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، ورجب. فيها يأمن الناس على أنفسهم وبضاعتهم وقوافلهم، فتغدو الجزيرة، طوال هذه الأشهر، حركة هائلة من البيع والشراء... إلاّ أنّ النبيّ، بتشريعه للجهاد في سبيل الله ضدّ الكفّار والمشركين، لم يتورّع من كسر قدسية هذه الأشهر والذهاب بحرمتها، فحلّل، لأجل الله، القتال في الأشهر الحرم وفي المسجد الحرام بالذات، ذلك لأنّ الكفر والشرك، برأيه، أعظمُ فِتنةً من القتال[١٨].

ويزيدُ في أهمّيّة مكّة أهميّةُ الأسواق فيها وفي ضواحيها. وهي أسواق تجاريّة وأدبية على السواء. وقد ذكر لنا التاريخ منها: عكاظ ومجنّة وذا المجاز، وغيرها.. وكانت عكاظ أكثرَها شهرة وغنى وتنوّعاً في السلع. وكان يؤمّه الشعراء والخطباء ورجال الدين، كما يؤمّه أصحاب التجارة والثروة والمال. وكان الانتفاع يحصل للجميع. إلاّ أنّ الإسلام، بمجيئه، قضى على التجارة فيها و « هدم ذلك »[١٩]. وورد في الحديث « عن ابن عبّاس قال: كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية. فلمّا كان الإسلام تأثّموا من التجارة فيها، فأنزل الله: ليس عليكم جناح في موسم الحج »[٢٠]، أي ليس عليكم أن تجنحوا إلى التجارة وأنتم تقصدون حجّ البيت.

---

(١٤) القرآن ٢ / ١٩١.
(١٥) انظر: ٥ / ٢.
(١٦) انظر: ٢ / ٢١٧، ٢٢ / ٢٥، ٤٨ / ٢٥، ٩ / ١٧.
(١٧) انظر: ٢ / ١٨٧.
(١٨) القرآن ٢ / ٢١٧.
(١٩) تاج العروس، ٥ / ٢٥٤: عكظ.
(٢٠) ارشاد السارى ٤ / ٣٧، تفسير الطبري ٢ / ١٦٤، سورة البقرة ٢ / ١٩٨.

ثانياً: دَور مَكَّة التجَاري

قبل القرن السادس للميلاد، كانت التجارة في الجزيرة العربيّة في أيدي اليمنيين، فينيقيّي العرب آنذاك. أولئك عبروا الصحراء، كما هؤلاء عبروا البحار. فتاجروا بمختلف أنواع السلع، مع مختلف البلدان المجاورة. فكسبوا من ذلك مالاً وعلماً وانفتاحاً وتوسّعاً ومجتمعاً متحضّراً. وأنشأوا مدنيّة تلو مدنيّة يدين لها العالم حتى اليوم. وخلّفوا، فوق أرضهم، ممالك بلغت في الحضارة شأناً كبيراً. فمن دول مثل حمير وسبأ وحضرموت وقتبان وغيرها.. إلى انتشار لغاتهم وحضاراتهم، إلى توسّعهم في حقول الصناعة والزراعة والتجارة.. نرى عالماً يختلف في ذهنيّته وهويّته اختلافاً جوهريّاً عن جيرانه.

هؤلاء اليمنيّون، في مختلف عصورهم، عبروا الصحراء صوب بلاد الشام، مروراً بمحطّات تجاريّة أنشأوها على طرق قوافلهم. فكان منها محطّة في عسير، وثانية في نجران، وثالثة في مكّة، ورابعة في يثرب، وخامسة في البتراء، إلى غير ذلك. وكانت مكّة أشهرها، لأيّ سبب من الأسباب التي رأينا. وكثيراً ما توقّف اليمنيّون فيها، لاستعادة قواهم، والتقاط أنفاسهم، بعد عناء سَيْرٍ مُضْنٍ. وكان توقّفهم يطول ليدّخروا نشاطاً يدوم. وكان المكّيون يقظين ليسرقوا منهم أسرار الربح وكسب المال. وقد أعدّوا نفوسهم ومدينتهم وابلهم ومجتمعهم للقيام بمهمّة التجارة هذه. وساعدهم على ذلك، في بداية القرن السادس، سوءُ حال اليمن التي « تدهورت نتيجة للصراع الداخلي بسبب الخلاف الديني »[٢١] بين المسيحية واليهوديّة[٢٢]بتشجيع من الفرس والروم.

---

(٢١) الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٠٢.
(٢٢) انظر في التاريخ والقرآن قصة شهداء نجران.

لم يفتأ المكّيون إذن حتى اكتسبوا من اليمنيين أسرار الربح وجمع المال. ولم يتأخروا ليتعلّموا مهنة التجارة والسفر. فسافروا بأنفسهم، وتاجروا، وغامروا، ودخلت جرثومة عبادة المال في قلوبهم، وكانوا أهلاً لها. فاختبروا عبور البادية، وحمّلوا عِيْرَهُم من بضائع اليمن، ووجّهوها صوب بلاد الشام، فباعوا، وربحوا، ورجعوا ميسورين مسرورين. ثمّ مرّة ثانية، وثالثة، ورابعة، فتملّكهم المال حتى العبادة. وما إن كانت الدعوة المحمّديّة حتى أصبح المكّيون يستأثرون بالتجارة والأرباح. فعظمت أموالهم، وتعدّدت أسفارهم بكل اتّجاه. وأصبح معظم سكّان مكّة تجاراً محتكِرين، ومرابين نهمين، وأثرياء متخَمين، ومغامرين لا يَتعبون. وسيطروا، من ثمّ، على طرق التجارة، فأزاحوا بقايا اليمنيين من وجههم، وأضحت مسالك الصحراء تحت سيطرتهم، وبكل اتّجاه.

الاّ أنّ الضربة كانت على اليمنيين قاسية. بل هي ضربتان: ضربة من الحبشة، وضربة من مكّة. الأولى كانت بسبب احتلال حبشي لها، وتغيير صورة الحكم فيها، على يد « أَبْرَهَة » قائدِ الجيوش الحبشيّة. والثانية كانت بسبب استغلال المكّيين لهذا الاحتلال واستئثارهم بقوافل التجارة... لكن، ما إن استقرّ أمر « أبرهة » قليلاً، واستولى على اليمن، حتى قرّر الزحف على مكّة ليمنع تجّارها من استغلال الوضع. وإنْ اقتضى الأمر سيهدم الكعبة على رؤوس أربابها. وبالفعل كانت هذه نيّته. فقصد الكعبة. وكثيراً ما يفسّر المسلمون حملة أبرهة هذه بدوافع دينية وحسب. إلاّ أنّ الحقيقة كانت لأجل القضاء على تجارة مكّة ومكاسبها، التي كادت، لفرط أرباحها، تقضي على اقتصاد اليمن والحبشة معاً.

وسبب آخر في ضعف تجارة اليمن وقد يعود إلى « وقوعها في منطقة التصارع الدولي بين الأمبراطوريّة الفارسيّة والأمبراطوريّة البيزنطيّة. وقد استخدمتِ الأخيرةُ الحبشةَ حليفَتها لإقرارِ النفوذ الرومي على جنوب بلاد

العرب عن طريق غزو اليمن. وتكرّرت غزوات الحبشة على اليمن حتى سقطت في يدها في النصف الأوّل من القرن السادس، وقد استمرّ حكم الحبشة لليمن حتى أخرجهم منها الفرس في حوالي سنة ٥٧٦م. ولم تتحرّر اليمن من الاحتلال الأجنبي (الحبشي والرومي والفارسي) إلاّ بعد ظهور الإسلام وانضمامها إلى الدولة العربيّة الإسلاميّة »[٢٣]. وبضعف اليمن انتقلت التجارة منها إلى حيث تجد لها شعباً جائعاً ومركزاً ناشطاً ملائماً، فكانت مكّة.

وكذلك أيضاً أصاب ممالك الشمال، من أنباط وتدمريين وغساسنة ومناذرة، ما أصاب اليمن. وكانت مكّة هي المستفيدة في كلّ مرّة. فنتيجة لتدهور العلاقات بين الفرس والروم، تدهورت العلاقات أيضاً بين حلفائهم: فاشترك المناذرة، ملوكُ الحِيرة، في هذا الصراع إلى جانب الفرس؛ واشترك الغساسنةُ إلى جانب الروم فأضعفوا بعضُهم بعضاً، وفقدوا سيطرتهم على طرق التجارة، وخسروا منتوجات بلادهم الغنيّة، وأصبح اهتمامَهم الكبير القضاءُ على بعضهم بعضاً. وقد أجاد الواقدي بوصفهم عندما قال عنهم: « إن هؤلاء عرب وأنتم عرب. وهلاك كل شيء من جنسه »[٢٤]. وكانت مكّة، بسبب هذا العداء، أحسن المستفيدين وأكبر المستغلّين.

وأيضاً، بعدما قضى الرومان على الأنباط، ودمّروا تدمر، أصبح أهل مكة سادة تلك الطرق. وقد أعانهم على ذلك خبرتُهم بمنعرجات الصحراء الصعبة، وتحمّلُهم القيظ وجفاف المناخ، وتربيتُهم الابل والاعتماد عليها، وتنظيمُ القوافل وتزويدُها بما تحتاج إليه من زاد وماء، وعلمُهم بمواقع الواحات حيث يتوافر العشب والخصب، وتعيينُهم لمنازل اللصوص والصعاليك وقطّاع الطرق، ومعرفتُهم بالحصون حيث يلجأون لحراسة أموالهم وبضائعهم.. كل ذلك ساهم في انتقال

---

(٢٣) الشريف، مكّة والمدينة، ص ٢٠٣.

(٢٤) الواقدي، فتوح الشام، ٢ / ١٨٥. وغيرها في « أعربي هو » ص ١٤٣.

التجارة إلى مكّة وسكّانها الذين أصبحوا أسياد البادية دون منازع.

ولكن، لماذا مكّة ؟ وليست يثرب، أو الطائف، أو نجران، أو غيرها؟ لماذا أصبحت مكّة هي المحطّة التجاريّة الكبرى على حساب سائر المحطّات الشهيرة الممتدّة على الطريق الرومانيّة التي تربط اليمن ببلاد الشام عبر البادية؟ لماذا لم تكن يثرب « وهي أرض يتوفّر فيها الماء والنبات؟ »[٢٥] ولماذا لم تكن الطائف وهي تقع على مسيرة يوم من مكّة، وتنفرد بمناخها وخصبها اللذين جعلا منها واحة هذا الاقليم القحل؟[٢٦] ولماذا لم تكن نجران المدينة المسيحية العامرة، ذات كعبة شهيرة ككعبة مكّة؟ ولماذا أخيراً لم تكن البتراء المدينة التاريخيّة المحصّنة الصخور والقلاع، والغنيّة بخزّانات المياه واهراءات الحنطة؟

من الجائز أن تكون هذه المدن مراكز تجاريّة هامّة، وأن تنافس مكّة، وتستجلب الأنظار إليها... إلاّ أنّ نجران والبتراء أحرقتا ودمّرتا. والطائف تنحاز عن الطريق العام لقوافل الابل. ويثرب يستأثر بها اليهود بما لهم من مكر ودهاء وأثرة.. ولم يبقَ إلاّ مكّة تتمتّع بصفات تنفرد بها، وتحظى بموقع استراتيجي هام لأعمال التجارة. فهي « على مفترق طرق العطور والتوابل والقوافل التجارية بين الخليج وفارس والحبشة وبابل واليمن وسورية »[٢٧]. ونشاط أهلها استحثّهم للتعويض عمّا نكبتهم به الطبيعة من فقر وجفاف. وبيت الكعبة شدّ العرب كل العرب إليها، وتحصّنها بين الجبال أبعد عنها الغزاة. وجدب أرضها وفّر عليها الاقتتال في سبيل المراعي.. كل هذه، وغيرها، استوجب أن تكون مكّة هي المختارة لأن تلعب دورها التجاري الكبير في الجزيرة.

---

(٢٥) معجم البلدان، ٥ / ٥٥.
(٢٦) المرجع نفسه، ٤ / ٩٨.
(٢٧) لامنس، مكة الجمهورية التجارية، (بالفرنسية)، ص ٥١.

ثالثاً: تِجَارة مكَّة في القرْآن

لو لم يشهد القرآن على عظم تجارة مكّة لبقيت معرفتنا بما جاءت به كتب السير والأخبار مضطربة. فهذه الكتب لم تعمل إلاّ في تفسير ما جاء به القرآن. وما جاء به القرآن هو لنا خير دليل. فهو يشير، بصراحة ووضوح وابلاغ، إلى انهماك أهل مكّة بجمع المال، وإلى أسفارهم الرابحة في الصيف والشتاء، في البرّ والبحر[٢٨]. « واستعمل لفظة تجارة وتجارتهم ومصطلحات أخرى عديدة ذات صلة بالاتّجار والتجارة والمعيشة والكسب. كما أنّ فيه إشارات كثيرة إلى تجارة قريش، وإلى أثر التجارة في حياة الناس في ذلك الوقت.

« وفيه تحريم للربا وتوبيخ وتقريع.. وفيه أمور أخرى توحي إلينا بما كان للتجارة من أثر كبير في حياة أولئك الجاهليين؛ بل نجد القرآن الكريم يحاجبهم ويناقشهم ويخاطبهم بلغتهم التي يفهمونها، لغة الربح والخسارة والكسب والثواب والعقاب والتأجيل والتعجيل وما أشبه ذلك من كلام له أبلغ الوقع والإدراك في نفس التاجر الذي يعي الناحية الماديّة من ربح وخسارة وكسب وتوفير، أكثر من وعيه وإدراكه للأمور الروحية التي لا يفهمها كثيراً، لأنّها ليست من صميم حياته ومحيطه العملي »[٢٩].

لقد مدح القرآن رجالاً « لا تلهيهم تجارة ولا بيع »[٣٠]. وحذّر أولئك « الذين اتّخذوا دينهم لهواً ولعباً، وغرّتهم الحياة الدنيا »[٣١]. وندّد بالذين

---

(٢٨) Cf. Torrey, The Commercial – theological terms in the Koran..
(٢٩) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٧ / ٢٢٨.
(٣٠) القرآن ٢٤ / ٣٧.
(٣١) ٦ / ٧٠؛ ٧ / ٥١.

« إذا رأوا تجارة أو لَهْواً انفضّوا إليها وتركوك قائماً. قلْ ما عند الله خيرٌ من اللهو من التجارة. والله خير الرازقين »[٣٢]. وأنّب الذين يهتمّون بالبيع والشراء على حساب اهتمامهم بالله: « ذَرُوا البيعَ. ذلك خير لكم. إنْ كنتم تعلمون »[٣٣]. وعلّم بأن « لا تُلْهِكم أموالكم عن ذكر الله »[٣٤]. ووضع لهم شرعة التعامل الصحيح فلا تكون فيما بينهم تجارةٌ إلاّ عن تراضٍ، ولا يأكل الواحد منهم مال الآخر[٣٥]. ودعاهم أخيراً إلى تجارة مع الله لا تكسد ولا تبور، وتنجّيهم من عذابات جهنّم، فقال: « يا أيّها الذين آمنوا! هل أدلّكم على تجارة تنجّيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »[٣٦].

ثم أوضح القرآن شروط التجارة والمعاملة ليؤمّن التجّار على أموالهم وأمتعتهم من اللصوص والسارقين. فدعاهم إلى احترام « الأشهر الحرم »، إذا هي فرصة مقدسة يغتنمها العرب ليشدّوا الرحال إلى مكّة، ويقيموا فيها « الأسواق »، ويتبادلوا السلع، ويبيعوا ويشتروا ويتعارفوا ويتسامروا. وأوصاهم بأن يتزوّدوا ويستفيدوا من هدنة الأشهر الحرم، ويسدّوا عوزهم، ويشهدوا لهم منافع[٣٧].. إلاّ أنّ النبي، بعد انتشار الإسلام وقوّته، عاد فنقض ما أوصى به[٣٨].

---

(٣٢) ٦٢ / ١١.
(٣٣) ٦٢ / ٩.
(٣٤) ٦٣ / ٩.
(٣٥) ٤ / ٢٩.
(٣٦) ٦١ / ١٠، ٩ / ٢٤، ٣٥ / ٢٩.
(٣٧) ٢٢ / ٢٧، ٢ / ١٩٧ ـ ١٩٨.
(٣٨) ٢ / ٢١٧.

لكنّ القرآن كان حذراً جدّاً من تفاقم الأعمال التجاريّة وتزايد الأموال وأصناف السلع في مكّة. وخَشي أن تقضي كثرةُ التجارة والأرباح على الحياة الروحيّة وذكر الله وإقامة الصلاة. فكم دعا إلى عدم اعتبار الربا كالبيع حيث قال: « أحلّ الله البيع وحرّم الربا »[٣٩]. وكم دعا أصحابه إلى ترك البيع والشراء لأجل القيام بالصلاة: « إذا نودي للصلاة.. فاسعوا إلى ذكر الله. وذَروا البيع »[٤٠]. وكم ذكّرهم باليوم الأخير الذي لا يفيد فيه لا بيع ولا تجارة »[٤١]. وفي رأيه، أنّ خير تجارة هي التجارة مع الله، بالصوم والصلاة والصدقات، فهي « لن تبور »[٤٢] ولا يُخشى كسادَها[٤٣]، وتنجّي من عذاب النار[٤٤].

وتشديد القرآن على نوعيّة التجارة يشير إلى حقيقة راهنة، وهي « أنّ محمّداً احتفظ، كل حياته، بطابع تربيته القرشية. هذا الطابع كان تجارياً بصميمه، وهو يفضح نفسه في كل آية من آيات القرآن »[٤٥]. وحتى بعد انتقاله إلى المدينة حيث « أصبح الرسول مشترِعاً، بقي عالَمُه الخاص، في عمقِه، قرشياً وتجارياً »[٤٦]. فالبحر، مثلاً، لم يلهمْه سوى « ما ينفعَ الناس »[٤٧]، أي « الصيد حلالاً والطعام متاعاً »[٤٨]. والله نفسه « سخّر البحر لتأكلوا منه »[٤٩].

---

(٣٩) ٢ / ٢٧٥.
(٤٠) ٦٢ / ٩.
(٤١) ٢ / ٢٥٤، ١٤ / ٣١.
(٤٢) ٣٥ / ٢٩.
(٤٣) ٩ / ٢٤.
(٤٤) ٦١ / ١٠.
(٤٥) لامنس، مكّة عشية الهجرة، بالفرنسية، ص ٢١٥.
(٤٦) المرجع نفسه. ويستعمل لامنس لـ« عالمه الخاص » كلمة Weltanschauung
(٤٧) ٢ / ١٦٤.
(٤٨) ٥ / ٩٦.
(٤٩) ١٦ / ١٤. انظر: ١٤ / ٣٢، ١٧ / ٦٦، ٣٣ / ٦٥، ٤٥ / ١٢.

وحتى « لغة القرآن اللاهوتيّة لم تخرج قطّ في أسلوبها وألفاظها عن أسلوب الواقع التجاري وألفاظه العمليّة »[٥٠]. وحتى كلام الله، يوم القيامة العامّة، لا يخلو من ألفاظ التجّار وتعابيرهم. فهو يقول مثلاً « إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة »[٥١]. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ لفظتي « البيع والشراء » يستعملها القرآن في كل مواضيعه، وفي أيّ شكل كان[٥٢]، وكذلك ألفاظ مثل: الحساب والاحصاء والمثقال والوزن والميزان والكيل والخازن والقسط والأجر والأموال والمتفرّق والأمانات والودائع والصكّ والرقاع والسجل والقنطار والدرهم والدينار والصرف والتصريف والتفصيل واللهو واللعب...[٥٣] وهي ألفاظ من صميم الواقع التجاري. لكأنّ القرآن توجّهُه التجارة، وتسيّره ألفاظها. وهو يعالج مواضيعَه بالنسبة إليها.

---

(٥٠) لامنس، المرجع السابق، ص ٢١٦.
(٥١) القرآن ٩ / ١١١.
(٥٢) انظر هاتين اللفظتين في معجم القرآن المفهرس.
(٥٣) انظر هذه الألفاظ في معجم القرآن المفهرس.

رابعَاً: البضَائع والأربَاح

كانت البضائع المتداولة في مكّة كثيرة ومتنوّعة، ومن مصادر مختلفة. فكانت القوافل تحمل من الجنوب حاصلات الهند والحبشة والسودان ومصر واليمن وجزيرة سقطرة، ومن الشمال حاصلات العراق والشام وفينيقيا.. فمن الهند كانت تحمل « الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصَندل والتوابل والأفاويه، كالبهار والفلفل ونحوها، والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانيّة، والأرجوان والميعة والزعفران، والآنية من الفضة والصفر والحديد.

« كما تحمل من حاصلات أفريقيا الشرقية العطور والأطياب وخشب الابنوس وريش النعام والجلود والذهب والعاج والرقيق[٥٤]. كما تحمل من حاصلات اليمن البخور واللبان والمرّ واللادن والعطور والحجارة الكريمة كاليشب والعقيق والجلود ذات الرائحة الطيّبة[٥٥]. ومن حاصلات جزيرة سقطرة العود والند. ومن البحرين اللؤلؤ.

« وتحمل من الشمال القمح والدقيق والزيت والخمر ومصنوعات فينيقيا[٥٦]. هذا بالإضافة إلى ما تحمله من حاصلات بلاد العرب نفسها من الزيت والبلح والقرظ والصوف والوبر والشعر والجلود والسمن »[٥٧].

وقد أشار القرآن إلى كثرة السلع وتنوّعها. ويذكر جميع هذه الأصناف

---

(٥٤) الطبري ٢ / ١٨١، جورج فضلو، العرب والملاحة، ٧٦.
(٥٥) تاريخ الطبري ٢ / ٥٧، الواقدي ١ / ٦٥، الأغاني للأصفهاني ١ / ٦٤ ـ ٦٥، جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام ١٥١.
(٥٦) انظر: ابن هشام ١ / ١٤٧، أنساب الأشراف ١ / ٥٨، زيدان ١٧٨.
(٥٧) الطبري ٢ / ١٢٥. نقلاً عن الشريف، مكة والمدينة، ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

بأسمائها. ويتكلّم على استخدام أهل مكّة لها. وينوّه بأن مكّة كانت لها محطة استراحة لتنتقل بعدها إلى حيث يجدى استهلاكها أرباحاً وافرةً.

وزاد في أرباح مكّة، علاوة على وفرة السلع المتبادلة، عمليّات الصيرفة والشحن والتفريغ والتأمين والضرائب.. وقد اكتسبت قريش، بما كان لها من حرمة وزعامة، مكانة عظيمة في التجارة والأرباح. فقد أمّنتِ التجّارَ والداخلين على مكّة، ووفّرت لهم الطمأنينة، و« السقاية » و« الرفادة »، وجعلت تنقلاتهم تحصل بأمان وسلام. وكان للأمن، طبعاً، ثمنٌ باهظ، يدفعه العابرون، وينضمّ إلى مكاسب قريش وأرباحها.

وبكثرة البضائع كثرت القوافل التجارية صيفاً وشتاءً شمالاً وجنوباً، في البرّ كما في البحر. وكان يبلغ عدد القافلة أحياناً ألفين وخمسمائة بعير. وتقدّر حمولتها بأكثر من خمسين ألف دينار[٥٨]. ولم يبقَ من قريش رجل أو امرأة يستطيع التجارة والسفر وجني الأرباح إلاّ وكان ينضمّ إلى القوافل حتى « كانت القافلة تحمل أموالاً لأهل مكّة جميعاً »[٥٩]. وقد ألمح القرآن إلى مساهمة النساء في قوله: « للرجال نصيب ممّا اكتسبوا، وللنساء نصيب ممّا اكتسبن »[٦٠].

وفي كتب الأخبار أخبارٌ كثيرة عن مقدار الربح الذي كان يصيبه التجّار. وقد عبّر الواقدي عن ذلك بقوله: « وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً »[٦١]. وقال ابن سعد: « ربحوا للدرهم درهماً »[٦٢]. وقال الطبري: « أصابوا للدرهم درهمين »[٦٣]. وكل عمل، مهما كان شأنه، كان رابحاً، فعبد الله بن جدعان يؤكّد لنا بقوله: « قد رأيتَني ولو رفعتُ حجراً لرجوتُ أن أُصيبَ ذهَباً أو فضّة »[٦٤]. وقيل عن أحد الصحابة إنه « لو اشترى تراباً لربح فيه »[٦٥].

(٥٨) اليعقوبي ١ / ٢٠٢.
(٥٩) الواقدي، المغازي ١٨.
(٦٠) سورة النساء ٤ / ٣٢.
(٦١) الواقدي، المغازي ١٩٨.
(٦٢) طبقات ١ / ١، ٤٢ ـ ٤٣.
(٦٣) تاريخ الطبري ١ / ١٤٦٠.
(٦٤) ابن حنبل ٣ / ٢٧١، ٧.
(٦٥) الترمذي ١ / ١٤٥.

خَامسَاً: قرَيْش التجَّار

الثـروة فـي بلـد تجـاري رهـن بـذكاء أهلـه. وإنْ لـم يـدعم الثـروَة ذَكـاءٌ تـزول لا محالـة. ويستتبع الثروةَ والذكاءَ دهاءٌ وخِبرة. والكلّ يفترضُ الكثيرَ من المعرفة: معرفةٍ بطبائع النـاس، وأحوالِ المجتمع، ومنعرجاتِ الطرق، وعلمٍ بأكثر من لغة، وميلٍ إلى السلم والمراوغة، وادراكٍ لأسواق البضائع، ومهارةٍ فـي لعبـة العرضٍ والطلب.. ولـم يَنقصْ قريْشاً من هذه شـيء، حتـى غدت في التاريخ قبيلةَ التجارة بدون منازع.

ولم تبخل علينا كتبُ الأخبار بما عرفته عن قريش. فسمّتها « قريش التجّار » فـي قـول ورد على لسان كاهنة من اليمن جاء فيه: « لله درّ الديار لقريش التجّار »[٦٦]، وفي قـول سـائر « فلان يتقرّش المال، يجمعه »[٦٧]. وفي تقاليد قريش، « من لم يكن منهم تـاجراً فليس عنـدهم بشيء »[٦٨]. وكان أهل قريش يعرفون بأن لا بقاء لهم إنْ لم يكونوا تجّاراً. فجاء بذلك قولهم: « ما لنا بها (بمكة) بقاء. وإنّما نزلناها على التجارة »[٦٩].

واسم « قريش » مِن الذي « يَقرشُ عن حاجـةِ النـاس فيسـدّها بالمـال. والتقرّش هـو التفتيش، أي يفتّشون عن الحاجة فيسدّونها بما يبلغهم »[٧٠]. وسمّاهم قصيّ، جَدُّهم الأعلى، بهذا الاسم، لأَنَّهُمْ يُفَتِّشُونَ الحاجَ فيَسُدُّونَ

(٦٦) رسائل الجاحظ، الرحمانية ١٩٥٨، ص ١٥٦.
(٦٧) لسان العرب ٦ / ٣٣٤ ـ ٣٣٦، مادة: قرش. المكيّة ١ / ١٤.
(٦٨) السيرة المكية ١ / ١١٨ بهامش الحلبية.
(٦٩) الواقدي، المغازي، ١٩٦.
(٧٠) تاريخ الطبري ٢ / ٢٦٣.

خَلَّتهم. فمَنْ كان مُحْتَاجاً أَغْنَوْهُ، ومَنْ كان عارياً كَسَوْه، ومَنْ كان مُعْدِوماً كَسَوْه، ومَنْ كانَ طَرِيداً آوَوْه »[٧١]. وقيل أيضاً: القرش: الجمع والكسب. عن ابن سيده: قرش قرشاً جمع وضمّ من هنا وهنا. وبه سميت قريش. وتقرّش القوم: تجمّعوا. وقيل سمّيت بذلك لأنهم كانوا أهل تجارة، ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع، من قولهم: فلان يتقرّش المال أي يجمعه[٧٢]. وصاروا من ثمّ أصحاب مال وغنى، فملكوا الأملاك كما ملكوا الابل[٧٣]. وأيضاً قيل: « سمّيت قريش قريشاً لأنّها كانت تجّاراً تكتسب وتتّجر »[٧٤]. « والتقرّش: التجارة والاكتساب »[٧٥]. ووصفوا بأنّهم « كانوا قوماً تجّاراً »[٧٦].

وصارت قريش، بعد قصيّ، بأجمعهم « تجّاراً خلطاء »[٧٧]. وقد أَخذتْ عنه مآثر التجارية، حتى أصبحت مكّة، في أيّام حكمهم، ملتقى القوافل من جميع أنحاء العالم المعروف لديهم. وسافر أبناء قصيّ وأحفاده، وتاجروا مع البلدان المجاورة، وأخذوا منها العهود. فأخذ هاشم بن عبد مناف بن قصيّ « عهداً » من ملوك الروم الغساسنة. وأخذ شمس بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصيّ « عهداً » من نجاشي الحبشة. وأخذ عبد المطلب بن هاشم « عهداً » من ملوك حمير واليمن. وأخذ نوفل بن عبد مناف بن قصيّ « عهداً » من أكاسرة الفرس... وبذلك كان لفروع قريش جميعها سوق تجارية واسعة في محيطهم[٧٨].

---

(٧١) الزبيرى، كتاب نسب قريش ١٢، تاج العروس ٤ / ٣٣٧: قرش.
(٧٢) لسان العرب ٦ / ٣٣٤، ٣٣٦، مادة : قرش.
(٧٣) ابن حبيب، المحبر ١٦٨، الكامل لابن الأثير ٢ / ٨، البلاذري، أنساب ١ / ٣٩، طبقات ابن سعد ١ / ٧١، تاج العروس، ٢ / ١٢٥، ٣ / ٣٧٢، في مادّتي: بطح وظهر.
(٧٤) الأزرقي، أخبار مكّة ١ / ٨٠.
(٧٥) سيرة ابن هشام ١ / ٨٦.
(٧٦) الواقدي، المغازي ١٩٦.
(٧٧) الثعالبي، ثمار القلوب ١٨، المكية ١ / ١٤٠، الجاحظ، الحيوان ٤٧٢.
(٧٨) الطبري ٢ / ٣٥٢، تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٠٠، ذيل الأمالي ١٩٩.

إذا صحّت هذه الأخبار يكون آل قصيّ قد احتكروا التجارة بين أيديهم، بعدما قضوا على تجارة اليمن وكان أهمّ ما فعلوه لنجاحهم إبرام التحالفات والمعاهدات مع رؤساء الدول المجاورة لهم، وشيوخ القبائل التي يمرّون بها. كما أرضوا الجميع بدفعهم الضرائب والجعالات، وبتقديمهم الهدايا. وذلك ممّا أمّن لمدينتهم الحماية من الغزوات واللصوصيّة.

وأكثر من توقّف عنده أهل الأخبار في الحديث عن تجارته الواسعة كان هاشم بن عبد مناف بن قصيّ، الذي تزعّم قومَه، وجمع ثروةً، وسنّ لقريش رحلَتَي الصيف والشتاء(٧٩)، ونظّم لهم الايلاف(٨٠)، أي الجعل الذي فرضه على القبائل لحماية مكّة من الصعاليك واللصوص، وتأليف قلوب سادات القبائل لصدّهم عن التحرّش بمصالح مكّة. وذلك بأن « أشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب.. وجعل لهم معه ربحاً »(٨١).

وقد بدّل « الايلاف » في أسلوب تجارة مكّة بأن جعل لها قوافل كبيرة، تمرّ بسلام وأمان في مختلف أنحاء الجزيرة. وصيّر مكّة مكاناً مقصوداً آمناً، فيما غيرهم كان يتخطّف من أرضه. وقد أشار القرآن إلى ذلك، وأشرنا إليه سابقاً(٨٢).

ويُذكر عن هاشم أيضاً أنّه « حصل على عهدٍ من الغساسنة والروم على المتاجرة في أرض الدولة البيزنطيّة »(٨٣). ثم توسّع أبناؤه فعقدوا « حبالاً » أي « عهوداً » تجارية وأمنيّة مع الأحباش والفرس وأهل العراق واليمن. وكانوا

---

(٧٩) تاريخ الطبري ٢ / ٢٥٢، الاشتقاق ٩، آمالي المرتضى ٢ / ٢٦٩، الأزرقي ١ / ٦٧، ابن سعد ١ / ٧٦، نهاية الارب ١٦ / ٣٣...

(٨٠) نهاية الأرب ١٦ / ٣٣، سورة قريش في القرآن ١٠٦ / ١ ـ ٤.

(٨١) رسائل الجاحظ، ٧، الثعالبي، ثمار القلوب ١٢٥.

(٨٢) انظر صفحة ٦١ من هذا البحث.

(٨٣) تاريخ الطبري ٢ / ١٢.

يصلون بتجارتهم إلى غزّة ومصر، وربّما إلى أنقره « فيدخل (أحدهم) على قيصر فيكرمه ويحبّه »[٨٤]. وكاد القيصر يمنح براءته لعثمان بن الحويرث، فيوليه على مكّة وقبائلها، ويصطنع منه عميلاً لدولته في بلاد العرب، لولا وعي أبناء قريش ومنعهم له من الاستئثار بالزعامة والتجارة. وقد شجّعهم على منعهم هذا اطمئنانهم إلى بعد بلدهم عن الروم، وقوّة مركزهم بإزاء حاجة البيزنطيين لبضائعهم التي كانوا يوفّرونها لهم[٨٥].

ونظراً إلى عمق الروح التجارية في قريش يُذكر عن أبي بكر الصديق أنّه أجبر ابنه على الطلاق من امرأته، لأنّ امرأته كانت تلهيه عن التجارة[٨٦]. كما يُذكر عن خديجة امرأة النبيّ أنّها طلّقت رجلين لها قبله بسبب اهتمامها بجمع المال وتكديس الثروة، حتى أصبحت تجارتها تعدل تجارة قريش كلّها.

من هنا نفهم استياء تجّار مكّة من محمّد، ونفرتهم منه، ومعارضتهم له، في مكّة كما في يثرب طريق تجارتهم إلى بلاد الشام. وقد علموا أنّ المسلمين سيتعرّضون لقوافلهم، ويقطعون عليهم الأرباح. ولذلك قالوا: « قد عوّر علينا محمّد متجرنا وهو طريقنا ». وقال أبو سفيان زعيمهم وشريكه صفوان بن أميّة: « إنْ أقمنا بمكّة أكلْنا رؤوسَ أموالِنا »[٨٧]. وقالا أيضاً: « كنّا قوماً تجّاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكتْ أموالَنا »[٨٨]... مثل هذا الكلام يُشعر بمقدار الخسائر التي مُنيتْ بها قريش بسبب هجرة المسلمين إلى يثرب، حتى أنّهم، لغيظهم، لقّبوا الرسول بـ« القاطع »[٨٩].

---

(٨٤) ابن سعد ١ / ٧٥، نهاية الأرب ١٦ / ٣٣، البلاذري ١ / ٥٨، الطبري، ١ / ١٠٨٩، الأغاني ١٢ / ٤٧، الاشتقاق ٩، ٢٣، اليعقوبي ١ / ٢٨٠ و٢٨٢...
(٨٥) انظر الشريف، مكة والمدينة ١٦٣.
(٨٦) الأغاني ١٦ / ١٣٣.
(٨٧) تاريخ الطبري ٢ / ٤٩٢.
(٨٨) المرجع نفسه ٢ / ٦٤٦.
(٨٩) السيرة الحلبية ٣ / ٦٠.

سَادساً: سِرّ نجَاح قرَيْش

في عمق كل شعب، كما في عمق كل إنسان، ميل إلى التعويض عمّا حُرِّمَ منه. وفي قبيلة قريش من هذا الميل إلى التعويض عمّا حرمتهم الطبيعةُ منه أمرٌ خطير. لقد حُرموا من الزراعة والخصب والمَاء والمناخ الطيّب، وحُرموا من الثروة الطبيعيّة وأيّة حضارة عمرانيّة أو علميّة. فكان لا بدّ لهم من أن يبحثوا جاهدين عن ثروة أخرى في مكان ما. لا بدّ لهم من ثروة يصنعونها بجهدهم، ومن رزق يحصّلونه بعرق جبينهم وتعبِ سواعدهم.. فيكون لهم بذلك حياة فيها بعض الثروة والرخاء. فكان لهم، بدل الزراعة والصناعة، تجارة واسعة، ومهارة في الكسب والربح. وهذه أيضاً ما كانت لتكون لولا صفات تحلّوا بها وساهمت في نجاحهم.

من أسرار نجاحهم حِرصُهم على تحالفهم فيما بينهم، وعلى تحالفهم مع سائر القبائل التي يتاجرون معها، أو يمرّون بها. من هذا القبيل جاء قول ابن عبّاس لأهل مكّة الذين أخذوا يعذّبون أبا ذَرّ الغَفارى. قال لهم: « ويلكم ألستم تعلمون أنّه من غَفار، وإنّه من طريق تجارتكم إلى الشام؟ فأنقذَه منهم »[٩٠]. ففي هذه الحادثة دليل ساطع على ميلهم إلى اكتساب صداقات الناس، ورغبتِهم في فضّ كلّ خلاف يقع بينهم وبين غيرهم، وانصافِهم كلّ غريب يطرأ عليهم، وجنوحِهم إلى السلم والهدوء. فكان لهم بهذه الصفات سرُّ نجاحهم التجاري.

ومن أسرار نجاحهم أيضاً ترفُّعهم عن الشحِ والبخلِ، وامعانُهم في العطاء، وبذلُهم كل غال ونفيس في سبيل تجارتهم وأرباحهم. وفي ذلك يقول الجاحظ عنهم: « لم يعتريهم من بخل التجّار قليلٌ ولا كثير. فأعطوا الشعراءَ كما يُعطي

---

(٩٠) الاصابة ٤ / ٦٤، رقم ٣٨٢.

الملوك، وقرّوا الأضياف، ووصلوا الأرحام، وقاموا بنوائب زوّار البيت. فكان أحدّهم يحيسُ الحَيسة في الأنطاع، فيأكل منها القائم والقاعد، والداخل والراكب. وأطعموا بدل الحَيْس الفالوذَج.. »[٩١]. وكانوا يوفّرون لحجيج بيت الله الطعام والسقاية. وهي من مآثر قصيّ التي ورثوها عنه.

ومن صفات قريش التعاون التامّ فيما بينهم، وميلهم إلى السلم. فهم قبيلة تشدّ بعضَهم إلى بعض رابطةُ النسب والعصبية. فكم عقدوا فيما بينهم الأحلاف، درءاً لكل خلاف، وكم ابتعدوا عن خصومة، لئلا تنالَ منها أرباحُهم، وكم تحاشَوا المعاركَ والحروب، وتركوا الغزو والنهب، واسترضوا القبائل، ورموا السلاح، ومالوا إلى الاستقرار.. حتى « عُيّرتْ قريش بأنّها لا تُحسنُ القتال، وأنّها تجاري وتساير مَن غلب، وأنّها لا تَخرجُ إلاّ بخفارة خفير، وبحلفِ حليف، وبحبلٍ من هذه الحبال التي عقدتْها مع سادات القبائل »[٩٢]. لا همّ لهم إلاّ النجاح في تجارتهم ووفرة المال في أيديهم.

وزاد في غناهم اطمئنانُ الناس إليهم، لكثرة ما سمعوا عن تديّنهم، فعُرِفَ عنهم إيمانُهم « الحنيف ». فهم في التاريخ « الحنفاء »، و« الصابئة »، و« الحُمْس »، و« الإبيونيون ».. فيما غيرهم من « أهل الحِلّة ». وقد نعتوا بـ« آل الله »، وبـ« جيران الله »، و« سِكّان حرم الله »، و« أهل الله »[٩٣]. يَحترمون حدودَ الله، ويقدِّسون الكعبة[٩٤]، ويتحنّثون في غار حرّاء، ويقيمون المناسِك، ويُنكرون الفواحشَ، ويعاقبون على الجرائم، ويخافون الحسابَ العسير،

---

(٩١) الجاحظ، كتاب الحيوان، ٤٧٠ وما بعدها. الحَيْس: طعامٌ مركَّب من تمر وسمن وسويق. انطاع من نطْع: بساط من الجلد يُفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب. الفالوذَج: حلواء تُعمل من الدقيق والماء والعسل (فارسية).

(٩٢) تاريخ الطبري، ٣ / ٧٥٢ وما بعدها.

(٩٣) الثعالبي، ثمار القلوب ١٠، العقد الفريد ٣ / ٣١٣.

(٩٤) الثعالبي ١٠، الروض الأنف ١ / ١١٨، الاشتقاق ٤٩١، اليعقوبي ١ / ٢٥٤.

ويؤمنون باليوم الأخير، ويرجون القيامة.. وجعلوا الرحمة في حياتهم والاهتمام بالفقراء من أولى الأمور، فعقدوا حلف الفضول للدفاع عن البائس المحتاج، و « جعلوا الصدقة واطعام المحتاج من أمور الدين »، حتى أصبح انفاق قريش على المساكين يعدّ عندهم عرفاً مقدّساً[٩٥].

وقد يكون السبب الأهمّ في نجاح تجارة قريش، معرفتهم باللغة العربيّة التي تعلّموها من أهل « غربيّ » الفرات، من الحيرة والأنبار. فنقلها التجّار معهم، كما أخذوها عن المرسلين النصارى[٩٦]. وهي لغة مستساغة التعبير، غنيّة المفردات، دقيقة المفاهيم، حسنة الصيغة. أجادها القرشيّون تماماً فتغلّبت على لهجات الأعراب جميعاً... ويبدو أنّ مكّة لم تُعدَمْ من غيرِ لغة، فكان فيها مَن يعرف اليونانية، والروميّة، والحبشيّة، والعبريّة، والسريانيّة، والقبطيّة.. ولهذه كلّها أثر في مفردات القرآن[٩٧]. وهي من الضرورة العمليّة بمكان لأجل حركة التجارة وكيفيّة التعامل مع الناس. وقد تكون اللغة المسمّاة « عربيّة » ، نسبة إلى « غرب » الفرات، تجمّعاً من لغات ولهجات عديدة، تماماً كما أهل قريش الناطقون بها هم « تجمّع » من قبائل وعشائر وبطون متلوّنة. وليس كاللغة الميسّرة ما يسهّل عمليّة التجارة ويوسّع حركتها.

---

(٩٥) انظر فيما بعد فصلاً كاملاً عن اهتمام قريش وجماعة النبي بالفقراء والمساكين والأيتام.. مما يدعو إلى القول بنزعتهم « الإبيونية »، وهي شيعة من النصارى، عقيدتهم الأساسية: الاهتمام البالغ بالفقراء والمعدومين. انظر كتاب « قسّ ونبيّ ».

(٩٦) انظر كتاب « أعربي هو؟ ». فصل اللغة العربيّة.

(٩٧) انظر السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، « فصل فيما وقع فيه بغير لغة العرب ».

خَاتِمَة الفَصْل الثَّالث

من الكلام على تجارة مكّة نستخلص أمرين: أمر فقر الطبيعة في مكّة الذي استحثّ المكّيين على التعويض عنه بالبحث عن مورد رزق آخر، يكون كـ« ردّة فعل » قويّة عن حالة البؤس والحرمان. وأمر غنى موقع مكّة الجغرافي الذي دفعها إلى التجارة دفعاً، هذه التجارة التي جاءتها بالرزق رغداً من كلّ مكان.

فوق أرض مكّة إذن: فقر وغنى. جدب ورزق. عسر ويسر. طبيعة محرومة من موارد العيش، وجغرافية ردّت عليها ما حرمت منه. لا زرع ولا ضرع. بل تجارة وأموال وأرباح. وهو وضع خطير في سلّم الاقتصاد المدني. وقد لا تسلم مدينة من خطر وضع اقتصادي كهذا. فالاقتصاد الصحيح زراعة وصناعة ثمّ تجارة. أمّا وضع مكّة فتجارة وحسب. فعلام تكون النتائج؟

والسؤال الذي ينتج من هذا الواقع يدور حول كيفيّة المجتمع في مكّة. فالمجتمع التجاري يفرض على المدينة نوعاً معيّناً من الحياة، ويحتّم نمطاً خاصّاً من العيش. فإلى أيّ مدى نستطيع الاطمئنان إلى صحّة هذا المجتمع؟ وهل كان مجتمع مكّة صحيح البنية، منسجم الطبقات، يوفّر لجميع أفراده الحياة الكريمة؟ لا يبدو ذلك. فلننظر.

الفَصْل الرابع

مُجتَمع مَكّة

أولاً : فقرَاء الطبيعَة وأثريَاء الجغرافيَا

ثانياً : طبَقَة الأعزَّة الأغنيَاء

ثالثاً : طبَقَة الأذلّة الفقَراء

رابعاً : ثَوْرَة المَحْرومِين

خَاتِمَة الفَصْل الرَابع

أولاً: فقَراء الطبيعَة وأثريَاء الجغرافيَا

في مجتمع مكّة، كما في أيّ مجتمع تجاري، طبقتان من الناس: أغنياءٌ مترَفون، وفقراءٌ محرومون. أولئك استبدّوا بالتجارة وكسب المال، وهؤلاء استبدّ بهم التجّار وأرباب المال. أولئك تملّكوا الأرزاق والأنعام، وهؤلاء تملّكهم الجوع والحرمان. الأوّلون أغنياء جشعون مترفون حتى الإسراف، والآخرون لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً. الأغنياء استفادوا من موقع مكّة الجغرافي ومركزها التجاري، والفقراء اتّكلوا على ما تَمِنُّ به الطبيعة من مواسم الغيث والكلاء. أولئك جاء رزقهم رغداً من كل مكان، وهؤلاء يترقّبون عيشَهم من أرض قحيط وغيوم ضحلة. أهل الجغرافيا شباع « كثير شحم بطونهم »[١]، وأهل الطبيعة جياع « مسنتون عجاف »[٢].

وقد ميّز القرآن، منذ البدء، بين هاتين الطبقتين. فسمّى طبقة الأغنياء « الملاء الأعلى »[٣] و« الأعزّة »[٤] و« المترَفين »[٥]. وسمّى طبقة الفقراء « أذلّة »[٦] و« أراذل »[٧] و« أرذلين »[٨]. ووصف الحربَ بينهما بما يدفعنا إلى القول: لا الغنيّ كان يشعر بأيّة رحمة تجاه الفقير، ولا الفقير استطاع، لبؤسه، أن يحرّك نبضات قلب الغني... والأمر، كما يبدو، طبيعيّ في بيئة

---

(١) مسند ابن حنبل ١ / ٤٤٢.
(٢) من شعر قيل في هاشم: عَمرو الذي هَشَم الثريدَ لقومهِ وأهلُ مكّةَ مُسْنَتُون عِجَاف.
(٣) ٢ / ٢٤٦، ٧ / ٦٠، ١١ / ٢٧، ١٢ / ٤٣، ٢٦ / ٣٤...
(٤) ٥ / ٥٤، ٢٧ / ٣٤، ٦٣ / ٨، ١٨ / ٣٤.
(٥) ٣٤ / ٣٤، ٤٣ / ٢٣، ٥٦ / ٤٥، ١٧ / ١٦، ٢٣ / ٦٤..
(٦) ٣ / ١٢٣، ٥ / ٥٤، ٢٧ / ٣٤ و٣٧، ٦٣ / ٨..
(٧) ٢٦ / ١١١، ٢١ / ٢٧.
(٨) ٢٦ / ١١١، ٢١ / ٢٧.

يتحكّم بها التجّار وأصحاب الأموال بما يتّصفون به من مكر وغشّ وخداع ودهاء واستغلال... ولئن لاَنَ قلبُ تاجر بعض الشيء، فلأنّه يترقّبُ، بعد اللِين، أكثر من شيء.

وليس في الأمر غرابة. ففي بيئة كبيئة مكّة، لا نظام يحمي حقوق الضعيف، ولا عفوية تلجم طمع المستبدّ. وفي مكّة، أكثر من أيّ مجتمع بدائي آخر، كان استئثار واستكلاب من جهة، وذلٌّ وبؤس من جهة ثانية. والحكم فيها كان للمستغِلّين. والمجتمع التجاري فيه ميل إلى الاحتكار أكثر من أيّ مجتمع اقتصاديّ آخر. كما في بنيته شقّة واسعة وعميقة بين أفراده أكثر ممّا نجده في مجتمع زراعي أو صناعي. أضف إلى ذلك عدم وجود طبقة وسطى تحافظ على بعض التوازن والاعتدال بين طبقتي الفقر والثراء.

فبأيّة صورة إذن سيتحفنا القرآن عن هذا المجتمع المتصدّع والمتجاذب بين شرّين؟ شرّ الفقر والجوع والحرمان، وشرّ الغنى والتخمة وحكر المال.

الصورتان، في القرآن، واضحتان ناطقتان: صورة عن مكّة وعن الفقر فيها، وصورة ثانية عن الذين يكدّسون الأموال، و « يأكلون أموال اليتامى »[٩]. وقد تعمّد القرآن اظهار الصورتين، كما تعمّد الوقوف إلى جانب الأولى، ومحاربة الثانية. وتعمّد أيضاً الاسترسال في الكلام على الفقراء، ومنهم خاصّة « المساكين » و « أبناء السبيل » و « اليتامى ».. ووعد المحسنين وصانعي الصدقات بجنّة جهّزها الله لهم. وتوعّد الذين لم يطعموا مسكيناً أو لم يأووا غريباً بنار وعذاب أبديين.

والحقيقة هي أنّ المسيحية، إذا كانت تختصرُها كلمةُ « المحبّة »، فالإسلام، أقلّه الإسلام المكّي، تختصره كلمة « الرحمة ».. وما كلام القرآن على « اليتامى »

---

(٩) سورة النساء ٤ / ١٠.

و « المساكين » وأمثالهم، إلاّ لأنّه يرى في الاهتمام بهم صحّة الدين وصلاح المجتمع وما كلامه على الارث والزواج والمغانم والزكاة والصدقة والجهاد إلاّ لأجل العناية الفائقة باليتامى والمساكين وأبناء السبيل. وما الجنّة وطيّباتها وما فيها من خيرات وملذّات إلاّ لصانعي البرّ والإحسان مع المحرومين من خيرات هذه الدنيا. وقد يرى المسلمون أنّ القرآن وتعاليم الوحي أوسع من ذلك، ولكنّ الحقيقة، كما سنرى، لم ينطلق النبيّ ولم يبدأ إلاّ من ذلك. هذه ناحية أهملها المسلمون لأجل إظهار شموليّة النبوّة الكونيّة. وكان الأجدر بهم ألاّ يهملوا هذه ولا يتركوا تلك. وربما تلك أجدر بالله ورسوله وجماعة « المتّقين ».

وربّما كان القرآن، باهتمامه هذا، بلغ شأناً اجتماعيّاً رائعاً، لم يبلغه في أي شأن آخر، حتى في مجالات الوحي والتنزيل والعصمة والنبوّة والمعرفة والعلم.. هذه أمور يعترضها الشكّ في كل نواحيها؛ فيما صورة « الرحمة » لا تحتاج إلى من يثبتها لكثرة وضوحها. وربّما نستطيع القول: إنّ تعاليم الوحي جاءت لتدعم تعاليم « الرحمة ». ويجب أن نعلن، منذ الآن، بأنّ أهل قريش، فيما عُرفَ عنهم من تسامحِهم الديني، لم يقفوا من محمّد موقف العداء، إلاّ بسبب معرفتهم بنيّته في ضرب أغنيائهم « الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً »[١٠].

وفي رأينا انّ ظاهرة « الرحمة » التي يريدها محمّد هي أخطر من ظاهرة « النبوّة » التي يريدها له المسلمون. وظاهرة « إصلاح مجتمع متصدّع » كمجتمع مكّة هي أعنف من ظاهرة نسبة القرآن العضوية إلى الله. لكأنّ محمّداً، الذي أراد تفجير مجتمع مكّة، كان هو ذاك الانفجار الذي حدث في مكّة، ثمّ في الجزيرة، ثمّ في أنحاء العالم. والمسلمون الأوّلون الذين خاضوا « الفتوحات » لم يكن لهم ذلك بقوّة الدين وآيات الله البيّنات، بقدر ما كان لهم بدفعة الجوع والفقر والحرمان. وعلى هذه النقطة ألف ألف دليل من تاريخ المسلمين.

---

(١٠) سورة النساء ٤ / ١٠.

وبحقّ نقول: ليس كانفجار المحرومين الجائعين يمكن أن يكون بمثل ما حدث. هو كانفجار الشيوعيّة في عصرنا الحديث التي أمسكت بيد الجائع المحروم لتضرب بها أعناق الشباعى المترفين. وهو كانفجار « محرومي الشيعة » الذين أشعلوا الأرض انتقاماً لبؤسهم. والإسلام أضاف على الشيوعيّة ومحرومي الأرض دعماً من السماء أصبح معه خطيراً.

فالمجتمع المكّي إذن، وبوجه عام، ومن وجهة النظر الاقتصادية، هو « مجتمع بسيط التكوين. يتألّف من طبقتين اقتصاديّتين: طبقة أصحاب الأموال من التجّار وأصحاب الإبل الذي تتركّز في أيديهم الثروة وتتحكّم رؤوس أموالهم في الحياة الاقتصادية. وطبقة الفقراء الذين لم يستطيعوا المشاركة في النشاط التجاري الجارف في المدن، والذين أوصدت طبيعة الحياة الرعوية في مجتمع البادية أبواب الثراء في وجوههم.. وكانت الهوّة الاقتصادية بين هاتين الطبقتين بعيدة الغور إلى حدّ كبير ممّا أدّى إلى اختلال التوازن الاقتصادي بينهما اختلالاً شديداً. وهذا الاختلال الاقتصادي وقف منه القرآن الكريم موقفاً حاسماً »[١١].

وإذا كان الحظّ آتى الأغنياء دون الفقراء « فتلك خطيئة المجتمع الذي يعيشون فيه وليست خطيئتهم. وماذا يملكون (الفقراء) لتغيير حظّهم في مجتمع صحراوي مواردُ الرزق فيه محدودة، ومجال العمل فيه ضيّق! إنّ تلك القوافل التجارية التي تسيل بها شعابُ الصحراء، وهذه القطعان من الماشية التي يضيق بها حمى القبيلة، كان من الممكن أن يكون لهم فيها نصيب لو أنّ المجتمع سار على قواعد عادلة غير القواعد التي يسير عليها »[١٢].

ولكن من أيّ باب تدخل العدالة وقد علّمنا القرآن بعد الإنجيل بأنّ الأغنياء « لا يدخلون الجنّة حتى يلجّ الجمل في سمّ الخيّاط » (٧ / ٤٠ ـ متى ١٩ / ٢٤).

---

(١١) الشريف، مكة والمدينة، ٨٢، ٨٣.
(١٢) نفسه.

ثانياً: طبَقَة الأعزَّة الأغنيَاء

هم أيضاً « الملاء الأعلى »، و « المترفون » وأصحاب الثروة والمال، والتجارة الواسعة، والممتلكات الشاسعة، وقطعان المعز والغنم، وقوافل الإبل... هؤلاء يتنعّمون بما يصف القرآن به أهل الجنّة من قصور مشيّدة، وغرف عالية، وسرر مَوْضُونَةٍ، وأرائك منعّمة، وفرش مبطّنة ومبثوثة، ونمارق مصفوفة، وحلي منمّقة، وزرابي مبثوثة، وألبسة حريرية، من سندس واستبرق(١٣)..

ويصفهم أيضاً بما كانوا يتنعّمون به من مآكل شهيّة ومشارب هنيّة، وما كانوا يستعملونه من الأواني في مأكلهم ومشربهم، من ذهب وفضّة ومرجان ولؤلؤ درّي وياقوت(١٤)... ويسمّي بعض أوانيهم من صحاف وأكواب وزجاج وأباريق ومصابيح ومشاكي وقوارير وزخارف متنوّعة الشكل واللون(١٥)..

ويصفهم أيضاً في أسفارهم ورحلاتهم التي يسّرت لهم الاتّصال بالعالم، واستمتعوا بما عرفوه من ترف ونعيم ومال ولذائذ ومتع مشتهاة(١٦).. أدّت بهم إلى تكذيب الرسول والكفر بدعوته. فقال فيهم: « وما أرسلناك في قرية من نذير إلاّ قال مُتْرَفُوهَا إنّما بما أُرسِلتُ به كافرون »(١٧). وأدّت بهم أيضاً إلى

---

(١٣) انظر: ٧ / ٧٤، ٢٢ / ٤٥، ٢٥، ١٠، ٣٩ / ٢٠، ٥٦ / ١٥، ٥٢ / ٢٠، ٤٣ / ٣٤، ١٥ / ٤٧، ٣٧ / ٤٤، ٥٥ / ٥٤، ٥٦ / ٣٤، ١٠١ / ٤، ١٨ / ٣١، ٣٦ / ٥٦، ٧٦ / ١٣، ٨٨ / ١٥، ٧٦ / ٢١، ١٨ / ٣١، ٢٢ / ٢٣، ٣٥ / ٣٣...

(١٤) انظر: ٢٢ / ٢٣، ٤٣ / ٥٣، ٥٢ / ٢٤، ٥٥ / ٢٢، ٥٨، ٥٦ / ٣...

(١٥) انظر هذه الألفاظ في المعجم المفهرس للقرآن. وهي كثيرة جدّاً.

(١٦) ١٨ / ٣١، ٢٢ / ٢٣، ٤٣ / ٧١، ٤٤ / ٥٣، ٥٢ / ١٧ ـ ٢٤، ٥٥ / ٤٦ ـ ٧٨، ٥٦ / ١٥ ـ ٢٩، ٦٩ / ٢١ ـ ٢٤، ٧٦ / ٥ ـ ٢٢، ٧٨ / ٣١، ٨٣ / ١٨...

(١٧) ٣١ / ٣٤.

الغش بالكيل والتلاعب بالموازين[١٨]، وأكل الربا[١٩]، وقهر اليتامى وأكل أموالهم ظلماً[٢٠]، وإكراه المستدين على حمل امرأته أو ابنته على البغاء لإيفاء ما عليه[٢١]...

وإذا جاءهم سائل انتهروه، وإذا طلب منهم محروم عوناً أبعدوه، وإذا وزن بائِعُهم أنقصَ في الميزان، وإذا كال قصّر في الكيل[٢٢].. وغير ذلك من مفاسد حتى التهوا عن عبادة الله واتّباع الرسول والجهاد معه، بما لهم من مال وبنين يفتخرون بكثرتهم[٢٣].

إلاّ أنّ الربا كان المظهر الأهمّ لجشعهم، وكانوا « يعوّلون عليه كثيراً في تنمية ثرواتهم » . وكان يبلغ أحياناً أضعاف القرض. ويبدو أنّه كان في مكّة « أمراً شائعاً وعامّاً »[٢٤].

وبالاجمال، يصوّر القرآن « أعزّة » مكّة جماعة ترف واسراف. يتمتّعون برغد من العيش بفضل نشاطهم التجاري وأرباحهم الطائلة التي « صيّرت مكّة مركزاً خطيراً من مراكز الثروة والمال في جزيرة العرب في ذلك الحين »[٢٥].

******

ولا بدّ لنا، لإكمال صورة القرآن، من الاعتماد على كتب السِيَر والأخبار، فنتعرّف على بعض أشخاص سيطروا على الثروة والأرباح وأسواق التجارة آنذاك.

---

(٢٠) ٤ / ١٠، انظر آية ٢، ٢٩، ١٦١، ٢ / ٨٨، ٦ / ١٥٢، ٩ / ٢٤ و٣٤، ١٧ / ٣٤، ٨٩ / ٧، ٩٣ / ٩ و٦ / ١٥٢، ...
(٢١) ٢٤ / ٣٣.
(٢٢) ٥٥ / ٩، ٨٣ / ١.
(٢٣) انظر: ١٩ / ٧٧، ٩٠ / ٨١، ٧١ / ٢١.
(٢٤) الشريف، مكة والمدينة، ص ٢١٣.
(٢٥) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٧ / ٢٨٥.

عبد الله بن جدعان ابن عمّ والد الخليفة أبي بكر. كان ثرياًً جداً، ربّما عُدّ من أثرى رجال قريش. كان يأكل بصحافٍ من ذهب وكؤوس من فضّة وبلّور. فعرف بـ« حاسي الذهب ». وامتلك قياناً يغنين له. وكان بيته داراً للضيافة... لكنّه كان كريماً حتى الاسراف، محبّاً ومضيافاً. كان يعتق الرقاب، ويعين على النوائب، ويساعد الناس، ويقضي الحاجات.. ولكثرة كرمه، كان يضع جفنة (قدرة) كبيرة ضخمة ويملأها طعاماً ليأكل منها الناس. وكانت عظيمة جدّاً بحيث غرق فيها صبي، ويأكل منها القائم والراكب على بعيره. ويذكر أن الرسول استظلّ بظلها وقت الظهيرة. وكان محمد يرسل منادياً إلى مكة ينادي: « ألا من أراد اللحم والشحم فليأت على دار ابن جدعان ». كان له دار واسعة، عقد بها حلف الفضول. وكان النبي ممّن شهده وهو ابن عشرين سنة(٢٦).

عثمان بن الحويرث بن أسد، ابن عمّ خديجة، طمع في ملك مكّة، فخرج إلى قيصر الروم، وسأله أن يملّكه على قريش. وتنصّر عثمان وحسنت منزلته عند الروم، وهدّد قريشاً إنْ لم تَدِنْ له قَطَعَ القيصرُ تجارتَهم مع بلاد الشام. وكان عثمان من رؤساء حرب الفجار. كما كان أحد الهجّائين اللاذعين(٢٧).

الأسود بن المطلب المعروف بأبي زمعة. يقال له « زاد الركب »، لأنّه كان يزوّد المسافرين طعاماً. أدرك الرسول وعارضه، واستهزأ به، فمات كافراً. عرف بغناه وثروته الواسعة وتجارته مع بلاد الشام. كان من أعزّ قريش في أيّام الجاهليّة، ولا يطوف بالبيت إلاّ متقلّداً بسيفين(٢٨).

زمعة بن الأسود تاجر مع بلاد الشام، عُرف بدقته في عمله، وبوضع الخطط الرابحة. وابنه يزيد بن زمعة من سادات قريش. كان إليه المشورة، فيعرضون عليه كل أمر. أسلم واستشهد في الطائف(٢٩).

حرب بن أميّة من وجهاء مكّة وأثريائها المعروفين(٣٠).

هشام بن المغيرة كان له ولبنيه ذكر عال في الثروة. كان سيّد قريش في أيّامه. ولما مات أصبح يوم مماته من أيام مكة المشهورة. فأرّخوا بموته. لقب أيضاً كالأسود بن المطلب بـ« زاد الركب » لأنه كان يُقري المسافرين(٣١).

---

(٢٦) المحبر ١٣٨، نسب قريش ٢٥٦، الكامل ١ / ٣٥٩، لسان ١٠ / ٤٥٧...
(٢٧) الاشتقاق ٥٩، نسب ٢١٠، المحبر ١٦٥، الروض الانف ١ / ١٤٦...
(٢٨) بلوغ الأرب ١ / ٢٤٩، المحبر ١٥٨...
(٢٩) أيام العرب ٣٣١ و٣٣٤.

الحارث ابنه عُرف بالكرم والجود. داره مفتوحة للضيوف. يدخل إليه الناس وهو جالس على سريره، ويحثهم على الأكل والشرب. وكانت جفانيه مملوءة خبزاً ولحماً. وكان نديماً لحكيم بن حزام بن خويلد ابن عمّ خديجة(٣٢).

أمّا الوليد أخو هشام بن المغيرة فكان من أشراف مكة. عُرف بين قومه بـ« العدل »، لأنه كان يعدل قريشاً كلها لكثرة أمواله. فكانت قريش تكسو الكعبة جميعاً ويكسوها الوليد وحده. كان له مال وزرع بالطائف. كافح الإسلام وهزئ بالرسول. فنزلت بحقه آيات كثيرة تعنّفه وتصفه بالكفر والاستكبار(٣٣).

أبو جهل، من أبناء هشام بن المغيرة، هو أبو الحكم عمرو. لقّب بأبي الحكم فغيّر الرسول لقبه بـ« أبي جهل ». كان على رأس أشد الناس عداوة للنبي. وكان من « المقتسِمين.. وهم سبعة عشر رجلاً من قريش. اقتسموا عقاب الكعبة، فكانوا إذا حضروا الموسم يصدّون الناس عن رسول الله. وفيهم نزلت آية « كما أنزلنا على المقتسِمين »(٣٤). وكان من مطعمي حرب بدر ومموليه. كان أحول « ومن الحولان الأشراف ». كان قاسياً على النساء، فعذّب عدداً منهنّ. وكان يفتن كل من أسلم في إسلامه. وكان فاحشاً بذيئاً(٣٥).

عكرمة بن أبي جهل يدلّ على غناه قوله لأبي بكر الصديق يوم غزا الروم: « أنا غنيّ عنها (أي عن المغانم). معي ألفا دينار، فاصرف معونتك إلى غيري(٣٦).

العاص بن وائل بن هاشم من أشراف قريش وأثريائهم. أسلم هو وخالد بن الوليد وعثمان وطلحة(٣٧).

الحكم بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس. من تجار مكة وأعزّتها. كان يخرج بتجارته إلى الشام وسائر البلدان(٣٨).

سعيد بن العاص المكنى بأبي أحيحة. والمعروف بذي العمامة، لأنّه كان لا يعتم أحد بمكة بلون عمامته اعظاماً له. وعُرف بـ« ذي التاج » للسبب نفسه. كان تاجراً وحبس مرّة بالشام وافتُدِي بمال كثير. لم يدخل في الإسلام إذ كان

---

(٣١) الاشتقاق ٦٠ و٦٣ و٩٢، المحبر ٣٩، المعارف ٣٢.
(٣٢) المحبر ١٧٦ و١٧٩، نسب قريش ٣٠١.
(٣٣) تفسير الطبري ٥ / ٣٦، ابن هشام ١ / ٧٢، المحبر ١٦١، أنساب ١ / ١٣٤.
(٣٤) سورة الحجر ١٥ / ٩٠.
(٣٥) المحبر ١٣ و١٣٩ و١٦٠، ١٦١، ٣٠٣، الكامل ٢ / ٤٧، أنساب ١ / ١٢٥.
(٣٦) نسب قريش ٣١١.
(٣٧) نسب قريش ٤٠٨ و٤٠٩.
(٣٨) المحبر ١٦٥، الاشتقاق ٤٩، الطبري ٢ / ٢٩٨...

يرى أنّ الشيء العظيم يجب أن يكون في العظماء، والإسلام حقير على يد حقير. مات كافراً، ودفن بالطائف. رأى أبو بكر قبره فسبّه، فنهى النبي عن سبّ الأموات[٣٩].

عمرو بن العاص أسلم وقاد الجيوش الإسلاميّة للفتح والغزو واكثار رأس ماله. وكان قبلاً يتاجر مع مصر، ولذلك تعرّف على منافذ الضعف فيها مما سهل له فيما بعد فتحها والانتصار عليها.

عبد الله ابنه. قيل عنه إنه « كان يعرش على ألف ألف خشبة شراء كل خشبة درهم. وقد كان يحصل منه على أكوام كبيرة من الزبيب[٤٠].

العباس بن عبد المطلب، من أغنياء قريش، ومن المقرضين للمال. كانت له ثروة واسعة من نقود وذهب وفضة. استغلّ ماله بالتجارة وباقراضه بالربا. قيل عنه: « كان ذا مال كثير متفرق في قومه. فدى نفسه عندما وقع في الأسر ببدر »[٤١].

عبد العزّى بن عبد المطلب، المكنّى بـ« أبي لهب »، عمّ الرسول. حاربه ونصب له العداء. جمع مالاً طائلاً من تجارته مع بلاد الشام. وكانت زوجته تحرّضه على معاداة الرسول وايذائه. وفيهما نزلت سورة « تبت » أو « اللهب » رقم ١١١. كان بيته في جوار بيت رسول الله. وكان الرسول يقول: « كنت بين شر جَارَين: أبي لهب وعقبة بن أبي معيط إن كانا يأتيان بالفروث فيطرحونها في بابي »[٤٢].

أبو سفيان واسمه صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ. كان تاجراً ثرياً، خبيراً بطرقات السفر والقوافل. وكان قائد قريش في الحرب. وكان صاحب لسان يَنْظمُ الشعر ويُجيد الهجاء. وكان صديقاً للعباس. نزلت آيات كثيرة بحقه. وكان من المحرّضين على معركة بدر. وكان شحيحاً « حتى حمله شحه هذا على مخالفة دين قريش »[٤٣].

عتبة بن ربيعة بن عبد شمس اشتهر بماله وسخائه[٤٤].

---

(٣٩) المراجع السابقة مع أنساب البلاذري ١ / ١٤١ و١٤٢، البيان ٣ / ٩٧.
(٤٠) تاج العروس ٥ / ٢٤٣ مادة: وهط.
(٤١) تاريخ الطبري ٢ / ٤٦١، الاصابة ٢ / ٢٦٣ رمق ٤٥٠٧.
(٤٢) أنساب للبلاذرى ١ / ١٣١، « فروث » وسخ الإنسان.
(٤٣) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٣٥، تاريخ الطبري ٢ / ١٥٧ و٤٦٦، الطبرسي تفسير على سورة ٣ / ١٧٢، الاستيعاب ٤ / ٨٦، حاشية على الاصابة.
(٤٤) المحبر لابن حبيب ١٦، سيرة ابن هشام ٢ / ٢٦٢.

أبو بكر الصديق كان له عند بعثة النبي أربعون ألف درهم. ولمّا أسلم كان يعتق من ماله ويعول المسلمين. لما قدم المدينة مهاجراً كان له خمسة آلاف درهم فقط[٤٥].

طلحة بن عبيد الله بن عثمان. غلّته اليومية ألف دينار. كان خازناً لأغنياء قريش[٤٦].

الزبير كان له ألف مملوك يؤدّون إليه الخراج. له أرضون واسعة[٤٧].

بلال المؤذّن كان خازناً لأموال أبي بكر. ثم صار خازناً للرسول[٤٨].

عبد الرحمن بن عوف من المهاجرين الذين جمعوا مالاً وصار من المثرين. تصدّق على الرسول بأربعين ألف دينار. وحمل خمسمائة راحلة. اعتق ثلاثين ألف نسمة. وأوصى لكل من شهد بدراً بأربعمائة دينار. خلّف ألف بعير وثلاثة آلاف شاه ومائة فرس[٤٩].

مسافر بن عمرو بن أميّة تاجر مع العراق وهلك فيها عند النعمان بن المنذر. رثاه أبو طالب[٥٠].

الأسود بن عامر بن السباق بن عبد الدار بن قصي كان غنيّاً جدّاً[٥١].

ضرار بن الخطاب كان فارس قريش في الجاهلية وشاعراً. أدرك الإسلام[٥٢].

عمر بن عبد ودّ. غني واسع الثروة. قتله علي بن أبي طالب[٥٣].

سهل ابنه أسلم وبعثته قريش يحكم الهدنة بينها وبين الرسول يوم الحديبية[٥٤].

قيس بن عدي ضرب به المثل في الثروة والعزّ[٥٥].

الحارث ابنه استهزأ بالرسول وأذاه فنزلت فيه آية: « أفرأيت من اتّخذ

---

(٤٥) الاصابة ٢ / ٣٣٧ رقم ٤٨١٧.
(٤٦) الاستيعاب ٢ / ٢١٠ حاشية على الاصابة.
(٤٧) الاستيعاب ١ / ٥٦٣ حاشية على الاصابة.
(٤٨) ارشاد السارى ٤ / ٤٩.
(٤٩) ارشاد السارى ٤ / ٤، الاصابة ٢ / ٤٠٨ رقم ٥١٨١.
(٥٠) كتاب نسب قريش ١٣٥، الاشتقاق ١٠٣.
(٥١) الاشتقاق ١٠٠.
(٥٢) الاشتقاق ٦٤.
(٥٣) الاشتقاق ٦٨.
(٥٤) الاشتقاق ٦٩.
(٥٥) المحبر ١٧٨، جمهرة أنساب العرب ١٥٦.

إلهه هواه »[٥٦].

عثمان بن عمرو بن كعب عُرف بـ« شارب الذهب » لغناه. وحسب من أجواد قريش[٥٧].

عبد الله بن عامر بن كريز ابن خال عثمان بن عفّان كان ماله أرضون واسعة. جمع ثروة طائلة من الزراعة[٥٨].

عبد الله بن أبي ربيعة استقرض منه الرسول أربعين ألف درهم فأعطاه.

صفوان بن أمية أقرض الرسول خمسين ألف درهم.

حويطب بن عبد العزّى أقرض الرسول أربعين ألف درهم[٥٩].

المطلب بن أبي وداعة فدى أباه يوم بدر بأربعة آلاف درهم[٦٠].

آل مخزوم عرفوا بالثراء وكثرة المال والأرضون[٦١].

******

هؤلاء جميعهم، وغيرهم الكثير، ممّن كانوا في أيّام النبيّ، وعند بدء الدعوة الإسلاميّة؛ وقد اشتهروا بكثرة المال ووفرة الثروة والأرباح. كان لهم أرضون شاسعة، وزراعة ناجحة، في مكة والطائف وبعض القرى المجاورة. كما كان لهم تجارة رابحة مع بلاد الشام واليمن ومصر وغيرها. ومعظمهم عاند الرسول وحاربه. وبعضهم أسلم وأفاد الإسلام من ثروتهم. وفي القرآن المكّي، بحق الذين عاندوا، آيات كثيرة تتوعّد بالعذاب والهلاك الأبديين.

لم نذكر من هؤلاء الأثرياء إلاّ الذين كانوا على صلة بالنبي. فما أدراك بالذين كانوا عبر عصور الجاهلية يكدّسون الأموال والأرضون! هؤلاء كانوا في

---

(٥٦) أنساب البلاذري ١ / ١٣٢. انظر القرآن ٤٥ / ٢٣.
(٥٧) المحبر لابن حبيب ١٣٧.
(٥٨) نسب قريش ١٤٨، الاستيعاب ٢ / ٢٥١.
(٥٩) أمتاع الاسماع ١ / ٣٩٥.
(٦٠) نسب قريش ٤٠٦.
(٦١) نسب قريش ٣٠٨.

مكّة مهاجرين قبل الهجرة في سبيل جمع الثروة. وصورتهم في القرآن جليّة، وموقفهم من الدعوة الجديدة عدواني، وموقف الرسول منهم ثوري. لم يحصل للنبيّ أذى إلاّ بسببهم، ولم ينزّل القرآن، في بدايته، إلاّ بحقّهم.

وأخطرهم على الإسلام كان التجّار. وقد وصفوا بالفجر والكفر والبخل. فجاء على لسان الرسول قوله: « التجّار هم الفجّار »[٦٢]. وقوله: « إنّ التجّار يُبعَثون يومَ القيامةِ فجّاراً »[٦٣]. وكانت دعوتُه على التجّار قوله « لأَقطعَنَّ متجرَك بالشام »[٦٤]، أو « لا أَرْبَحَ اللهُ تجارَتَكَ »[٦٥]...

(٦٢) ابن حنبل ٣ / ٤٢٨، ابن هشام ٢٥٧، تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٦.
(٦٣) سنن الترمذي، باب البيوع ٤، سنن ابن ماجه، باب التجارات ٣، مسند ابن حنبل ٣ / ٤٢٨، ٤٤٤.
(٦٤) صحيح البخاري، باب المناقب ٢٥، ابن حنبل ١ / ٤٠٠.
(٦٥) سنن الترمذي، باب البيوع ٧٥، الدارمي، باب الصلاة ١١٨.

ثالثاً: طبَقَة الأذلَّة الفقرَاء

تؤلّف هذه الطبقة السواد الأعظم من سكّان مكّة. وهم، في غالبيّتهم، من البدو والأحابيش والخلعاء المطرودين من بلدان منشأهم. وكثيراً ما تكلم القرآن عليهم، وعلى وضعهم السيّئ. وعُرفوا فيه، وفي كتب الأخبار، تحت أسماء عديدة، ممّا يشير على كثرتهم وإلى ضعة منزلتهم. فهم، في القرآن: « أراذل » و « أذلـّة » و « أرذلون »[٦٦]. وفيهم « الفقير » و « المسكين » و « ابن السبيل » و « اليتيم » و « المحتاج »... وهم، في كتب السير والأخبار، « صعاليك » و « خلعاء » و « طرداء » و « لصوص البادية » و « ذؤبان العرب » و « شياطين » و « فتّاك » وغير ذلك[٦٧].

و « لا يخفى أنّ تعدّد هذه الأسماء يكفي للدلالة على عدد أولئك الشذّاذ، وعلى ما كان من ضعف في تنظيم السلطة العربيّة القديمة »[٦٨]. ولا يخفى أيضاً، نظراً لتنوّع أسمائهم، بأنّ هناك تنوّعاً في حالتهم السيّئة. فهم إمّا « خلعاء » طُرِدُوا من قبائلهم وعشائرهم لأجل الخلاص من شرّهم، أو لأجل سبب سياسي، أو أيضاً لأجل ثأر يُطلب منهم. وإمّا « جياع » تكاثر عددهم فأصبحوا يتقاتلون على لقمة العيش، ولا تعود خيرات الطبيعة تكفيهم. وإمّا « لصوص » اعتادوا حياةَ النهب والسلب والتعدّي على أموال الناس وأرزاقهم.

---

(٦٦) انظر المراجع صفحة ٨٣ من هذا البحث.
(٦٧) انظر: تاريخ الواقدي، ٤٥٨، تاريخ الطبري ١ / ١٤٣٨، الأغاني للأصفهاني ٨ / ٦٥، النهاية لابن الأثير ٢ / ٥٢، ٦٣، أسد الغابة في أسماء الصحابة ٥ / ١٧٨...
(٦٨) هنرى لامنس، المشرق عدد ٣٤، سنة ١٩٣٦، ص ١ ـ ٢.

وأوصاف هؤلاء جميعاً، وفي جميع حالاتهم، تدلّ على سوء حياتهم وشدّة فقرهم. فالصعلوك مثلاً هو « الفقير الذي لا مال له »[٦٩]، أو هو « الفقير المتجرّد للغارات »[٧٠]. والصعاليك قوم خرجوا على طاعة مجتمعهم بعد أن حرمهم أهلهم من تقديم أيّة مساعدة، أو حماية لهم. والصعلوك هو المتمرّد على مجتمعه، الخارج عن نظام قبيلته، العابث بالأعراف والعادات، واللامبالي بالتقاليد، والحاقد على أهله وعشيرته، والمعدوم من كل شيء يفيد أو يقيت.

والجوع حليف الصعاليك، بل هو جزء من أجزاء حياة الصعلكة. والموت يتبعهم مثل ظلّهم. والخوف الدائم رفيقهم. ولا أمل لهم بعصبيّة تدفع عنهم الشرّ والموت إنْ هم لم يدافعوا عن أنفسهم بأنفسهم.

ومن مظاهر الفقر والعوز عندهم انّهم كانوا يأكلون ورقَ الأشجار ولحاءها، ويعمدون، كالسَرْح، في رعي الأعشاب نيئة بدون معالجة، ويلجأون إلى « العِلْهَزْ » وهو طعام من الوبر والدم[٧١]، أو إلى « الوَدَك » وهو « جَمْعُ العظام وكَسرُها ثم طبخُها[٧٢]، أو إلى « الوزين » وهو الحنظل ممزوج باللبن[٧٣]... وكثير منهم من كان يؤثر « الاعتفاد »، وهو لجوء الرجل إلى بيته يغلق بابه على نفسه ليموت جَوعاً لكرامته، مفضلاً الجوع على الشبع بالتوسل والاستجداء[٧٤].

---

(٦٩) لسان العرب ١٠ / ٤٥٥ مادة: صعلك.
(٧٠) جمهرة أشعار العرب، ١١٥.
(٧١) لسان العرب ٥ / ٣٨١ مادة علهز، تاج العروس ٨ / ٢٠٣..
(٧٢) لسان العرب ١ / ٣٣٧ مادّة ودك. ولسان العرب المادة نفسها.
(٧٣) تاج العروس، مادة: وزن. وأيضاً لسان العرب المادة نفسها.
(٧٤) تاج ٢ / ٤٢٦، عفد: انتحر ليتخلّص من ألم الجوع.

وكثير منهم من لم يكن له لباس يستر به عريه، أو كان يستر جسمه بالأسمال البالية، أو بورق الشجر، وأعساف النخل، والجلود. ولم يكن لديه ماء ليغتسل. وقد ذُكر أن الفقراء من الصحابة كانت « تنبعث منهم روائح كريهة من عدم الغسيل. ويلعب القمل في شَعرِهم، ويتنقّل على أجسامهم حيث يشاء »[٧٥].

وهناك أيضاً من لم يكن له مسكن، فكان ينام في الصحراء، ويتوسّد التراب، ويلتحف السماء. ويسمّون بـ« بني الغبراء ». والغبراء: التراب[٧٦]، وبـ« المدقعين »، من الدقع وهي الأرض، والدوقعة الفقر والذل[٧٧].

ولشدّة الجوع كان أحدهم إذا نال شربة من اللبن الممذوق بالماء وخمس تمرات صغار ظنّ نفسه مَلِكاً. قال في ذلك شاعر منهم[٧٨] :

إذا ما أصبْنـا كلَّ يـومٍ مَذيقـةً   وخمسَ تُمَيراتٍ صغـارٍ كنائزِ
فنحنُ ملوكُ الأرضِ خُصْباً ونِعمَةً   ونحنُ أَسُودُ الغابِ عند الهزاهِزِ

وكمّ تمنّى أكثرهم الموتَ على الجوع والهزال. فقال عروة بن الورد شعراً:

أقيموا بني لبنى صدورَ ركابكم   فإنّ منايا القومِ خيرٌ من الهزلِ

وأيضاً:

إذا المرء لم يبعثْ سَواماً ولم يرح   عليه، ولـم تعطفَ عليه أقـاربُه
فللموت خيـر للفتى من حيـاته   فقيراً، ومن مولَى تدبُّ عقاربُه[٧٩].

والفقر جعلَ الصعلوك يستهين بالموت في سبيل لقمة العيش. فهو لا يدري متى تأتي منيّته، ومن أين تأتيه. إذا نام خاف من غادر يغدر به، وإذا

(٧٥) عن د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ / ٨٠.
(٧٦) تاج العروس ٣ / ٤٣٧: غبر. لسان العرب المادة نفسها.
(٧٧) تاج العروس ٥ / ٣٣١: دقع. لسان العرب المادة نفسها.
(٧٨) ديوان عروة بن الورد، ص ١٠٦. وعروة أحد شعراء الصعاليك ورئيسهم.
(٧٩) المرجع نفسه، ص ١٥٠، انظر الحماسة لأبي تمام ١ / ١٦٦.

سار ليلاً لا يعرف من يكون مثله من الصعاليك يسري. وإذا ارتاح على غنيمة ظفر بها لا يأمن على نفسه من باحث عن وقت يفتك به. وإذا تعقّب دار غنيّ فلا يعلم إذا كان ثمّت صعلوكٌ آخر سبقه، فيلتقيان ويتقاتلان، وتبقى الدار في غناها لصاحبها السعيد الحظ.

من هنا جاء حَذَرُ الصعاليك الدائم. فهم لا ينامون الاّ وسلاحُهم إلى جنبهم. لا يرقدون من الليل إلاّ قليلاً. ليلهم قصير. ونومهم قليل. وسهرهم طويل. وسلاحهم جاهز. والقلق دائم. وهم، لقرب الموت منهم، لا يبالون به متى يأتي. ولكن لا مبالاتهم ناتجة عن يأس وقنوط، لا عن رغبة أو عدم اكتراث. قال الشنفري أحدُ شعرائهم:

إذا أتتني منيّتي لم أبالِها ولم تذر خالاتي الدموعَ وعمّتي[٨٠].

ومع هذا تبقى الحياة على الصعاليك عزيزة مهما اشتدّ جوعُهم ويأسُهم.

ويزاد أيضاً على هذه الصعلكة البائسة ما تحمله لفظة « خليع » من تعاسة. فالخليع هو الذي خلعه أهله وطردوه من بينهم. فإنّ جنى لم يطالَبوا بجنايته. فهم لا يؤخذون بجنايته، ولا هو يؤخذ بجنايتهم[٨١]. وإعلان « الخلع » أمر خطير بالنسبة إلى سكّان البادية. فالخليع يخرج من حمى قبيلته ليجد نفسه في موقف صعب ووضع شاذ. لقد سحبت منه « الجنسيّة القبليّة »، وأصبح فرداً منفصلاً عن قبيلته..

وفرص الحياة في الصحراء محدودة. ومن المستحيل أن يعيش الفرد فيها إلاّ مرتبطاً بجماعة. ولا يرى الخليعُ في هذه الحال أمامه إلاّ أحدَ طريقين: إمّا أن يلجأ إلى قبيلة أخرى يعيش في حماها مولى من مواليها، وإمّا أن يلجأ إلى الصحراء ليتّخذ من الغزو والنهب وقطع الطرق وسيلة

---

(٨٠) الأغاني ٢١ / ١٣٩. انظر الشعراء الصعاليك، ص ٣٣.
(٨١) لسان العرب ٨ / ٧٦ ـ ٧٧، تاج العروس ٥ / ٣٢٢. مادّة: خلع.

للحياة وأسباب الرزق، معتمداً على قوّته الشخصية في فرض نفسه واثبات وجوده في مجتمع قطع كل صلة بينه وبينه »[٨٢].

******

هؤلاء الصعاليك والخلعاء كانوا، على ما يبدو، كثيري العدد إلى درجة أنّهم كانوا يُخيفون الأغنياء ويرمون الرعبَ في مجتمعاتهم. وخافتهم قريش وأخذت منهم الحذر. فقدّمت لهم العونَ والجوار درءاً لخطرهم. وهي أن تركتهم وشأنهم قاموا بنهب الأموال وقتل الناس والسطو على القوافل والأملاك. لذلك سعى بعض أعزّة قريش إلى انصافهم ومساعدتهم... فراح الشعراء يمتدحون بني هاشم وقريشاً لما أمدّوا به الفقراء والجياع من مساعدة. وكان أشهر من شعر بخطر الجياع والمحرومين هاشم بن عبد مناف الذي دعا إلى انصافهم وتقديم العون لهم، فقيل فيه شعراً:

عَمْرُو الذي هَشَمَ الثريدَ لقومهِ ورجالُ مكَّةُ مسنتونِ عِجَافُ

وقيل في بني قريش:

والخالطون فقيرَهم بغنيِّهم حتى يصيرَ فقيرُهم كالكافي.

وورد أنّ حكيم بن حزام كان يقاسم ربحَه من تجارته الفقراءَ وأهلَ الحاجة والمحاويج[٨٣]. وذكر أن قريشاً كانوا « يتفحّصون عن حال الفقراء ويسدّون خلّة المحاويج »[٨٤].

والايلاف الذي تكلّم عليه القرآن[٨٥] هو من هذا القبيل. وهو يقوم

(٨٢) الشريف، مكّة والمدينة، ٣٤. انظر: ابن الأثير ١ / ٣٥٩، ابن هشام ١ / ١٩٩ ـ ٢٠٢، الروض الانف ١ / ١٢٠ ـ ١٢١، نهاية الارب ٣ / ٢٧ ـ ٢٩...
(٨٣) الزبير بن بكار، نسب قريش ١ / ٣٦٧، رقم ٦٤٤.
(٨٤) تفسير النيسابوري، حاشية على تفسير الطبري ٣٠ / ١٦٩.
(٨٥) القرآن، سورة قريش ١٠٦ / ١.

على انصاف الفقراء والمساكين. وهو من جملة مآثر هاشم بن عبد مناف الذي صار عمله سنّة لمن جاء بعده. و « أصحاب الايلاف من قريش الذي رفع الله بهم قريشاً ونعش فقراءها »[٨٦]. ومن ايلاف قريش « الرفادة » وهي اقراء ضيوف مكّة واطعام المحتاجين من أهلها. ومنه أيضاً « السقاية » وهي توفير الماء والنبيذ واللبن والعسل[٨٧]. ومنه أيضاً ما جاء في حلف الفضول من دعوة إلى « مؤاساة أهل الفاقة ممّن ورد مكّة بفضول أموالهم »[٨٨].

وفي الشعر مديح واسع للذين أخذوا على عاتقهم الاهتمام بالفقراء:

يَبيتون في المشتى ملاءَ بطونِهم وجاراتُهم غرثى يَبتْنَ خمائصا[٨٩].

وفي قول الخرنق بنت هفـّان اشارة إلى ذلك وهي ترثي زوجَها وابنها:

والخالِطين نحيتَهم بنضارهم وذوي الغنى منهم بذي الفقر[٩٠].

ومثله قول عمرو بن الاطنابة:

والخالطين حليفَهم بصريحهم والباذلين عطاءَهم للسائل[٩١].

ومثله أيضاً ما جاء في ديوان حسّان بن ثابت:

والخالطين غنيَّهم بفقيرِهم والمنعمينَ على الفقيرِ المرسل[٩٢].

بيد أنّ سخاء تجّار قريش لم يكن بدون مقابل. فالشذّاذ في مكّة كانوا من أكثر المستهلكين لمداخيلها، إذ كان لهم مال كثير حصّلوه بدون جهد كبير؛ لذلك كانوا ينفقونه بدون حساب. وكذلك أيضاً كانوا خير معاونين لتجّار قريش، فكان هؤلاء يستأجرونهم للمحافظة على قوافلهم، ولخفارتها في

---

(٨٦) المحبر لابن حبيب، ص ١٦٢.
(٨٧) المحبر لابن حبيب ١٧٦ و١٧٧.
(٨٨) سيرة ابن هشام ١ / ١٤١.
(٨٩) الأمالي للقالي ٢ / ١٥٨.
(٩٠) المرجع نفسه.
(٩١) ابن الشجرى، الحماسة، ص ٥٦.
(٩٢) ديوان حسّان بن ثابت ٣٠٨.

رحلاتهم البعيدة[٩٣]، لأنّهم كانوا على علم بمسالك الطرقات، وبمخاطر اللصوص، ومعرفةٍ عمليّةٍ لتجنّبهم أو لمحاربتهم..

هذه الطبقة من الفقراء والخلعاء كان لها « أثر كبير في سرعة استجابتها للدعوة الإسلاميّة ونجاحها في أطوارها الأولى »[٩٤]. ذاك لأنّ الإسلام جاء، أوّل ما جاء، بمبادئ وتعاليم عملت على انتشال هؤلاء الأذلّة والمساكين من الوضع السيّئ الذي كانوا فيه. و « إنّ نظرة إلى قائمة القتلى والأسرى في يوم بدر لتعطينا فكرة واضحة عن مقدار مشاركة هؤلاء الموالي (الارقّاء الخلعاء) لقريش في الصراع. ونظرة أخرى إلى المهاجرين مع النبي إلى يثرب نستطيع أن ندرك أنّ هذه الطبقة كانت كبيرة العدد. فقد بلغ عدد المهاجرين إلى يثرب بعد بَيعَةِ العَقَبة الكبرى ٨٦ كان منهم من قريش ٤١، والباقون من الموالي « والصعاليك والشذّاذ[٩٥].

وقد كان الذين اتّبعوا النبيّ في هجرته وغزواته يعرفون أنفسَهم بهذه الحالة السيّئة، فقالوا: « يا رسول الله! إنّا أناس فقراء »[٩٦]. وعرفوا أيضاً في التاريخ الإسلامي بـ« فقراء المهاجرين »[٩٧]. وذكّرهم النبيّ مرّة وهو يقول لهم: « ألم تكونوا فقراء وأغناكم الله »؟[٩٨]، أو « وكنتم عالةً فأغناكم الله بي »[٩٩]؟

---

(٩٣) الأزرقي، أخبار مكة ٤٦٢، الواقدي، المغازي ٣٠، الأغاني ١٢ / ٤٩، ١٩ / ٧٦، ٢١ / ٦٢ و٦٨، ٨ / ٦٨ ـ ٧٠ و٧٢. انظر لامنس، الأحابيش في مكّة، المشرق ٣٤ سنة ١٩٣٦، ص ٤ ـ ٥...
(٩٤) الشريف، مكة والمدينة، ص ٣٩.
(٩٥) المرجع نفسه، ص ٢٢٦ و٢٢٨.
(٩٦) سنن أبو داود، باب الديانات ٢٥ / ١٠.
(٩٧) مسند ابن حنبل ٢ / ١٧٧.
(٩٨) مسند أحمد بن حنبل ٣ / ٥٧.
(٩٩) صحيح البخاري، باب المغازي ٥٦، صحيح مسلم، باب الزكاة، ١٣٩، مسند ابن حنبل ٣ / ٧٦، ٤ / ٤٢ و٥٠.

وفي رأي المسلمين أنفسِهم أن هذه الطبقة التعيسة كانت« كبيرة العدد بمكّة، نظراً لأعمال مكّة التجارية الواسعة، وانشغالهم بها، واحتياجهم إلى من يقوم على خدمتهم »[١٠٠]. ونظراً إلى مجتمع مكّة المدمن على « الشراب والسمر والمنادمة. ومثل هذا المجتمع يحتاج إلى أعداد من الغلمان والجواري السود والبيض على السواء للخدمة والتسلية وارضاء الشهوات. وقد بلغ عدد الرقيق في مكّة حدّاً كبيراً.. ولعلّ ممّا يدلّ على كثرتهم المفرطة أنّ هند بنت عبد المطلب اعتقت في يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها، كما أعتق سعيد بن العاص مائة عبد اشتراهم فأعتقهم جميعاً »[١٠١].

وعند بعض الباحثين المستشرقين، كلامنس وكيتاني وبندلي جوزى، كان يبلغ عدد الفقراء العاملين في مكّة وفي تجارة قريش عشرات الألوف... والأحابيش منهم كان لهم نظام اجتماعي وعسكري خاصّ.. إلى درجة أنّهم كانوا يتحكّمون، بالنظر إلى الخدمات التي يقومون بها، بأوضاع مكّة.. واستطاع الرسول، في حربه ضدّ أثرياء مكّة، أن يستميلهم إليه، وأن يتعاطف معهم، ومع بلادهم ورئيسهم النجاشي، الذي، رغم هجوم عساكره على مكّة بقيادة أبرهة في عام الفيل سنة (٥٧٠ م؟) استضاف المهاجرين الأوّلين من أتباع محمّد[١٠٢].

---

(١٠٠) الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٢٨.

(١٠١) المحاسن والأضداد، ص ٧٧، المبرد، الكامل ٢ / ٩٦، شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٥١. عن الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٢٩.

(١٠٢) انظر لامنس، المشرق ٣٤، وكيتاني، الحوليات الإسلامية، وبندلي جوزى، الحركات الفكرية في الإسلام..

رابعَاً: ثَوْرَة المَحْرومِين

هكذا كـان مجتمـع مكّـة أواخـر القـرن السـادس للمـيلاد: أعـزّة وأذلّـة، فقـر مـدقع وغنـى مفرط، طبقة ثريّة وطبقة معدَمة، مترفون ومستضـعَفون.. لا حدّ وسط بين الفئتين. وهو أمر طبيعي في مجتمع يعتمد في رزقه على التجارة، وعلى التجارة وحدها، مع ما فيها من مضاربة، وغشّ ودهاء، واحتيال ومراوغة، واحتكار وخداع، ومكر وتلاعب بالمكاييل والموازين..

وكثرة الغنى في طبقةٍ أدّتْ إلى كثرة الفقر في أخرى. وكلّما كثر المال في جماعة، قلّ عدد الأغنياء، وزاد عدد الفقراء وأصحاب الفاقة؛ فاستأثرت قلّة من الناس بالمال والرزق والثروة، وأصبح الفقراء يأكل بعضهم بعضاً ويعملون لمصلحة أسيادهم على حساب بعضهم البعض.. ولا بدّ أن تكون هذه القلّة من الأثرياء على ذكاء وفطنة، فاستطاعوا أن يتملّكوا الفقراء كعبيد وأرقاء وموال، كما تملّكوا المال والرزق والثروة. واستطاعوا أيضاً أن يفتحوا أبواب بيوتهم للجياع والمساكين، ويساعدوهم على نحو ما أشار إليه الشاعر الخزاعي في قوله:

هَبَلَتْكَ أمُّكَ! لو حللتَ بدارِهم ضمنوكَ من جوعٍ ومن إقرافِ...
والخالطين غنيَّهم بفقيرِهم حتى يصيرَ فقيرُهم كالكافي[١٠٣].

إلاّ أنّ سدَّ رمقِ الجياع، ومساعدةَ الفقراء والمساكين، والنداءات المتكرّرة إلى ذلك.. لم تقض على الفقر والجوع، ولم تخفّف من وطأة البؤس والحرمان، ولم تغمض أعين المعدومين عن استئثار المترفين ونهمهم. إنّ أصوات الجياع

(١٠٣) انظر تاريخ اليعقوبي ١ / ٢١٤، تفسير القرطبي ٢٠ / ٢٠٥، الطبرسي مجمع البيان ١٠ / ٥٤٦، أنساب ١ / ٥٨...

كانت أقوى من المساعدات الضئيلة، وأعلى من نداء الاستغاثة، وأدوى من كل حسنة.. وكان الفقر تتّسع رقعته كلّما انحسرت الأرزاقُ بأيدي حفنة من الناس.. وهو أيضاً أمر طبيعي في مجتمع بدائيّ تسوده الأثرة والأنانيّة والفرديّة والمصلحة الخاصّة...

في هذا الجوّ البائس، راح التعساء يتململون، ويتجمّعون، ويتعصّبون. وراحوا ينتفضون لكرامتهم الإنسانيّة المتبقيّة عندهم، بعد إذلالهم المتواصل. وحتى الشفقة عليهم كانت تحزّ في نفوسهم، وتحطّم عنفوانهم القليل الباقي... وباب الكلّ، من أحابيش وأعراب وأعاجم وأجانب وطرداء وصعاليك وجياع ومحرومين ويتامى ومساكين.. يتحيّن تلك الفرصة التي تسمح لهم بالانتفاضة وإعلان الثورة.

وعندما يحين الوقت لذلك، وينتفض الفقير لفقره، وينتقم الجائع لجوعه، ستكون نقمة عارمة، وثورة جارفة، وحرب ضروس. وسينقلب المجتمع بأمّه وأبيه رأساً على عقب، لا محالة.. وإن لم تنجح الثورة، فلا يخسر الثائرون شيئاً، وهم الخاسرون كيفما تصرّفوا.. ولكنّ نتيجةً ما ستكون لا محالة. والنجاح رهن بقائد متجرّد يتزعّم الثورة.

إنّ المحرومين من خيرات هذا العالم، بسبب جشع الجشعين، هم أشدّ فتكاً في الأرض من الوباء السارى. والدليل على ذلك اجتياح الحركات الاجتماعيّة معظم أنحاء العالم. وتسمّى، بلغة هذا العصر، حركات اشتراكيّة، أو شيوعيّة، أو بروليتاريّة، أو يساريّة، أو تقدّميّة، أو عمّالية، أو حركة محرومين.. وقد يتّخذها معتنقوها بمنزلة دين سماوي منزَل، فيجاهدون في سبيلها جهاداً مستميتاً، ولو أدّى بهم جهادُهم إلى سفك الدماء، والقضاء على معالم الحضارة، ونحر أنفسهم...

اليوم كما بالأمس، حروب العالم هي حروب فقراء ومحرومين ضدّ أغنياء

مترفين. ولئن تعدّدت الأسباب فإنّ السببَ الرئيسَ منها هو ضرب جشع الأثرياء المستبدّين. ولئن اختلفت المظاهر فإنّ بواطن الحروب والثورات تكمن في بطون الجياع. ولئن كان لله في الحرب أصبع فإنّه قد يكون له ذلك لدعم الفقير في حجّته وفي ثورته. وقد يستفيد رجال يتكلّمون باسم الله لإعلان تعاليم سماوية، ولكنّ هذه الاستفادة تكون نتيجةً لا سبباً، وتأتي بعد شبع الجياع وضرب الميسورين. انّما البادئون هم البؤساء والفقراء. والذين يبادرون إلى الثورة وساحات القتال هم هؤلاء.

هذه المبادرة كانت في الدعوة الإسلاميّة منذ نشأتها، وربّما لم يكن غيرُها. لقد كان بدء الدعوة الإسلاميّة بسبب حرمان طبقة هائلة من سكّان مكّة حيث اشتعلت. والنبيّ محمّد كان من هذه الطبقة: كان محروماً من المال والرزق اللذين كان يتمتّع بهما أقرباؤه الأدنون. وكان عائلاً، ويتيماً، وضالاً، على ما أشار إليه القرآن في قوله عليه: « ألم يَجِدْكَ يتيماً فآوى. ووَجدَكَ ضَالاً فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عائِلاً فأَغنَى »[١٠٤]!

ومنذ الصغر، كان محمّد يجهد ويجاهد في تحصيل قوته اليومي بعرق جبينه. فكان تارةً يرعى الغنم، وهو دون السادسة من عمره، وطوراً يسافر مع القوافل التجاريّة، كخفير وأجير، يتحمّل الحرّ والأعباء، وهو دون الثالثة عشرة؛ وكثيراً ما كان يبيتُ الليالي ضامراً يكاد يفنى جوعاً وضنكاً؛ وفي معظم حياته كان باحثاً عن لقمة العيش في العسر والجهد.

والذين ناصروه وآزروه لم يكونوا أحسن حالاً منه. فهم « أذلّة » مكّة، و« أراذلها »، اتّبعوه في جهاده لأجل الظفر بـ« مغانم كثيرة »[١٠٥]. وراحوا

---

(١٠٤) القرآن، ٩٣ / ٦ ـ ٨.
(١٠٥) القرآن ٤٨ / ١٩، ٢٠: « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ».

معه يقطعون طرق التجارة على قوافل قريش، ويشنّون الغارات على يهود يثرب، ويغزون القبائل يريدون العير والبضائع والمغانم. فقضوا بذلك على سبل عيش الأغنياء ومالِهم.. لقد كان الصراع بين محمّد وأنصاره من جهة، وقريش وقبائل البدو من جهة ثانية، كبيراً وعميقاً وقديماً.. وكان على محمّد القائد أن يحسمه قبل استشرائه.

في هذا المناخ من الصراع الطبقي نشأت الدعوة المحمّدية واضطرمت. وكان محمّد، وهو الفقير اليتيم، يدعو الفقراء واليتامى إلى انتفاضة جارفة حتى النصر المبين. فجمعهم حوله، ودرّبهم على حمل السلاح، وعلّمهم أنّ الله انّما يريد المساواة والعدالة بين البشر، وأنّه يسوِّي بين السيّد والعبد، وأنّ الرزق كلّه من الله وإلى الله، وأنّ الظلم المتفشّي في طبقة « الملأ الأعلى » يجب أن يزول، وأن يزول معه الظالمون.

ولا عجب في ذلك، فإنّ الفقر يولّد الحرمان، والحرمان يولّد النقمة، والنقمة تنجبُ الثورة. وأسباب الثورة لم تكن تحصى في ذلك الحين. فسكّان مكّة يأكل غنيُّهم فقيرَهم، وقويُّهم ضعيفَهم. ومحمّد ينظر، ويسمع، ويتحسّس، ويتألّم لآلام الناس وجوعهم. ولم تكن أسباب النقمة عنده أقلّ ممّا هي عند سواه: فهو، رغم أنّه من قريش التجّار، كان فقيراً معوزاً، لا يملك من حطام الدنيا شيئاً. وأعمامه تجّار أثرياء، ولم يهتمّ به إلاّ عمّه أبو طالب أكثرهم عيالاً وأقلّهم مالاً. وقد دعاه عمّه هذا يوماً قائلاً: « يا ابنَ أخي! أنا رجلٌ لا مالَ لي. وليس ما يَمُدُّنا وما يقوِّمُنا، ولا تجارة »[١٠٦]. وحثّه، من ثمّ، على الالتحاق بقوافل خديجة.

---

(١٠٦) انظر: طبقات ابن سعد ١ / ١١٩ و١٥٦ و١٦٨، السيرة الحلبيّة ١ / ١٤٧، السيرة المكيّة ١ / ١١٨ وغيرها...

وكمّ مرّة جمع محمّد أصحابه التعساء « الأذلّة » يعلّمهم قائلاً: « اغزوا تستغنوا »[١٠٧]، ويقول: « إنّ الرجل يقاتل ليغنم. ويقاتل يغنم »[١٠٨]. وكم طلب منهم أن يصلّوا إلى الله معاً: « ادعُ اللهَ أن يفتحَها علينا ويُغنِمنَا ديارَهم »[١٠٩]. وكان يختصر مهمّته بقوله: لقد « غزونا فسلمنا وغنمنا »[١١٠]. والمحروم الجائع ربّما تكون ثورته لأجل المغانم عديلَ الجهاد في سبيل الله. وقد حدّثنا محمّد عن ذلك بقوله، وهو يمدح أحد صحابته أنّه « كان كالمجاهِد في سبيل الله، رجعَ غانِماً »[١١١].. هذه « المغانم » التي شرّعها الرسول، هي نتيجة حتميّة للثورة. والثورة نتيجة حتميّة للجوع والحرمان.

ولا بدّ لها من أن تكون. لكنّها بانتظار القائد.

---

(١٠٧) مسند ابن حنبل ٢ / ٣٨٠.
(١٠٨) مسند أحمد بن حنبل ١ / ٤١٦، سنن أبو داود، باب الجهاد، ٢٤، سنن النسائي، باب الجهاد، ٢١.
(١٠٩) سنن النسائي، باب الجهاد ٤٢.
(١١٠) مسند أحمد بن حنبل، ٥ / ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٥، ٢٥٨. وشهادات أخرى كثيرة في كتب الأحاديث الستّة وفي الصحيحين. انظرها في مكانها.
(١١١) الموطأ، باب السفر، ٥٣.

خَاتِمَة الفَصْل الرَابع

في أواخر القرن السادس للميلاد، كان في مكّة أغنياء وفقراء. وكان بينهما صراع. كانت الحياة فيها تتجاذب بين الفقر والغنى. وكان المجتمع متصدّعاً. لمّا جاء محمّد، كان الغنى ينحصر في أيد قليلة، وكان الفقر تتّسع رقعته. وكان جوع المحرومين يضمر شرّاً. والصراع ينتظر اضطراماً. والمجتمع يترقّب ثورة. والثورة رهن بوجود قائد. والقائد وجوده قليل. بل وجوده رهن بشّدة البؤس. وكلّما عظم البؤس، قوي الصراع، وكثرت المفاسد، وذرّت الثورة قرنها.

وإذا ما وُجِدَ القائد، وكان شعوراً حسّاساً، متفاعلاً مع الأحداث، وغيوراً على المصلحة العامة، ومتجرّداً عن أنانيّته، وواعياً لخطورة دوره، ومتبصّراً لمجريات الأمور، ورائياً لما سيكون، وعالِماً بالمستقبلات، وفطناً في استمالة الناس إليه، وعارفاً بمواطن الضعف والقوّة، وحذِراً من دهاء التجّار والملاعين، ومميِّزاً لأصحابه من الأعداء، وجسوراً على اظهار الشرّ، ومقداماً على فعل الخير، ومبشِّراً بتحسين أوضاع البائسين... ستكون الثورة لا محالة. وستدقّ ساعة الحسم.

وهناك أيضاً شرط جوهري لمعرفة مَن يكون القائد في مثل هذه الأحوال. وبه يكون هذا القائد خطيراً. وهو أن يكون ممّن انفصمتْ شخصيّته بصراع داخلي حادّ، وحوى في نفسه صراعَ المجتمع، وتجاذَبه الفقرُ والغنى على السواء، ويكون من نسب شريف، ومن عائلة كريمة، ويقدر على جمع الثروة إن أراد، ويزهد بها ساعة يشاء. وإن حصل عليها يكون متجرّداً عنها، ويكون سخيّ الكفّ في العطاء، مهتمّاً بمناصريه اهتمامَه بنفسه وأزود.

فكان محمّد ايّاه ذاك الرجل الذي حوى في نفسه صراع مجتمع مكّة. فهو ينتمي، من جهة نسبه، إلى أعزّة قريش وأغنيائها؛ ومن جهة وضعه وسوء حاله، إلى أذلّة مكّة وفقرائها. وهو يمثّل في شخصه تناقض مكّة بين الفقر والغنى: لقد قضى صباه فقيراً يتيماً، ثم أصبح، بزواجه من خديجة، أحد الأثرياء الميسورين.. فمع أيّة فئة يكون؟ وإلى أيّة جهة يميل؟ أيكون مع الفقراء وقد كان واحداً منهم! أم يكون مع الأغنياء وقد أصبح مثلهم!

يبدو أنّ صراع مجتمع مكّة انتقل بعنفه إلى شخصية محمّد. فهو الفقير والغنيّ معاً. وهو القائل: « أعوذ بك من شرّ فتنة الفقر »[١١٢] وأيضاً: « أعوذ بك من شرّ فتنة الغنى »[١١٣]. وهو الذي عاش البؤس والحرمان، ثم تمتّع بما لزوجته من مال وثروة وأرزاق. وهو الذي عرف المساكين واليتامى، ثم عرف كيف يكون النعيم في بيت خديجة. لكأنّ محمّد هو مكّة، ومكّة هي محمّد، بما في الاثنين من تناقض وصراع وانفصام.

هذا ولم يكن، في مجتمع مكّة، في ذلك الحين، مَن يكون في مثل وضع محمّد: فهو الفقير والغنيّ معاً؛ وهو ربيب عبد المطلب زعيم قريش، وهو أيضاً: « عالة » على عمّه أبي طالب القليل المال والكثير العيال؛ وهو يتيم الوالدين والمحروم من حنان الأخ والأخت، وهو أيضاً زوج خديجة صاحبة المال والجمال والتجارة الواسعة؛ وهو « الضالّ »[١١٤] بلا عضد أو سند، وهو أيضاً تلميذ القسّ ورقة بن نوفل رئيس نصارى مكّة وعالم بالكتاب وأهله[١١٥]؛ وهو جار بيت الله الحرام، وهو أيضاً رفيق التائهين في درب الصحراء...

---

(١١٢) مسند أحمد بن حنبل ٦ / ٥٧، ٢٠٧.
(١١٣) صحيح البخاري، باب الدعوات ٣٩، ٤٤، صحيح مسلم، باب الذكر ٤٩، أبو داوود باب الوتر ٣٢، الترمذي، باب الدعوات ٧٦.. الخ.
(١١٤) إشارة إلى كلام القرآن: « ووجدك ضالاً فهدى » (٩٣ / ٦ ـ ٨).
(١١٥) انظر كتاب « قس ونبيّ » فصل في هويّة القس ورقة.

سيرةُ محمّد ستُظهرُ لنا شخصيَته ورسالتَه ومدى نجاحِه في مهمّته هذه. والخوف من الفشل الذريع سيكون كالخوف من النجاح الكبير. إذا فشل ـ لا سمح الله ـ سيشتدّ البؤس والجوع على الفقراء أكثر ممّا كان عليه. وإذا نجح كثيراً في مجتمع بدائي سيجرّه نجاحه إلى اعتبار نفسه مصلحاً عالمياً في مستوى الكون. ويخشى أن يسحبه نجاحه إلى النطق باسم الله والتنبؤ بالمستقبلات. وإذا ما دخل الغرورُ نفسَه سيعتبر نفسَه نبيّاً مرسلاً، ورجلاً معصوماً.

في كلِ نجاحٍ يحقّقُه إنسانٌ يَربُضُ فَشَلٌ، يأتيه من شرّ الكبرياء. والادّعاء شرُّ كل نجاح. وإنْ لم يكن بينَ الأتباع والأصحاب رادِعاً يردعه، فإنّ محمّداً سيصل إلى هذه الحالة لا محالة. ويبدو أن قوّةَ شخصيته دفعتْ عنه كل رادع. وحاجةُ المجتمع إليه رفعتْ من منزلتِه كثيراً. وضعفُ رفاقه ميّز مقامَه. فلننظر في كل ذلك.

الفَصْل الخَامِس

وَضْع محَمَّد الاجتمَاعي

أولاً : اليَتيم الضَال

ثانيَاً : تربيَة محَمَّد الإبيونيَّة

ثالثَاً : نقمَة في عمْق النَبي

رابعَاً : القَرَار الخَطير

خامَساً : ثَوْرَة حَتّى النَصر

خَاتِمَة الفَصْل الخَامِس

أولاً: اليَتيم الضَال

ولد محمّد في مكّة، ونشأ وتربّى وتدرّب على الحياة في مجتمعها. وكان يخالط الناس في جميع طبقاتهم، ويشاهد، ويسجّل، منذ صغره، ما كان يراه أمام عينيه من صراع. وكان ينفعل للظلم يلحق بفئة كبيرة من البشر. وكان هو منهم في كل حال. فهو ينتمي إلى مكّة الفقيرة، وإلى طبيعتها القاحلة. كما ينتسب إلى والدين فقيرين، على الرغم من أنّهما من « قريش التجّار ».

مات والد محمّد والولدُ جنين. ثم ماتت أمّه وهو طفلٌ دون الثالثة. ولم يترك له الاثنان شيئاً للحياة: لا أخ ولا أخت. لا إبل ولا مال. لا أرضون للزرع ولا ثروة للمتاجرة.. هذا الحرمان الأكبر رقّم حياة الولد في الصميم، وإذا ما أعطي له أن ينمو ويكبر، فلا بدّ من أن ينمو الحرمان معه ويكبر. ولا بدّ أيضاً من أن يسفر الحرمان عن شيء. والله أعلم عمّا سيسفر!

والمفروض ألاّ يسفر عن أمر وسط. فَمِثْلُه إمّا تحطِّمُه الحياةُ فلا يعود له شأن يذكر؛ وامّا يَقلُب المجتمع فلا يعود المجتمعُ يُعرَفُ إلاّ بالنسبة إليه. المهمّ في مثل هذه الحال أن يَحظى الولد بمربِّين ومدرِّبين قادِرين، وأن تنفعل نفسيّته بما حرم منه، وأن تُعطى له فرصُ النجاح إنْ قَصَدَ أمراً. والظاهر أنّ الأجواء كانت مهيّأة للقيام بالمقصود.

الاّ أنّ أعظمَ الحرمان عنده كان في شعوره بـ« العزلة » و « فقدان » العضد والسند، وشعوره بالحاجة لعاطفة ما. فلا أب يعضده، ولا أم تحضنه، ولا أخ يسنده، ولا أخت تحنّ عليه. ثمّ لا شيء ممّا تقوم به حياته. فَاسْتَلَمَهُ جَدُّه، وكلّفه برعاية الغنم في شعاب مكّة، وهو دون السادسة. ولمّا توفّي جَدّهُ، كَفَلَه

عمُّه أبو طالب، أكثرُ الأعمام فقراً وأكبرُهم عيالاً.

وزاد في تعاسته أمراضٌ كثيرة أصابته في كل جسمه: من رَمَدٍ في عَينيه، إلى نوباتٍ عصبيّة، إلى رعاشٍ يصيبه ولا يسكن عنه، إلى أمراض، لا نعلم طبيعتها، كان بعض الرهبان يعالجه منها، وإلى أمراض أخرى، كان يرقى منها عند بعض السحرة والكهان، ثمّ إلى نوباتٍ وارهاصات وارتعاشات كان يشعر بشدّتها عليه، حتى بعد بدء دعوته..

ويضاف إلى ما أصاب جسمُه ما تعرّضت إليه حياتُه من متاعب ومصائب: فتارة كان يرعى الغنم ليحصل على لقمة العيش، وهو صغير السنّ طريّ العود؛ وطوراً يُنصَحُ بالسفر وراء القوافل التجارية العابرة الصحراء من مكّة إلى الشام، ومن الشام إلى مكّة. وكان له من العمر، في رحلته الأولى، تسع سنين لا غير.. واستمرّ الولد يتحمّل الأعباء حتى الخامسة والعشرين، ذاق فيها الأمرّين.

وحتى بعد أن تغيّرت أحواله، وأغنته خديجة من مالها وتجارتها، استمرّ على الجُهد والجوع والفاقة التي اعتادها منذ صباه. عن ابن عبّاس قال: « إنّ النبيّ كان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهلُه (أولاده) لا يجدون عشاءً. وكان عامّة خبزهم الشعير »[١]. وعن فاطمة ابنته، لمّا جاءت أباها بكَسْرَةِ خبز قال لها: « ما هذه الكسرة يا فَاطمة؟ قالت: قرصٌ خبزتُه فلم تطبْ نفسي حتى آتيتُكَ بهذه الكسرة. فقال: « أَمّا أنّه أوّلُ طعامٍ دخَلَ فمَ أبيكِ منذ ثلاثة أيّام »[٢]. وعن أبي هريرة: « إن رسول الله كان يشدّ صَلْبَه بالحجرِ من الغَرْث ». وعن عائشة قالت: « إنّ رسول الله كانت تأتي عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز برّ »[٣]. وكان النبيّ يصلّي: « اللهمّ إنّي أعوذ بك من الجوع، فإنّه

(١) طبقات ابن سعد، ١ / ٤٠٠ و٤٠٢.
(٢) المرجع نفسه، ١ / ٤٠٠.
(٣) المرجع نفسه، ١ / ٤٠٩.

بئس الضجيع »[٤].

وفي رواية عن النبيّ أيّام شبابه تقول: إن الرسول لمّا أَمَرَ بأن يُستَطْلَعَ خبرَ القتلى من قريش يومَ بَدْر، وأن تُلْتَمَس جثّة أبي جهل في القتلى، قال لهم: « انظروا، إنْ خفي عليكم في القتلى، إلى أثرِ جرحٍ في ركبته، فإنّي ازدحمتُ يوماً، أنا وهو، على مائدةٍ لعبد الله بن جدعان، ونحن غلامان. وكنتُ أشفَّ منه بيسير، فدفعتُه، فوقعَ على ركبتيه، فخُدِشَتْ ساقُه وانهشمتْ ركبتُه. فأثَرُها باقٍ في ركبتهِ. فوجدوه كذلك »[٥].

وكم شهد محمّد، فيما بعد، على حياته التعيسة التي عاشها في طفولته. فقد قال يوماً لرجل ارتعد أمامه: « هوّنْ عليك. فإنّي لستُ بمَلِك. انّما أنا ابنُ امرأة من قريش كانت تأكلُ القديد »[٦]. وقال عن رعايته الغنم: « وأنا رعيتُها لأهل مكّة بالقراريط »، أي بأجزاء من الدراهم يُشترى بها الحوائج الحقيرة[٧]. وقال عن الاهتمام باليتامى، وهو يتذكّر يتمه: « ارحموا اليتامى، وأكرِموا الغرباء. فإنّي كنتُ في الصِغَر يتيماً، وفي الكِبَر غريباً »[٨].

والقرآن نفسه لم يتورّع عن ذكر اليتيم الضالّ، قال: « ألم يجدْكَ يتيما فآوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى »[٩]. ولا يزال يذكُّره بأيّام فقره وتعاسته، بعد أن شبّ وكثر مالُه، فيقول: « ألم نشرَحْ لك صدرك[١٠]، ووضعْنا عنك وِزْرَك، الذي أَنْقَضَ ظَهْرَك، ورفعْنَا لكَ ذكرَك. إنَّ معَ العُسْرِ

---

(٤) طبقات ابن سعد، ١ / ٤٠٩.
(٥) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٢٨، البداية والنهاية لابن كثير ٢ / ٢١٧.
(٦) طبقات ابن سعد، ١ / ٢٣.
(٧) السيرة الحلبية، ١ / ٢٠٥، طبقات ابن سعد، ١ / ١٢٥.
(٨) السيرة الحلبية، ١ / ٨٢.
(٩) القرآن، ٩٣ / ٦ ـ ٨.
(١٠) يفهم المسلمون بشرح الصدر معجزة أحدثها الملاك في شقّ صدر محمّد.

يسراً. إنّ مع العسر يسراً »[١١].

******

نختصر: إن انقسامَ مجتمع مكّة إلى أعزّة وأذلّة، وانقسامَ قريش على بطاح وظواهر، ويُتْمَ محمّد من الأب والأم، وحرمانَه من حنان الأخ والأخت، وافتقارَه من كل ما تقوم به الحياة من مال ورزق، وتبرّمَ أعمامه الأغنياء منه، واهتمامَ عمّه أبي طالب به وهو مثله في الفقر والعوز، ورعايتَه الغنم لأهل مكّة، وسفَره المرهق في خفارة القوافل، وشعورَه الدائم بالجوع والحرمان، وأمراضَه العصبيّة التي انتابته منذ طفولته، وشكاوَى التعساء أمثاله وهم كثيرو العدد، وانفعالَه العصبيّ لهذه الشكاوى المؤلمة.. ثلاثة عشر عاملاً من عوامل النقمة والثورة. ويضاف إليها ما تعلّمه وتربّى عليه من عوامل « الرحمة » ومحبّة الفقراء.

---

(١١) القرآن ٩٤ / ١ ـ ٦.

ثانياً: تربيَة محَمَّد الإِبيونيَّة

لن نتناول في البحث جميع نواحي حياة محمّد. يهمّنا منها فقط تربيته، منذ صغره حتى زواجه من خديجة. وتقوم هذه التربيّة على ما تعلّمه وشاهده وانفعل له في بيت جدّه عبد المطلب، وفي كفالة عمّه أبي طالب، وفي البيئة التي عاش فيها، وتأثّر بها، وفي المناخ الديني الذي وجّه قناعاته، وتدرّب على تعاليمه وعقائده، وعاداته... طبعا إنّنا لا نعرف مدرسةً للعلم دخلها محمّد، ولا أسماءَ الأساتذة الذين أعطوه المعرفة. ولكنّنا نعرف « مدرسة الحياة » التي علّمته ودرّبته وربّته ووجّهته، وانفعلت شخصيته بها.

من مدرسة والدَيه لم يتعلّم شيئاً، لأنّه فقدهما طفلاً. ولكن ما تركا له من يتم وفقر وحرمان فحدّث ولا حرج: حرمان من حنان الأم وعناية الأب وعطف الأخت وعضد الأخ. وحرمان من المال والرزق.. ولكن، ما إن فتح الصبيّ عينيه حتى وقعتا على خادمة أمينة كانت تُساعدُ أمَّه في تحصيلِ رزقها، واسمها « بركة » الحبشيّة، وكنيتها « أم أيمن »، وسيكون لها في ذاكرته مكان. ثم خادمة حبشيّة ثانية اسمها « أم حبيبة »، وكنيتها « أم يوسف ». وكان له أيضاً، بحسب عوائد قريش، مرضعة من بني سعد اسمها « حليمة السعدية »، هذه تكفّلت برضاعته فشفقت عليه رحمة بيتمه وتعاسته.

أمّا من مدرسة جَدّه عبد المطّلب حيث قضى الصبيُّ ستَّ سنين، من عمر السنتين حتى الثمانية، فقد اكتسب أموراً عديدة، وانطبعت في نفسه صور جليلة ستوجّه حياته في المستقبل وتكبر معه وتنمي كلّما كبر في السنّ ونمى. وكان الجَدُّ السندَ الوحيدَ للصبيّ، فلا بدّ أن يطبعه بطابعه، ويعلّمه من

مدرسته. وكان الصبيّ يأخذ الجدّ مثالاً له، يقلّده، ويجالس أصحابه وندماءه. هؤلاء كانوا ذا مكانة في الجزيرة آنذاك، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الكعبة وإلى دار جدّه المحاذية لها. وكثيراً ما كانوا يتكلّمون على المظالم الحاصلة في مجتمع مكّة. ومحمّد كان هناك. يسمع ويشاهد ويسجّل.

وصفات عبد المطّلب لم تكن ليستحى منها في قريش. فهو ذو مناقب أهلّته لأن يكون زعيم مكّة في أيّامه. وقد اشتهر أكثر ما اشتهر بالكرم والجود والعدالة وانصاف المحرومين. فلُقِّبَ بـ« شَيْبَة الحَمد »، لكثرة حمدِ الناس له، لأنّه « كان مُفْزِعَ قريش في النوائب وملجأهم في الأمور ». وكان يقال له « الفيّاض » لجُودِه، و « مطعِمُ طَير السماء » لأنّه كان يَرفعُ من مائدتِه للطير والوحوش في رؤوس الجبال ». وكان يأمر أولادَه بترك الظلم والبغيّ ويحثّهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيئات الأمور. وقد كان آمَنَ بأنّ وراءَ هذه الدار داراً يَجزَى فيها المحسِن بإحسانِه، ويُعاقَب المسيءُ بإساءته »[١٢].

ومن مناقبه أيضاً أنّه « رفضَ عبادةَ الأصنام، ووحَّد الله، ووفَّى بالنذر، وسنَّ سنناً نزلَ القرآن بأكثرها، وجاءتِ السنّة من رسول بها. وهي: الوفاء بالنذر، ومائة من الإبل في الدّية، وألاّ تنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل المؤودة، والمباهلة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا، والحدّ عليه، والقرعة، وألاّ يطوف أحد بالبيت عرياناً، وإضافة الضيف، وألاّ ينفقوا إذا حجّوا إلاّ من طيّب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذوات الرايات.. حتى كانت قريش تقول: عبد المطّلب ابراهيم الثاني »[١٣].

---

(١٢) انظر: الحلبية ١ / ٤، المكية ١ / ٧٥، ابن هشام ١ / ٤٣، الأزرقي ١ / ١٤٤، طبقات ١ / ٨٣، ابن كثير البداية ٢ / ٢٥٢، بلوغ الارب ١ / ٣٢٤، ابن حزم، جوامع السير ٢ / ٢، ثمار القلوب ٩٧، الطبري ٢/ ٢٤٧ وغيرها...

(١٣) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٠ ـ ١١.

وعُرف عن عبد المطّلب أيضاً أنّه « أوّل مَن تحنّث في حراء. كان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء، وأطعم المساكين. ثمّ تبعه على ذلك من كان يتعبّد، كورقة بن نوفل وأبي أميّة بن المغيرة »[١٤]. وكثيراً ما كان له ندماء وأصحاب من الرهبان والأحبار وأسياد القوم، وكانوا يأمّونه إلى بيته، ويأتونه زائرين، ويجالسونه، ويتبادلون معه الأحاديث، ويتشاورون في كيفيّة رفع المظالم عن الفقراء، ويعملون على اعالة المساكين، والاهتمام بالمحرومين الذين يؤلّفون عدداً كبيراً من سكّان مكّة ويهدّدون، إذا ما جاعوا، تجارة قريش.

في هذا المناخ الرفيع في بيت عبد المطّلب تربّى محمّد، وتدرّب. ومنه أخذ مواضيع تأمّلاته عندما سيختلي يوماً بربّه في غار حراء. وربّما تكون سيرة عبد المطّلب، لكثرة اعتنائه بالفقراء والمساكين، كسيرة أولئك « الإبيونيين » النصارى الذين عُرف عنهم، طبقاً لاسمهم العبراني، عنايتهم بـ« الفقراء ». وربّما انتمى عبد المطّلب إليهم. ويُرجِّحُ انتماءَه هذا مناقبُه التي رأينا، ومنادمتُه للقس ورقة بن نوفل الذي كان ينقل إنجيلهم العبراني إلى العربيّة[١٥]. ولا يستبعَد أن يكونَ الصبيّ الناشئ تأثّر بهذه الحركة « الإبيونيّة »، وأخذ تعاليمه عنها، وتبنّاها في قرآنه، وعمل جهدَه في تطبيقها.

******

بعد موت عبد المطّلب انتقل الولد إلى كفالة عمّه أبي طالب. ولم يكن أبو طالب، على فقره[١٦]، أقلّ محبّة للفقراء والمساكين من أبيه عبد المطّلب. وقد نقلت عنه كتبُ السِير والأخبار أنّه كان « كأبيه عبد المطّلب »[١٧]. وقد جاء

(١٤) السيرة المكّية ١ / ١٧٨، ابن الأثير ٢ / ١٥.
(١٥) انظر كتاب قس ونبيّ في إبيونية القس ورقة.
(١٦) جاء في الطبقات: « وكان أبو طالب لا مال له » (١ / ١١٩).
(١٧) السيرة المكّية ١ / ٩١، السيرة الحلبية ١ / ١٢٥.

في وصيّته الأخيرة قوله لبنيه، وهو على فراش الموت: « أجيبوا الداعي، وأعطوا السائل. فإنّ فيها شرفَ الحياة والممات »[١٨]. وربّما تعرّف إليه الناس من صفته الإبيونية هذه، فـ« أخبرنا خالد بن خدّاش قال: توجّه إلى الشام فنزل منزله، فأتاه فيه راهب فقال: إنّ فيكم رجلاً صالحاً. فقال: إنّ فينا مَن يُقري الضيف، ويفكّ الأسير، ويفعل المعروف »[١٩]. وكان أبو طالب ينشد:

ونُطعم حتى يأكلَ الطيرُ فضلَنا   إذا جُعلتْ أيدي المفيضين تَرْعَدُ[٢٠].

وكان محمّد في بيت أبي طالب يتمتّع بعطف وعناية تامّين. وقد أفاده فقر عمّه بأن راح يتّكل على نفسه بنفسه، ويعمل، منذ صغره، على تحصيل عيشه. فسافر إلى الشام، في خفارة القوافل، وكان كأحد الأحابيش أو الأرقاء الذين يعملون بأجرتهم الزهيدة. كما كان يسمع شكاوي المأجورين أمثاله، ويتململ من سوء حالته، ويسجّل ما يسمعه ويشاهده.. هذه الأسفار وما رافقها من أمور واختبار أفادت محمّداً، ودرّبته على الحياة، وشدّدت عضله، وعركته بصعوباتها، ونفثت فيه روحاً حماسياً ثوريّاً لأن يأخذ منها موقفاً ما.

******

ويضاف إلى ما تعلّمه محمّد في بيت جدّه وعمّه من تعاليم « إبيونية » ما رآه واختبره وتعلّمه في مجتمعه. ولا بدّ من أن يكون تعرّف على أصدقاء جدّه وعمّه وندمائهما. وقد ذكرت عنهم كتب الأخبار الكثير عن مآثرهم الرحيمة. فعبد الله بن جدعان التيمي، صاحب الأموال الوفيرة، « كان يُقري الضيف ويطعم الطعام ويفعل المعروف »[٢١]. وكان لـه جفنة « يأكل منها القاعد

---

(١٨) السيرة المكية ١ / ٩٩.
(١٩) طبقات ابن سعد ١ / ١٢٠.
(٢٠) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٥٠.
(٢١) السيرة المكية ١ / ١١٦.

والراكب »[٢٢]. والرهبان النصارى، الذين تعرّف عليهم في رحلاته، يَعتبرون محبّةَ الفقراء عديل محبّة الله؛ فكانوا يهتمّون بإطعام المسافرين من أهل مكّة، كما جاء عن راهب بحيرا: « وكانت قريش كثيراً ما تمرّ على بحيرا فيصنع لهم طعاماً كثيراً »[٢٣]. وكم مرّة سنحت الفرصة لهؤلاء الرهبان ليعلّموا ضيوفهم أصول النصرانيّة، ويدرّبوهم على محبة الفقراء والرحمة بالمساكين.

وكان محمّد يسمع ويسجّل ويتأهّب لتلك الساعة الآتية. ولم ترحل صورة القس ابن ساعدة الأيادي من ذاكرته طوال حياته، وقد ذكرها بعد أربعين سنة لوفد من إياد، ممّا يدلّ على أثرها العميق في ذهنه وضميره. وقد كان القس يعظ الناس في سوق عكاظ، ويكلّمهم على المفاسد المتفاقمة في المجتمع، وأهمّها ظلم المساكين، وجمع المال، وأكل أموال اليتامى[٢٤]. وقد انطبعت صورة الواعظ في مخيّلة محمّد وفعلت فيه فعلها، وراح هو يغذّيها بما يراه في مجتمعه موافقاً لتربيته وشعوره الباطني وتعاليمه الإبيونية.

وليس أدلّ على تربية محمّد على الرحمة والعدل من ملازمته القسّ ورقة بن نوفل نسيب زوجته العتيدة. وقد عاش معه نيّفاً وأربعين سنة. وقد اشتهر القسّ ورقة في حياته النصرانيّة باعتكافه في غار حراء، وصيامِه طوال شهر رمضان، وانقطاعِه عن الناس، وخَلوتِه بربّه في العبادة والصلاة، واهتمامِه البالغ بالفقراء والمساكين[٢٥]. وقد اقتدى محمّد به خير اقتداء، واهتدى بهديه، وهو القائل عنه وعن جماعته النصرانيّة: « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدِه »[٢٦]. ثم لازمه في بيت عبد المطلب، ثماني سنين، وفي غار حراء، قبل البعثة،

---

(٢٢) السيرة الحلبية ١ / ٢١٢.
(٢٣) الحلبية ١ / ١٠٣ ـ ١٣٥، ابن الأثير ٢ / ٣٧، تاريخ الطبري ٢ / ٣٢.
(٢٤) طبقات ابن سعد ١ / ٢ و٥٥، السيرة المكية ١ / ١٣٩.
(٢٥) السيرة الحلبية ١ / ٢٥٩، السيرة المكية ١ / ١٧٨.
(٢٦) سورة الانعام ٦ / ٩٠.

خمس عشرة سنة، وبعد البعثة، ثلاث أو أربع سنين؛ وكان يتعلّم منه بعض مبادئ الإبيونية، ويتدرّب على يده، ويتوجّه بإرشاداته، ويتمثّل بسيرته، ويسمع مواعظه وتأملاّته، ويستوعب تفاسيره للتوراة والإنجيل، ويحضر نقله « الإنجيل العبراني ».. حتى قيل عن محمّد ما قيل عن القسّ ورقة: « كان رسول الله يجاور في حراء من كل سنة شهراً.. يطعم من جاءه من المساكين »[٢٧].

وفي النهاية، وقع النبيّ في يد القسّ، وتزوّج من ابنة عمّه خديجة. وكان القسّ هو « الشاهد » على الاكليل، فقال: « اشهدوا عليّ يا معشر قريش: إنّي قد زوّجت خديجة بنت خويلد بن محمّد بن عبد الله »[٢٨]. وبعد هذه الوقعة الالهيّة، راح القس يعلن المرّة بعد المرّة عن نبوءة (؟) محمّد، وعن دوره العتيد، وعن الدعوة التي يريد تحقيقها[٢٩]. ولمّا توفّي القسّ، حزن محمّد عليه حزناً شديداً، وانقطع الوحي عنه. فقيل: « ولم يَنْشَبْ وَرَقَة أن تُوفِّيَ وَفَتَرَ الوحي »[٣٠].

******

وإذا رجعنا قليلاً إلى الوراء، نجد فضيلة الكرم والعناية بالمساكين متأصّلة في أجداد النبيّ. فعبد مناف بن قصيّ كان يسمّى « الفيّاض لكثرة جوده »[٣١]. وهاشم بن عبد مناف لقّب بـ« هاشم لأنّه أوّل من هَشَم الثريد..

---

(٢٧) سيرة ابن هشام ١ / ١٧٦، ٢١٩، ابن سعد ١ / ١٥٣، الطبري ٢ / ٣٠٠.
(٢٨) السيرة الحلبية ١ / ١٥٥، السيرة المكية ١ / ١٢٣.
(٢٩) انظر قس ونبي، فصل « القس يعلن خليفته، ص ٥٢ ـ ٦١.
(٣٠) صحيح البخاري بشرح الكرماني، ١ / ٣٨.
(٣١) السيرة الحلبية ١ / ٢١.

وأطعمه للمساكين. وقد قيل فيه شعراً:

عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكّة مسنتون عجاف[٣٢]

وكان هاشم « يعمل الطعام للحجاج، يأكل منه من لم يكن لـه سعة ولا زاد »[٣٣]. وقال فيه بعضهم: « لم تزل مائدته منصوبة، لا ترفع في السرّاء والضرّاء »[٣٤]. و « كان يخرج مالاً كثيراً.. يسقي ويطعم »[٣٥] المسافرين والجائعين وزوّار بيت الله الحرام.

وقد عُرف آل عبد مناف جميعهم بالكرم والجود، لكأنّهم من جملة « الإبيونيين » النصارى. وامتدحهم الشعراء، وشدّدوا على سخائهم، فقالوا:

قلْ للذي طلبَ السماحةَ والنَدى هلاّ مررتَ بآلِ عبدِ منافِ

الرائِشون وليسَ يوجدُ رائشٌ والقائلون هَلُمَّ للأضيافِ[٣٦].

وقالوا أيضاً:

يا أيّها الرجل المحوِّلُ رحلَهُ ألا نزلتَ بآل عبدِ منافِ

هبلتْك أمُّك لو نزلتَ برحلِهم منعوك من عدمٍ ومن أقرافِ

الخالطينَ غنيَّهُم بفقيرِهم حتى يعودَ فقيرُهم كالكافي[٣٧].

أمّا أهل قريش فقد عقدوا « الأحلاف » نصرة للمظلومين المحرومين. فكان « حلف الفضول الرابع » في بيت أبي جدعان، وقد حضره النبي. جاء فيه « ردّ الفضول إلى أهلها »، أي إعطاء ما يفضل للمحتاجين إليه. فهم أهله. وقيل

---

(٣٢) طبقات ابن سعد ١ / ٧٦، تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٤٤. عمرو هو اسم هاشم. هشم الثريد: كسر الخبز وفتّه وبله بالمرق. مسنتون عجاف: أصابهم الجدب.
(٣٣) الحلبية ١ / ٩.
(٣٤) الحلبية ١ / ٩.
(٣٥) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٤٢ ـ ٢٤٣.
(٣٦) الحلبية ١ / ٨: الرائش أي الذي يطعم ويكسي.
(٣٧) الحلبية ١ / ٨ ـ ٩: منعوك من عدم ومن أقراف أي من الفاقة والتعب.

فيه إنّ قريشاً جعلوا الصدقة وإطعام المحتاج من أمور الدين. وبذلك سمّي أهل قريش « المجيرين، لكرمهم وفخرهم وسيادتهم على سائر العرب »[٣٨]. واشتهر منهم نعيم بن عبد الله بن جدعان الذي كان « ينفق على أرامل بني عدي وأيتامِهم »[٣٩]، وحكيم بن حزام، ابن عمّ خديجة، ينفق على المحتاجين[٤٠]، وآخرون كثر، حتى أصبح إنفاق قريش على المساكين يعدّ عندهم ديناً متّبعاً وعرفاً مقدّساً.

******

في هذا المناخ نشأ محمّد، وتربّى، وتدرّب. وهو كما يظهر مناخ « إبيوني » نصرانيّ. والإبيوني هو الباحث عن الفقير ليداويه بالرحمة والعطاء. وبين قريش المسمّون « الحُمْس » أي المتشدّدين في دينهم، و « الإبيونيين » النصارى الآخذين اسمهم من قول المسيح « طوبى للفقراء »، أي « للإبيونيين »، بحسب لغتهم العبرية والآرامية، أشياء كثيرة مشتركة.

فهل يعقلُ ألاّ تكونَ قريشٌ على ما كان عليه القسّ ورقة في مذهبه « الإبيوني »؟ وهل يعقلُ ألاّ يكونَ محمّدٌ على مذهب معلِّمه ومدرِّبه ومكلِّله ومرشِده؟ وهل يعقلُ ألاّ يكونَ محمّد إذن أحدَ « الإبيونيين » « الحُمْس » الذين يتشدّدون في إعالة المساكين؟ لا غرابة في الأمر إطلاقا. لكنّ الجواب السديد من القرآن، من تعاليم محمّد، كما سيظهر لنا ذلك ساطعا في الفصل الأخير.

---

(٣٨) السيرة الحلبية ١ / ٥٧.
(٣٩) الاصابة ٣ / ٥٢٧، رقم ٨٧٧٨.
(٤٠) نسب قريش ١ / ٣٦٧ رقم ٦٤٤.

ثالثاً: نقمَة في عمْق النَبيّ

في مكّة تناقض في كل شيء: تناقض بين طبقتي المجتمع؛ وتناقض بين جدب الطبيعة وثروة الموقع التجاري؛ وتناقض في قسمي قريش: أغنياء البطاح وفقراء الظواهر؛ وتناقض في بيت عبد المطّلب: بين أولاده؛ وتناقض بين الجشع والجوع؛ وتناقض بين الكرم والبخل؛ وتناقض بين المصرف وجهَه عن اليتامى والأيامى، والمهتمّ بكل عائل مسكين.. وتناقض في حياة محمّد: بين طفولة تعيسة محرومة ورجولة أَثْرَتْ بالرزق والمال، وتناقض بين مبغض له حتى الموت ومحبّ له حتى التضحية بالنفس...

هذه التناقضات جميعها لن تمرّ دون أن تؤثّر في نفسيّة محمّد، وتفعل فيها في العمق. وما أدرانا تكون « ردّات الفعل » عنده، عندما يصبح واعياً، مدركاً، مدرَّباً، ومعَدّاً لكل الاحتمالات الفعليّة والانفعاليّة! ويجب ألاّ تكون « ردّة الفعل » المحمّدية تعبيراً مستهجناً لدينا: فكل شيء في حياة النبيّ كان ردّة فعل بسبب هذا التناقض العميق في مجتمعه وفي حياته. وكل شيء كان في تعاليمه « نقمة »، و « تحدّياً »، و « ثورة ».

فـ« التناقض » و « ردّة الفعل » و « النقمة » و « التحدّي » و « الثورة » هي من مقوّمات شخصيّة محمّد، ومن العناصر الجوهريّة لتعاليمه العتيدة، ومن الدوافع الصاخبة لجهاده المستميت في سبيل حركته الاصلاحيّة.

******

لقد حزّ في نفس محمّد أن يُحرَم وحدَه من وُلدِ هاشم، فيما أقرباؤه يتنعّمون بكثرة الأموال والأرزاق. وعزّ عليه، وهو من قبيلة قريش التجّار، أن

يكفي خفيراً مستخدَما كأحد العبيد والأحباش. لقد تألّم جدّاً من بخل عمَّيه الثريين العباس وعبد العزّى، بقدر ما كان يتألّم من يتمه وبؤسه وحرمانه. وتألّم أيضاً، وهو من آل عبد المطّلب سدنة الكعبة وأشراف مكّة، أن يكون أجيراً تائهاً وراء الغنم والجمال، لا ملجأ له ولا سكينة. وتألّم من التفتيش عن لقمة العيش، فرحل بسببها إلى الشام، فيما أعمامه وعيالهم يأكلون حتى التخمة، ويشربون في كؤوس من فضة وذهب...

وأكثر ما كان ألمُه من اهتمام أبي طالب به، وهو أكثر أعمامه فقراً وعوزاً، وأكثرهم عيالاً، وأقلّهم مالاً. وكم قيل في أبي طالب بأنّه كان « مقلاً من المال. فكان عياله، إذا أكلوا جميعاً أو فرادى، لم يشبعوا »[٤١]. وكمّ مرّة حثّ أبو طالب ابن أخيه ليذهب إلى الشام في المتاجرة، ويخفف عنه أعباء الحياة، حتى قال له يوماً: « يا ابنَ أخي! أنا رجلٌ لا مال لي. وإنْ كنتُ أكرهُ أن تأتي الشام، ولكن لا نجدُ من ذلك بدّاً »[٤٢]. ولمّا تزوّج محمّد من خديجة « فرح أبو طالب فرحاً شديداً. وقال: الحمد لله الذي أذهب عنّا الكرب، ودفع عنّا الهموم »[٤٣].

وممّا زاد في ألم النبيّ ونقمتِه شعورُه بالوَحدة والعزلة. وحده يواجه نوائبَ الدهر ومتاعبَ الحياة. لا أب له ولا أم. لا أخ ولا أخت. لقد حرم من عناية الأب، وحنان الأم، وعضد الأخ، وعطف الأخت. وحرم من المال والرزق. وأصابته الأمراض، وهزّته النوبات العصبيّة.. ومن كانت هذه حاله فكيف تكون حياته؟! وعندما يكبر ستكبر معه المصائب بدون شكّ. ولا بدّ من أن يجد

---

(٤١) طبقات ١ / ١١٩، الحلبية ١ / ١٨٩، المكّية ١ / ٩١، سيرة ابن هشام ١ / ١٧١ و٢٢٩، الكامل لابن الأثير ٢ / ٣٧، تاريخ الطبري ٢ / ٢١٣، الروض الآنف ١ / ١٢١، تاريخ اليعقوبي ٢ / ٩، أنساب ١ / ٩٦...
(٤٢) طبقات ١ / ١٢٩، الحلبية ١ / ٢١٦، المكّية ١ / ١١٨...
(٤٣) طبقات ١ / ١٥٦، الحلبية ١ / ٢١٦، المكّية ١ / ١٢٣...

نفسه أمام أمرين: إمّا الانتحار وإمّا الانتقام. لكنّه لم يُقدِم على الانتحار بل على ما يشبهه، أي على « الاعتكاف في غار حراء »، وعلى « الاستجارة بربّه »، والهرب في شعاب مكّة، وراء قطعان الغنم، والرحيل إلى الشام مع القوافل، و « الخلوة » الطويلة التي حبّبه الله إيّاها، على ما شهدت لنا عائشة[٤٤].

وبعد الاعتكاف والخلوة، سيعود إلى الانتقام: الانتقام من الفقر والجوع بالغنى وكثرة الأرزاق. وكان له ذلك. والانتقام من حاجته العاطفية إلى الأب والأم بنساء عديدات. وكان له ذلك. والانتقام من يتمه وحرمانه بالاهتمام البالغ باليتامى والمساكين. وكان له ذلك. ومظاهر نقمته سهلة التحصيل من مجريات حياته وسيرته، لا بدّ من تفصيلها:

فزواجه من خديجة، وهي امرأة لرجلين قبله، وتكبره نيّفاً وخمس عشرة سنة هو من هذا القبيل. لقد كان له مكان أمّه، فوفّرت له المال والجاه والحنان والكفاية. ولم يكن فقدانُه لأمّه بهيِّنٍ عليه، إذ راح يرى في كل امرأة تكبره قليلاً، أو يشعر منها بعاطفة، كأنّها أمّه. فها هو ينادي « أمَّ أيمن » مثل: « يا أمّاه. وكان إذا نظر إليها قال: هذه بقيّة أهل بيتي »[٤٥]. ويقول عنها: « مَن سرّه أن يتزوّج امرأة من أهل الجنّة، فليتزوّج أمّ أيمن »[٤٦].

وعن فاطمة امرأة عمّه أبي طالب قال عند موتها: « اليوم ماتت أمّي. وكفّنها بقميصه، ونزل على قبرها، واضطجع في لحدها. فقيل له: يا رسول الله! لقد اشتدّ جزعك على فاطمة؟ قال: إنّها كانت أمّي. إنْ كانت لَتُجِيعُ صبيانَها وتُشبعُني، وتُشعّثُهم وتدهنُني. وكانت أمّي »[٤٧].

---

(٤٤) صحيح مسلم ١ / ٧٨، صحيح البخاري ١ / ٣٩، طبقات ١ / ١٩٤، ابن هشام ١ / ٢١٦، الحلبية ١ / ٢٥٨، نهاية الارب ١٦ / ١٧٠...
(٤٥) طبقات ٨ / ٢٢٣. وفي الحلبية ١ / ١٧٢ قال لها: « أنت أمّي بعد أمّي ».
(٤٦) طبقات ابن سعد ٨ / ٢٢٤.
(٤٧) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٤.

وربّما كانت كلّ امرأة تهتمّ به، وتعطف عليه، عرفها سابقاً أم لم يعرفها، كأنّها أمّه. ففي رواية « استأذنتِ امرأةٌ على النبيّ قد كانت ترضعه. فلمّا دخلت عليه قال: أمّي أمّي. وعمد إلى ردائه فبسطه لها فقعدت عليه »[٤٨]. وفي رواية أحرى كان يقول ذلك لأخته في الحضانة اسمها « الشيماء »، إذ كانت ترقصه وتغنّي له بقولها:

هذا أخٌ لم تلدْه أمّي وليس من نسلِ أبي وعميّ
فأنمِهِ اللهمّ فيما تَنمي[٤٩].

وكان كلّ مرّة يمرّ بـ« الأبواء » حيث قبرُ أمِّه، يبكي. ويبكي المسلمون لبكائه[٥٠]. وفي أواخر حياته، فيما هو ذاهب إلى فتح مكّة، مرّ بالأبواء، وجلس قبالة قبر أمّه، وجلس الناس حوله، ثم قام وهو يبكي. فاستقبله عمر فقال: « بأبي أنت وأمّي يا رسول الله! ما الذي أبكاك؟ فقال: هذا قبر أمّي.. ذكرتُها فرَققْت فبكيتُ. فلم يُرَ يوماً كان أكثرَ باكياً من يومئذ »[٥١].

ولم تقلّ حاجةُ محمّد إلى أخ يعضده عن حاجته إلى حنان الأم وعطفها. يُروى أنّه جاء يوماً بيتَ عليّ بن أبي طالب وامرأتِه فاطمة « فاستفتح فخرجتْ إليه أمُ أيمَن فقال: أثمّ أخي؟ قالت: وكيف يكونُ أخوك وقد أنكحتَه ابنتَك؟! فقال: فإنّه كذلك »[٥٢]. وفي حديث آخر قال: « أثمّ أخي! فقالت أمّ أيمن: بأبي أنت وأمّي يا رسولَ الله! مَن أخوك؟ قال: علي بن أبي طالب. قالت: وكيف يكون أخَاك وقد زوّجته ابنتَك؟ قال: هو ذاك يا أمّ أيمن »[٥٣].

---

(٤٩) السيرة الحلبية ١ / ١٦٧.
(٥٠) طبقات ابن سعد ١ / ١١٦.
(٥١) طبقات ابن سعد ١ / ١١٧.
(٥٢) طبقات ابن سعد ٨ / ٢٣.
(٥٣) طبقات ابن سعد ٨ / ٢٤.

وربّما كانت حاجة محمّد إلى الأمّ والأخت أكثر من حاجته إلى الزوجة وكثرة النساء! فزواجه من خديجة بعمر الأربعين، ومن عائشة بعمر التسع سنين، كان من هذا القبيل: تلك عوّضت عليه بالأمّ. وهذه بالأخت. وكان يهمّه جدّاً أن يكون له من بناته بنون، لكي يكون له معهم في حياته بعضُ اللين. فلذلك زوّج بناتِه بعمر مبكّر: فزوّج ابنتَه الكبرى زينب بعمر الثالثة عشرة، لكنّها توفّيت بعد ثماني سنين(٥٤)؛ وزوّج ابنته رقيقة بعمر الثماني سنين، ولم تلد ولداً، وتوفّيت في السنة الأولى للهجرة(٥٥)، وزوّج فاطمة بعمر ثماني عشرة سنة، وماتت بعمر تسعة وعشرين عن أربعة أولاد(٥٦)؛ وزوّج ابنته أمّ كلثوم بعمر ثماني سنين، ثمّ توفّيت في التاسعة بعد الهجرة(٥٧)... ومات له ولدان ذكران أو ثلاثة، في عمر الطفولة..

******

ماذا يعني كلّ ذلك؟ ماذا يعني موت أبيه وهو جنين؟ وماذا يعني موت أمّه وهو دون الثالثة؟ وماذا يعني موت أولاده الذكور عن سنّ مبكّر؟ وموت بناته في ريعان العمر؟ وماذا يعني عدم انجابه البنين رغم تعدّد النساء عنده؟ وماذا يعني تزويجه بناته في سنّ الطفولة؟ وماذا يعني بكاؤه المستمرّ على أمّه، وقد بلغ من العمر باكياً ستين سنة؟ وماذا يعني زواجه من امرأة أرملة لرجلين تكبره خمس عشرة سنة؟ وزواجه من ابنة تصغره خمساً وأربعين سنة؟ وماذا يعني زواجه من أرامل، ومن أرامل فقط؟ ما عدا عائشة؟

---

(٥٤) طبقات ابن سعد ٨ / ٣١.
(٥٥) طبقات ابن سعد ٨ / ٣٤.
(٥٦) طبقات ابن سعد ٨ / ٣٦.
(٥٧) طبقات ابن سعد ٨ / ٢٨.

ما هي أسباب ذلك؟ وما تكون النتائج بحسب علوم الجنس والحياة العاطفية؟ هل بُنْية النبيّ لم تكن سليمة حتى لم ينجب، وإنْ انجب كان انجابه للموت؟ هل أثّرت فيه تلك الأمراض التي أصابته في طفولته فظهرت في حياة بنيه؟ هل تكون العلّة في والدَيهِ اللذين ماتا بمرض خبيث أو بداء سار؟ وهل كل ذلك كان بسبب اضطراب جنسي ؟ أم هو من صفات النبوّة ومستلزماتها؟ الله أعلم.

ولكنّنا نعلم أمراً أكيداً وهو أن يزدادَ النبيّ، بسبب ذلك، نقمةً فوق نقمة، وأن يتفاقم عنده التبرّمُ في الحياة؛ وربّما زاده ذلك خللاً في الأعصاب ونوبات في النخاع وصرعات في الدماغ. وقد استفاضت كتبُ السير في إظهارها. فعمّا تسفر أوضاع كهذه؟ والحقيقة إن لم تكن النقمةُ في نفسه كافيةً لأن تتحوّل إلى ثورة، فإنّ ما في المجتمع المكّي من مفاسد سيعجلُ بها، ويقرّب ساعة الحسم:

فمترفو مكّة يكدّسون الأرزاق، ويوسّعون تجارتهم، ويستغلّون مواسم الحج، ويستفيدون من قدسية الكعبة، ويحرّمون أشهراً لمصلحتهم.. وهم، مع ذلك، لا يكتفون. بل راحوا يظلمون الناس، ويتلاعبون بالموازين والمكاييل، ويأكلون أموال اليتامى ظلماً، ويتعاطون الربا والربح الفاحش، ويسخّرون كل شيء في سبيل مصلحتهم... أمّا الفقراء فقد رآهم محمّد يتضوّرون جوعاً، لا يملكون من خيور الدنيا شيئاً، ولا يصحّ لهم حتى الهواء. ولئن ابتغوا بعض الهناء فيعمدون إلى قتل بناتهم خشية الجوع، وإلى اكراه نسائهم على البغاء خوفاً من الفاقة، وإلى وأد البنات رهبة الحاجة، وإلى قتل الأولاد أو بيعهم عبيداً ورقيقاً أبيض رغبة في لقمة العيش.

لقد رأى محمّد كل هذه التناقضات، وشاهدها بأمّ عينه، وشعر بها في حياته الشخصية، وانفعل لها في صميمه، وانفرط لها قلبه، وآلمته أحاسيسه

الرهيفة.. فماذا ستكون النتيجة إذن؟ نقمة على نقمة، وانتقام لا حدود له، وثورة قد لا تبقي على شيء قائم. مظالم الأرض والمجتمع، كلّها نفذت به إلى أن يعدّ العدّة لثورة عتيدة، إنْ خسر فيها، لا يخسر شيئاً؛ وإنْ ربح، دانت له الجزيرة. وإنْ دعمها بتعاليم سماويّة، خضعت له الدنيا.

وقد يكون التفت محمّد إلى أمثاله، وإلى مَن يُشبهُه ببعضِ حاله، فرأى أن كثيرين مثلَه يتألّمون، وكثيرين يتأفّفون، منهم مَن يستجدي لقمة العيش، ومنهم من يموت جوعاً وعوزاً. وفي كثيرين ابتدأت النقمة ذاتها تفعل فعل في نفوسهم، وتعدّهم للسيطرة على ممتلكات المترفين، والسطر على أموالهم وأرزاقهم بالقوّة والعنف..

وبالفعل، جاء مصلحون قبل محمّد، وقليلاً ما توفّقوا. وجاء متنبّئون عديدون ينذرون بالويل والثبور، حاولوا إصلاح الفساد فلم يفلحوا... أيكون هو منهم فيفشل؟ أم يستعدّ لحملته، وثورتِه استعداداً أكمل؟ إلاّ أنّ واحداً من هؤلاء لم يكن بمثل حاله. فهو في قمّة البؤس والحرمان. وهو يعرف الأوضاع بمجملها وتمامها: شعر بها، وعاشها، وعملت فيه عملها. ثمّ إنّه ابن قريش البطاح، وحفيد زعيم مكّة، وربيب القسّ ورقة، وزوج الثريّة خديجة، وصديق أبي بكر الخبير الأنساب وأحوال مكّة. وهو بالتالي في « مِنعَةٍ مِن قومه »... فلا بدّ له إذن من النجاح.

وزاد في امكانيّة نجاحِه تعرُّفه العميقُ على المأجورين، وشعورُه في الصميم بأحوال اليتامى وأبناء السبيل والمساكين. فخالطهم في رحلاته، واطّلع على أحوالهم البائسة عن كثب، وسمع شكواهم المريرة، وسجّل في ذاكرته أحاديثهم، وفكّر في عقله الثاقب بأسباب شقائهم، وعرف لدقة ملاحظاته ما كان يجول في خاطرهم.. فازداد نقمة على نقمة. وقرّر النجدة.. ولكن لا بدّ أيضاً من اعداد العدّة لهذا القرار الخطير.

رابعَاً: القَرَار الخَطير

لقد قرّر محمّد الاصلاح. وكل شيء عنده معدّ له. وهو في وضع يجعله يستطيع القرار، ويكفل لقراره النجاح. والاصلاح يكون على صعيدين لا محالة: صعيد العلم وصعيد العمل. ولم ينقصه من العلم شيء، فالقسّ ورقة بقربه، ينقل « الإنجيل العبراني »، وهو إنجيل « الإبيونيين » أصحاب عقيدة أعمال البرّ والاحسان والصدقات مع كل صاحب حاجة. ولم ينقصه من القدرة على العمل شيء، فهو حفيد عبد المطلب وزوج خديجة التي يعدل غناها نصف غنى قريش، وهي امرأة نافذة في قومها، قديرة على ما تريد، تتحكّم بالرجال كما تتحكّم بالمال.

بيد أنّ هذا القرار الخطير لم يكن بدون صراع في نفس محمّد. وربما تردّد كثيراً. ولم يتّخذه بسهولة ورضا. والحقيقة كانت كذلك: فمحمّد، ولئن كان فقيراً ويتيماً وضالاً، إلاّ أنّه أصبح، في ظلّ خديجة، ميسوراً وصاحب ثروة. فهل يقرّر إذن، بعد الذي أصبح عليه من غنى، ضربَ الأغنياء ونصرةَ المساكين؟ أم يقرّر نصرةَ الأغنياء وارضاءَ المساكين كيفما كان؟ هل يريد الثورة لأجل الثروة؟ وها هي الثروة تأتيه بدون ثورة! هل كان يريد أن يصبح تاجراً وربّ عمل، بعد ان كان مأجوراً ومستخدماً؟ فها هو، بأموال خديجة، يعدل نصف تجارة قريش! فما العمل إذن: أينصر الأغنياءَ على الفقراء، وقد أصبح مثلهم! أم ينصر الفقراءَ على الأغنياء، وقد كان منهم؟ إنّه في الواقع صراع حقيقي في نفس النبيّ.

ولكن، كما يبدو، لم يتأخّر محمّد في اتّخاذ قراره النهائي. فجمع حوله « أذلّة » مكّة، ووعدهم برفع مستوى الحياة عندهم. فاستجاب معظمهم. ودعم

استجابتهم بتعاليم « إبيونية » كفل بها دعوته وصوابيّتها. فاستهوى أتباعَه صدقُ سيرته، وعظمُ تعاليمه، ومحبّتُه لهم، ونجدتُه ايّاهم، وأمانتُه في العمل، وحسنُ تدبيره. فتحمّسوا له، وتجمّعوا حوله، وجاهدوا معه، وتبعوه. وبدأت بذلك طريقُهم إلى الثورة. فكانت خطوات محمّد الأولى موفّقة وصائبة صوّبت معها سائر خطوات الدعوة.

******

وكان وراء هذا القرار الخطير أشخاصٌ خطيرون ثلاثة: القسّ ورقة بن نوفل، وخديجة بنت خويلد، وأبو طالب بن عبد المطّلب. الأوّل منظِّر الحركة، والثاني ممّولُها، والثالث داعمٌ ومساند. وَرَقَة هيّأ التعاليم، وخديجة أعدّت المال، وأبو طالب دعم بنفوذه ومقامه. ولم تبخل علينا كتبُ السيرة عمّا كان عليه الثلاثة، إلى درجة أنّهم عندما توفّوا حزن محمّد، وانقطع عنه العون و « الوحي ». ودعيت سنة وفاتهم، بالنسبة إلى النبي، بـ« عام الحزن »:

بموت القس ورقة « فتر الوحي »[٥٨].

وبموت خديجة « تتابعت على رسول الله المصائب، إذ كانت له وزيرَ صدق على الإسلام، يشكو إليها »[٥٩]. هي التي « آمنت به، وصدّقت بما جاء، من الله، ووازرته على أمره، وكانت أوّلَ مَن آمن بالله وبرسوله، وصدّق بما جاء منه. فخفّف الله بذلك عن نبيّه، لا يسمع شيئاً ممّا يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلاّ فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها. تثبّته وتخفّف عليه وتُصدِّقه، وتهوّن عليه أمر الناس »[٦٠].

---

(٥٨) صحيح البخاري بشرح الكرماني ١ / ٣٨.
(٥٩) سيرة ابن هشام ٢ / ٤٥.
(٦٠) المرجع نفسه، ١ / ٢٢٤.

وبموت أبي طالب « نالت قريش من رسول الله من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب.. إذ كان أبو طالب لابن أخيه عضداً وحرزاً في أمره ومنعة ونصراً على قومه »[٦١].

******

ثمّ إنّه كان لمحمّد الذكاء الكافي لاستمالة الناس إليه: فهو يعرف مع من يجب أن يبتدئ، ومع أيّة فئة يستطيع أن يعمل ليكفل لثورته وتعاليمه النصر والنجاح. وكان يعرف أيضاً بأي أسلوب يتكلّم ليؤثّر فيهم، وبأيّة لغة يتحدّث عن قضايا هامّة، وبأي تعبير يواجه معضلة اجتماعية جليلة.. فأسلوبه كان في بدايته، وباتّفاق الجميع أسلوباً مفصّلاً، صارماً، يتحدّث عن أمور الجنّة والنار في سبيل الدعوة إلى الأخلاق والاصلاح والعناية الفائقة باليتامى والمساكين، أي في معرض المطالبة باصلاح اجتماعي شامل.

وهذا هو معنى ما جاء على لسان عائشة. قالت: « في أوّل القرآن يَذكُر الجنّة والنار. ولمّا دخلَ الناسُ في الإسلام جاء ذكرُ الحلال والحرام ». وبهذا المعنى تحدّث السيوطي في قوله: « لم يكن بمكّة حَدٌّ، أي تشريع، ولا نحوه ». ونقل عن الجعبرى قوله: « كل سورة فيها فريضة أو حدّ فهي مدنيّة »[٦٢]. وفي ذلك أيضاً قال سيّد قطب، أحد مفسّري القرآن المعاصرين: « وإنّنا لننظر فلا نجد فيها (السور المكية) إلاّ القليلَ من تلك الأغراض التي يراها بعضُ الباحثين أكبر مزايا القرآن.. لا نجد علوما كونية في هذه السور على وجه الاجمال. وكذلك لا نجد التشريع، ولا نجد النبوءات »[٦٣]. وهذا

---

(٦١) سيرة ابن هشام ٢ / ٤٥ ـ ٤٦.
(٦٢) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ١٨.
(٦٣) سيّد قطب، التصوير الفنّي في القرآن، ص ٢١.

ما حمل جولدتسيهر إلى القول: « محمّد لم يبشّر بجديد من الأفكار، كما لم يمدّنا أيضاً بجديد في ما يتّصل بعلاقة الإنسان بما هُو فوق حسّه وشعوره وباللانهاية »[٦٤].

فتعاليم محمّد الأولى كانت في اصلاح مجتمع فاسد، في محاربة الغنى والأغنياء، في محبّة الفقراء والمساكين، في ابطال الظلم اللاحق باليتامى والأرامل، في وعده للمحسنين بالجنّة، وفي محاربة الماديّة في التجارة والافتخار بكثرة المال والأولاد.. كلّ ذلك كان يحدّ من ذكر الله واقامة الصلاة والتأمّل بالحساب والعقاب.. ولم يكن محمّد، في بدايته، يعي بأنّه نبيّ، أو رسولٌ من لدن الله. بل كان يعي تماماً بأنّه جاء ليصلح مجتمعاً فاسداً في كل شيء. وبصلاح المجتمع تصلح العبادة والصلاة ويرسخ الإيمان، ويقوم الصراط المستقيم.. ولكن، كانت له الجرأة بفرضه تعاليم اجتماعيّة وكأنّها دين منزل، وتكلّم بحماس كأنّ كلماته وحي نبويّ.

ولذلك كان معظم الذين اتّبعوه في البداية من الفقراء والأذلّة. أمّا الأغنياء الأعزّة فاحتقروا كلامه، وأعرضوا عن تعاليمه، وعيّروه بأصحابه الذين استجابوا له، بأنّهم « أذلّة » و « أراذل ». فقالوا له، كما قيل لنوح من قبل: « أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون »[٦٥]؟ أو قولهم: « وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا »[٦٦] ... واعترف محمّد يوماً بأنّ الذين اتّبعوه هم بالفعل كذلك، فقالها مرّة لأصحابه بعدَ معركة بَدْر: « لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة »[٦٧]. ولذلك سخر الأعزّة منه ومن تابعيه، وقد أشار هو نفسه إلى ذلك بقوله: « زُيِّنَ للذين كفروا الحياةَ الدنيا، ويَسخرُون من الذين

---

(٦٤) جولدتسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١١.
(٦٥) القرآن ٢٦ / ١١١.
(٦٦) القرآن ١١ / ٢٧.
(٦٧) القرآن ٣ / ١٢٣.

آمنوا »[٦٨]. وأيضاً كذّبوه واستهزأوا به، فقال أيضاً: « وما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزئون »[٦٩]. وغير ذلك اشارات قرآنية عديدة[٧٠].

وسرعان ما شعر هؤلاء الأعزّة بقوّة دعوة محمّد، وبالخطر يحدق بهم، وبمقاصد الثوّار في قطع طرق التجارة والرزق عليهم. وأحسّوا أنّ محمّداً سوف يخرجهم من مكّة، ويؤلّب « المساكين » عليهم. فقاوموه، وهمّوا بقتله، أو باخراجه من مدينتهم. وأشار القرآن إلى تهديدهم هذا بقوله: « واذ يمكُر بك الذين كفروا لِيُثْبِتوك (يوثقوك ويحسبوك) أو يقتلوك، أو يُخرجوك، ويمكرون. ويمكر الله، والله خير الماكرين »[٧١].. إلاّ أنّ محمّداً علم بنيّاتهم، فأشار إلى صحبه أن يتركوا مكّة. فتركوها أوّلاً، وثانياً إلى الحبشة، وثالثاً إلى الطائف، وأخيراً إلى يثرب.. وفي يثرب، حيث له أقرباء ومناصرون، رأى أنّ الثورة تستطيع أن تبتدئ من هناك. فذهب إليها. واشتعلت الثورة. وانقلب كلّ شيء في تاريخ الجزيرة والشرق[٧٢].

وقبل أن نتوقّف على تعاليم محمّد الاصلاحيّة، وهو موضوع الفصل التالي، نكمّل سيرته مع أعزّة مكّة. وندخل في عنف ثورته عليهم. ونتوقّف على نتائجها بعد أن تأكّد نجاحُها.

---

(٦٨) القرآن ٢ / ٢١٢.
(٦٩) القرآن ١٥ / ١١.
(٧٠) انظر في القرآن: ٢ / ١٤، ٤ / ١٤٠، ٦ / ١٠، ١٣ / ٣٢، ٢١ / ٤١، ٤٣ / ٧، ٣٦ / ٣٠، ٢٦ / ٦..
(٧١) القرآن ٨ / ٣٠.
(٧٢) يبدأ المسلمون تاريخهم بالهجرة من مكّة إلى المدينة، وذلك لأهميّة هذه الفترة عند النبي الذي عرف اختيار المكان المناسب لاشتعال النار.

خامسَاً: ثَوْرَة حَتّى النَصر

في بداية القرن السابع للميلاد، أصبحت الثروة في مكّة بأيدي قلّة من الناس. وفشى الفقر في الكثيرين. وأصبح العداء بين طبقتي المجتمع مستحكماً. « وبقاء أيّ منهما يعتمد على فناء الآخر.. وعلى كل طرف أن يصفّي الطرف الآخر.. وعلى الرسول أن يقوم بثورة شاملة مستخدماً سلاح العنف الثوري لمواجهة العنف الرجعي.. وكانت أخطر المهمّات أمام الرسول هي مهمّة الاعداد للثورة، والتخطيط لها، وتنظيمها، ورسم استراتيجيّتها، وتحديد اطارات حركتها »(٧٣)، واختيار قاعدتها، وتعيين مركزها الرئيس، إذ « وجد الرسول أن لا مفرّ من خوض غمار نضال مسلّح »(٧٤).

لقد حاول محمّد ايجاد هذه القاعدة في مكّة. ولكنّ القوى المعادية كانت أعظم من أن يكون له ذلك. فاضطهدته مكّة، فهاجر أصحابه إلى الحبشة. ولكنّه لم ييأس. ثم أكمل نضاله. وأكملت مكّة أيضاً اضطهادها له. فهاجر ثانية إلى الحبشة. ولم ييأس.. ثم عاد وضاعف نشاطه، ورأى أن يترك مكّة إلى الطائف لأنّ في الطائف محرومين كثيرين، قد يمدّون له يد المساعدة. ولكنّ الطائف خذلته. وباء سعيه فيها بالفشل. و « اكتشف أنّها لا يمكن أن تصلح قاعدة ثوريّة، نظراً للعلاقات الوثيقة التي تربط بين تجّارها وتجّار مكّة. كما أنّها من الناحية الجغرافية لا تبعد عن مكّة ـ مركز القوى المعادية ـ إلاّ بحوالي ٤٠ ميلاً إلى الشرق. وهذه المسافة القصيرة تجعلها غير مأمونة، إذ يمكن لقريش

---

(٧٣) حسنين كرّوم، نظرية الثورة والتنظيم في كتاب محمّد. نظرة عصرية جديدة، ص ١٧١ و١٧٢.
(٧٤) حسنين كرّوم، المرجع نفسه، ص ١٧٥.

مهاجمتها باستمرار، وتجريد الحملات عليها بكثرة نظرا لقربها »[٧٥].

ورجع الرسول إلى مكّة، واعتكف في بيته، يبحث عن مركز آخر. فكانت يثرب. وكان ذلك لأسباب عدّة: منها أن يثرب بلدة غنيّة، وتتيح امكانيّات كبيرة من الناحية الماديّة. كما أنّها تبعد عن مكّة بحوالي ٢٥٠ ميلاً، أي أنّها ستكون في مأمن من الهجمات المتتالية والمفاجئة من مكّة.. ثمّ أنّ يثرب تسيطر على طرق تجارة مكة مع الشام من جهة الشمال، وهذا يعطي فرصة لتسديد ضربة قاتلة إلى مكة التي تعتمد على التجارة وقوافلها. وفي نفس الوقت فإنّ موقع يثرب يتيح فرصاً واسعة لشنّ الغارات في اتّجاهات متعدّدة، ويتيح فرصاً واسعة بالتالي للسيطرة على القبائل المجاورة لها[٧٦].

ولمحمّد، في يثرب، معارف وأقرباء، أنصار وأصدقاء. فأمّه « آمنة » من بني النجّار من يثرب. وأخواله لا يزالون هناك. وقد زارهم مراراً، وتعرّف عليهم وعلى مدينتهم. وأمّه توفّيت بـ« الأبواء » بالقرب منها. وكان، كل مرّة يمرّ بيثرب للمتاجرة، يزور قبرها ويبكي. فوُجد عنده ما يشدّه إليها... وفي مكان آخر يسمّى « العقبة »، اجتمع محمّد مع أنصاره مرّة ومرّتين، وكانوا كثيرين، وبايعوه، سرّاً، وهم من مختلف بطون المدينة[٧٧]. وكذلك أيضاً، وممّا ساعد محمّداً لاختيار يثرب، وَهَنُ مجتمعها، واختلافاتٌ عميقة فيما بين الأوس والخزرج، واحتكارُ اليهود لخيرات القبائل، وبغضُهم لهم. واليهود خيرهم كثير وجبنهم أكثر. وقد يقدر محمّد عليهم، ويبدأ ثورته بهم.

استقرّ الرأي إذن على يثرب. فبعث محمّد أصحابه إليها. ووعدهم بالنصر، لأنّهم أصحاب حقّ. والمستضعَفون أمثالهم لا بدّ من أن يرثوا

---

(٧٥) المرجع نفسه، ص ١٧٧.
(٧٦) المرجع نفسه، ص ١٧٨.
(٧٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى ١ / ٢١٩ ـ ٢٢٣.

الأرض وما عليها. ألم يقل في قرآنه: « ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمّة، ونجعلهم الوارثين »[٧٨]. وأيضاً: « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها »[٧٩]. ولدفعهم وحماسهم، وَعَدَهم بمغانم كثيرة قد يحصلون عليها. قال: « ووعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها »[٨٠]. وقال أيضاً: « عند الله مغانم كثيرة »[٨١]، و « مغانم كثيرة يأخذونها »[٨٢]. ثم وعدهم بأمل القضاء النهائي على أصحاب المال الذين يأكلون من أمامهم كل شيء، وذلك « كي لا يكون دولة بين الأغنياء »[٨٣].

******

ومن يتفحّص كتب السير والأخبار يجد أن حرب محمّد ضدّ قريش لم تكن لأجل هدايتهم إلى الإيمان، بقدر ما كانت ضدّ ثرائهم غير المشروع. لقد كانت ثورته من أجل الحياة، من أجل رفع مستوى العيش عند « أذلّة مكّة ومحروميها. فغزواته كلّها كانت، في الواقع، لأجل منافع ماديّة، ولأجل ضرب المترفين. ولم يكن اعتراضه لقوافل قريش التجاريّة جهاداً في سبيل الله، بقدر ما كان لأجل « العِير » والسطو على أموالها وبضائعها. ولم تكن حربه ضدّ يهود يثرب لإلاّ لأجل سلبهم أموالهم الباطلة. وقريش نفسها، بما عُرف عن تسامحها الديني، كما نرى بعد حين، لم تحارب النبيّ لأجل دعوته إلى إله لم يعرفوه، أو دين جديد. والدليل على ما نقول نأخذه من المؤرّخين المسلمين أنفسهم. فها نحن ننقل عنهم ما جاء عندهم:

(٧٨) القرآن ٢٨ / ٥.
(٧٩) القرآن ٥٩ / ٧.
(٨٠) القرآن ٤٨ / ٢٠.
(٨١) القرآن ٤ / ٩٤.
(٨٢) القرآن ٤٨ / ١٩.
(٨٣) القرآن ٥٩ / ٧.

خرج رسول الله غازياً حتى بلغ وَدَّان « يعترض عِيراً لقريش »[٨٤]. ثمّ خرج في غزوة بُواط « يريد عِيراً لقريش فيها أميّة بن خلف وألفان وخمسمائة بعير »[٨٥]. وبعدها غزا العَشيرة « يريد عِيراً لقريش متوجّهة إلى الشام. يقال أن قريشاً جمعت جميع أموالها في تلك العير. ويقال أنّ في تلك العير خمسين ألف دينار وألف بعير.. ولم يبق بمكّة لا قرشيّ له مثقال فصاعدا إلاّ بعث به في تلك العير »[٨٦].

ومرّة أمر الرسول سعد بن أبي وقّاص يقول له: « أخرج يا سعد حتى تبلغ الخرّار، فإنّ عِيراً لقريش ستمرّ به »[٨٧]. وغزا الرسول بنفسه « حتى بلغ الأبواء، يعترض لعِيرِ قريش »[٨٨]. وفي سريّة نخلة دعا الرسول عبد الله ابن جحش يقول له: « سر حتى تأتي بطنَ نخلة.. فترصّد بها عِيرَ قريش »[٨٩].

ثم خرج النبيّ وصحبه في غزوة بدر الكبرى طالباً عير قريش « ووجدها سبقته بأيّام. ولم يزل مترقّباً قفولَها. فلمّا سمع بقفولها من الشام ندب المسلمين (أي دعاهم) وقال: « هذه عير قريش، فيها أموالهم. فاخرجوا إليها. لعلّ الله أن ينفلكموها (أي يدفعها إليكم). فانتدب الناس (أي استجابوا). ثم جمع الرسول أصحابه ودعا لهم قائلاً: اللهم! إنّهم حفاة فاحملهم، وعراة فاكسهم، وجياع فاشبعهم. وما منهم رجل إلاّ رجع بجمل أو جملين. واكتسوا، وشبعوا بما أصابوه »[٩٠].

---

(٨٤) طبقات ٢ / ٦، ابن هشام ٢ / ١٧٠، الواقدي ١ / ٢ و٩، الحلبيّة ٢ / ٣٤٧.
(٨٥) ابن هشام ٢ / ١٧٦، الواقدي ١ / ٢ و١٢، الطبري ٢ / ٤٠٧، حلبية ٣٤٨.
(٨٦) ابن هشام ٢ / ١٧٦، واقدي ١ / ٢، طبقات ٢ / ١٠، طبري ٢ / ٤٠٨...
(٨٧) الواقدي ١ / ١١، طبقات ٢ / ٧.
(٨٨) الواقدي ١ / ١٢.
(٨٩) طبقات ٢ / ١٠ ـ ١١، الواقدي ١ / ١٣ ـ ١٤.
(٩٠) طبقات ٢ / ١١، واقدي ١ / ١٩، ابن الأثير ٢ / ١١٦، ابن هشام ٢ / ١٨٢...

وفي غزوة بني قينقاع ـ وهم أكثر اليهود مالاً ـ سار محمّد إليهم وحاصرهم وأخذ أموالهم وسلاحهم وجلاهم عن المدينة[٩١]. وفي قراقر، سار محمّد إلى بني غطفان، ووجد عندهم خمسمائة بعير، فحازها وخصّ كلاً من أصحابه ببعيرين[٩٢]. وفي غزوة بني النضير، أمر رسول الله بقطع النخيل، وبحرقها، قصد إنزال الفقر والفاقة في اليهود. فناداه أصحابه: يا محمّد! قد كنت تنهي عن الفساد، فما بالُ قَطْعِ النخل وتحريقها ؟!!! فأنزل الله آية تبرّر فعله: « ما قطعتم من لِينَةٍ (نخلة) أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذنِ الله »[٩٣]. وخرج اليهود من مدينتهم وسكن الخراب بيوتهم[٩٤].

وفي غزوة دومة الجندل « هجم الرسول على ماشيتهم وعلى رعاتهم. فأصاب من أصاب. وهرب من هرب. وأخذ منهم رجلاً وسأله عنهم، فقال: هربوا حيث سمعوا أنّك أخذتَ نِعَمَهُم »[٩٥]. وفي غزوة المصطلق « استاق الرسول إبلَهم وشياهَهم. فكانت الابل ألفي بعير والشاء خمسة آلاف شاة وغير ذلك. وقسم المغانم على أصحابه »[٩٦]. وكذلك في خَيبَر فقد قطع النبيّ نخيلها، فوقع المسلمون في قطعها حتى قطعوا أربعمائة نخلة، وقطعوا عنها الماء والشرب، ونبشوا الخِرَب في سبيل الكنوز المدفونة، وظفروا بمغانم باهظة[٩٧]. وقبل الزحف على مؤتة صلّى الرسول لأصحابه قائلاً: « دفع الله عنكم وردّكم غانمين »[٩٨].

(٩١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٣٨، الحلبية ٢ / ٢١٧ ـ ٢٢٠.
(٩٢) طبقات ابن سعد ٢ / ٣١، الحلبية ٢ / ٤٨٠.
(٩٣) القرآن ٥٩ / ٥.
(٩٤) السيرة الحلبية ٢ / ٢٢٧ ـ ٢٨٣.
(٩٥) الحلبية ٣ / ١٢١ ـ ١٣١، النعم أي الابل.
(٩٦) طبري ١ / ١٢٦٥، طبقات ٢ / ١، ابن الأثير ١ / ٢٣١، عيني ٢ / ٥١٩.
(٩٧) تاريخ اليعقوبي ٧٠ ـ ٧١.
(٩٨) المرجع نفسه.

وفي حُنين أتاه رجل يقول له: « فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونِعَمِهم وشَبَابِهم اجتمعوا إلى حُنين ». فتبسّم محمّد وقال: « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله ». فأجمع أمرَ السيرِ إلى هوازن، وخرج أهلُ مكّة ركباناً ومشاة حتى النساء يمشِينَ على غير وَهَن يَرجون المغانم. وأمر رسول الله بالسبي والغنائم أن تُجمع. فكان السبي ستةَ آلاف رأس والإبل أربعة وعشرين ألفا والغنم أكثر من أربعين ألفاً وأربعة آلاف أوقيّة فضة »[٩٩].

وبعد انهزام هوازن في حنين توجّه رسول الله إليهم إلى الطائف، وأمر وهو في طريقه إليهم أن يهدم كل حصن، ويحرق كل بستان، وينبش كل قبر. وأمر بقطع الأعناب والنخيل وتحريقها. فقطع المسلمون قطعاً ذريعاً[١٠٠]. ومن تبّوك « ظفر المسلمون بالغنائم والسبايا »[١٠١].

******

هذه السيرة الغانمة تدعمها أحاديث نبويّة صريحة. قال الرسول: « أغزوا تستغنوا »[١٠٢]. لقد « أحلّ (الله) لنا الغنائم »[١٠٣]، و « أحلّت لأمّتي الغنائم »[١٠٤]، وأيضاً: « وأحلّت لكم الغنائم »[١٠٥]، و « أحلّت لي الغنائم »[١٠٦]. وقد شهد المسلمون أنفسهم على ما غنموه، فأعلمونا بذلك

(٩٩) الحلبية ٣ / ١٣١ ـ ١٤٧.
(١٠٠) المرجع نفسه.
(١٠١) المرجع نفسه.
(١٠٢) حنبل ٢ / ٣٨٠.
(١٠٣) حنبل ٥ / ٢٤٨، ١ / ٣٠ و٣٣، داود، جهاد، ١٢١.
(١٠٤) حنبل ٥ / ٢٥٦، بخارى، خمس ٨، ترمذى، سير ٥.
(١٠٥) صحيح البخاري، باب الخمس ٨.
(١٠٦) بخارى، يتم ١، دارمي، صلاة ١١١، سير ٢٩، حنبل ١ / ٣٥١، ٢ / ٤١٢، ٣ / ٣٠٤، ٤ / ٤١٦، ٥ / ١٤٥، ١٤٨..

قائلين: « وغنمنا المتاع والطعام والثياب »[١٠٧]، و « غنمنا البقر والابل »[١٠٨]، و « غنمنا غنائم كثيرة »[١٠٩]. ويختصرون لنا جهادهم: « فغزونا فسلمنا وغنمنا »[١١٠]. وكل مرّة كانوا يحدّدون لنا موقف الرسول بقولهم: « فقفل رسول الله (ص) وأصحابه منصورين غانمين »[١١١]. ويعطوننا مفهوماً جديداً للشهادة والموت في سبيل الله فينقلون لنا عن لسان النبي قوله: « فإنّ الرجل يقاتل ليغنم. ويقاتل ليغنم »[١١٢]... وغير ذلك من تعاليم وغنائم كان قد قرّرها القرآن وأثبتناها في محلّها.

******

هذه هي سيرة الرسول بأمّها وأبيها: جهاد وثورة في سبيل الثروة. لكأنّها ثروة حتى النصر. فجميع غزواته وسراياه، وقد بلغت التسعين، أي بمعدّل عشر غزوات في السنة، كانت، على ما نقرأ في كتب النبوّة، مغانم بمغانم، وأسرى، وسبايا، وأموال. ثم تدمير لقرى أعدائه، وتقطيع شجرهم، وتحريق ممتلكاتهم، ونهب عيرهم، وتفجير بيوتهم، وتهجيرهم... وكلّها حلال في سبيل الجائعين.

---

(١٠٧) صحيح مسلم، باب الإيمان ١٨٣.
(١٠٨) صحيح البخاري، باب المغازي ٣٨.
(١٠٩) صحيح مسلم، باب المساقاة ٨٠.
(١١٠) ابن حنبل ٥ / ٢٤٨ ـ ٢٤٩، ٢٥٥، ٢٥٨.
(١١١) صحيح البخاري، باب الأدب، ١١٥.
(١١٢) ابن حنبل ١ / ٤١٦، داود، جهاد ٢٤، نسائي، جهاد ٢١.

خَاتِمَة الفَصْل الخَامِس

بعد الذي رأينا يبقى لدينا سؤال واحد هامّ: لماذا اضطهدتْ قريش محمّداً؟ أبسبب دعوته إلى دين توحيديّ جديد؟ أم بسبب دعوة إلى إصلاح اجتماعيّ شامل؟ يُجمع المسلمون على القول بالسبب الديني، دون أن يتحمّسوا كثيراً للسبب الاجتماعي. وصفة قريش عندهم هي الكفر بالدعوة الدينية حتى لقّبوهم بـ« قريش الكفّار ». واتُّخذوا بكلمة أبي جهل على محمّد: « لقد جاء محمّد ليسفّه آلهتنا ». واعتبروا أنّ هجرتَي النبيّ إلى الحبشة، وهجرتَه إلى يثرب، إنّما حصلت بسبب كفر قريش. وظنّوا أنّ دعوة محمّد إلى التوحيد، ونبذ الأصنام، وتبشيره بالإسلام الحنيف.. كانت سبباً لعذابه وعذاب صحبته.

والحقيقة تقال: لا النبيّ دعا إلى دين جديد، ولا قريش كانوا كافرين ولا هجراته كانت بسبب الإسلام والقرآن والنبوّة، ولا عذاباته كانت بسبب تعاليمه التوحيديّة... ولا النبيّ كان يلاحقهم بسبب دعوة دينية جديدة.. والدليل على ذلك لا يحتمل شكّاً:

لقد عُرف أهلُ قريش بالتساهل الديني، وببعدِهم عن التعصّب في ما يخص الشؤون الدينية: لقد تحالفوا مع بني غسّان المسيحيين(١١٣)، وأنزلوهم في جوار الكعبة، أي في أقدس بقعة من مكّة(١١٤). وسمحوا لكل غريب عنهم بأن يحجّ إلى بيت الله، ويتمتّع بحقوقهم، وسمحوا له بالجلوس إلى جنب شيوخ مكّة(١١٥)، واستقبلوا كل طارئ عليهم، كما حدث لهم

---

(١١٣) أسد الغابة ٥ / ١٥، الأزرقي ٤٦٦.
(١١٤) الأزرقي ٤٥٨، ٤٦٠.
(١١٥) الأزرقي ٤٦٥، رسائل الجاحظ ٦ حيث لبعض الأجانب حقوق قريش.

مع الموحّدين الهاربين من يثرب، في وقعة أحُد، عندما هرب أبو عامر الراهب ورفاقُه من النصارى[١١٦].. هذا مع ميلهم إلى السلم والهدوء، ومجانبة الحرب والتعصّب.. ومع قبولهم بكل من يحجّ إلى الكعبة مهما كانت عقيدته الدينية[١١٧].

أضف إلى ذلك أنّ الكعبة لم تكن، حتى عهد النبيّ، تنتمي إلى إله معيّن معروف. وليس ما يكشف لنا عن شخصيّة ذاك الإله الذي طالما دعاه القرشيّون بـ« ربّ البيت »، و « ربّ الكعبة ».. ثمّ أنّ الجميع كانوا يحجّون إلى الكعبة، وذلك بسبب انفتاح الكعبة، واتّساع تجارة مكّة، وانتفاع أهلها من تبادل السلع على أنواعها ومن مختلف مصادرها.. « ولم تُعَمَّدِ الكعبة بعصبيتها الإسلاميّة، إلاّ في العصور العبّاسيّة اللاحقة »[١١٨].

والنصارى أنفسهم لم يكونوا « يُحرمون من إقامة عباداتهم في قلب الكعبة، وبذلك كانوا « في حلّ من الاشراك ».. وهذا موقف مؤرّخي السِيَر المسلمين أنفسِهم في اهتمامهم بشأن « الحنيفيين »، وتخليصهم إيّاهم من الشرك، مع تعلّقهم بديانة الكعبة، وتعصّبهم للإسلام. ولماذا لا يكون موقف النصارى مشابهاً إذن لموقف « الحنيفيين » بالنظر إلى هيكل مكّة؟! « إنّ كثيراً من النصارى كانوا في تساهلهم العجيب، يوفّقون بين عقائدهم التوحيدية واكرام الكعبة وغيرها من أماكن العبادة »[١١٩].

لهذا « لا يمكن أن يُدَلَّ دلالةً واضحة على التعصّب الجنسي والديني بين العرب، إلاّ بعد انتشار مذاهب التفسير القرآني، وعمل أئمّة التحليل

---

(١١٦) سيرة ابن هشام ٥٦١ ـ ٥٦٢.
(١١٧) ابن الأثير، النهاية ٤ / ١٩٤.
(١١٨) الذهبي، ميزان الاعتدال ٢ / ١١٢.
(١١٩) ابن الأثير، النهاية ٤ / ١٩٤.

والتحريم المثقّفين على طريقة أرباب التلمود »[١٢٠].. « هذا ولم يكن من إحراج في شأن الدين، فإنّ النظام القرشي، والساهرين على تنفيذه من أعضاء « الملأ »، كان من أبغض الأمور لديهم التدخّلُ في معتقدات الناس أو الضغطُ على آراء الغير. ذلك انّ العربيّ، إذا ما تُرِك لطبيعته، كان أقرب ما يكون إلى التساهل، متّخذاً شعاره، قبل زمن القرآن، أن « لا اكراه في الدين »[١٢١]، متوصّلاً إلى قمّة التساهل بفضل نزعته الخاصّة، وما فطر عليه من عدم مبالاة وقلّة تقوى »[١٢٢]. ولم يكن لقريش كبيرُ فضلٍ في تساهلهم الديني هذا، فالرسول نفسُه أخذ عنهم هذا التساهل، وعبّر عنه بقوله لمخالفيه: « لكم دينكم ولي ديني »[١٢٣].

فإذا لم تكن مقاومةُ قريش لمحمّد مقاومةً دينية، فماذا تكون إذن؟ الحقّ يقال: إنّ « الداعية الجديد لم يختصّ بدعوة دينية محضة. بل كان يرمي، كما يقول مناوئوه، إلى أهداف اجتماعيّة كان من شأنها قلقلةُ النظام السائد إذ ذاك، و « تفريقُ الجماعة »، على قولهم »[١٢٤]. ولم تكن تهمة كهذه ألصقت بأحد قبل ذاك العهد[١٢٥].

والنتيجة الحتميّة إذن هي أنّ تكفيرَ قريش لمحمّد لم يكن بسبب دعوته إلى دين جديد، بقدر ما كان بسبب دعوته إلى إصلاح مجتمع مكّة الرديء. وإن أردنا أن نكون أكثر دقّة في الكلام، نقول: إنّ الجوع والحرمان والفقر والذلّ وحالات اليتم والعوز.. كانت سبباً كافياً وجوهرياً لانتفاضة محمّد، ومن كان معه ووراءه. وتعاليمه في القرآن خير دليل.

---

(١٢٠) لامنس، النصارى في مكة قبل الهجرة، المشرق ٣٥ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.
(١٢١) سورة البقرة ٢ / ٢٥٧.
(١٢٢) لامنس، المرجع السابق، ص ٢٨٢.
(١٢٣) سورة الكافرين ١٠٩ / ٦.
(١٢٤) ابن هشام ٢٢٥، لامنس، هل كان محمّد صادقا؟ (بالفرنسية) ص ١٢٨.
(١٢٥) ابن الأثير ٤ / ١٩٤، لامنس، النصارى في مكة..، ص ٢٧٨.

الفَصْل السَادِس
تعَالِيم محَمَّد الاجتماعيَّة

مقدمَّة

أولاً : الصَدقَة والزَّكاة

ثانيَاً : اليَتَامى اليَتَامى...

ثالثَاً : الجَنَّة جزَاء المحْسِنين

رابعَاً : السور المكَّيَّة الأولى

خَاتِمَة الفَصْل السَادِس

مقَدَّمة

لقد عظم على محمّد أن يكون منتصراً في غزواته دون أن يكون له تعاليم تدعم انتصارَه العظيم. لهذا قرّر أن تكون له آياتٌ بيّناتٌ في إصلاح المجتمع، وأن تكون له انتصارات في مجالِ تفصيلِ الأحكام، وسنِّ الشرائع، ووضعِ دستورٍ يمنع فيه ما يمنع، ويحلّل ما يريد تحليله. ولن تذهب تربيتُه التي تلقّاها في بيت جدّه، وفي كفالة عمّه، سُدىً. ولم يفوّت الفرصةَ عليه، وهو في رعاية القسّ ورقة « الإبيوني » من أن يستفيدَ من نقلهِ « الإنجيل العبراني » وما فيه من تعاليم في الصدقة والإحسان والعدالة والمساواة. فكان له ما أراد.

في الواقع انّنا لا نجد، في القرآن المكّي، أيّةَ عقيدة جديدة لم يعرفها أهلُ قريش. ولا نجد أيّةَ شريعةٍ جديدة، أو دينٍ جديد، بتعاليمه أو بطريقته. و « كذلك لا نجد التشريع، ولا نجد النبوءات »[١]، كما « لم يبشّر بجديد من الأفكار »[٢]. وهذا يعني أنّ العهد المكّي الأوّل، أي عهد ما بين الدعوة والهجرة الأولى إلى الحبشة، من سنة ٦١٠ حتى ٦١٥ م « كان دعوةً ليوم الدين في معرضِ المطالبة بالإصلاح الاجتماعي »[٣]. فلم يكن هناك إذن سُوَرٌ « عقائدية وتشريعية »[٤]، كما « لم تكن دعوةٌ صريحة إلى التوحيد »[٥].

وفي اجماع الذين بحثوا في « أسباب النزول »، أي أسباب نزول الآيات

---

(١) سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٢١.
(٢) جولدتسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١١.
(٣) الأستاذ الحداد، القرآن والكتاب، ٢ / ٣٧٥.
(٤) المرجع نفسه، ٢ / ٣١٧.
(٥) المرجع نفسه، ٢ / ٣٧٥.

القرآنية وتحديدِ مكانها وزمانها ومناسباتها، من مسلمين ومستشرقين، قدماءً ومعاصرين، إنّ السور المكّية الأولى هي بمعظمها تعاليم اجتماعية اصلاحيّة. وهي كلّها تدعو إلى العناية الفائقة بالمساكين، والفقراء، والمعوزين، وأبناء السبيل، والمستضعفين، واليتامى، والأرامل، والجياع، وأصحاب الفاقة والحاجة. وكلّها نزلت في حقّ المتموّلين والأغنياء. وكلّها تدعو إلى محاربتهم، وتوزيع ثروتهم، ومصادرة أرزاقهم، وتحريم الربا والأرباح الفاحشة، والعدل في الموازين، والاعتدال بالربح والمتاجرة. وكلّها تدعو إلى صنع الحسنات والصدقات وأعمال البرّ.. وذلك بأسلوب عنيف شديد مقتضب.

ولم تكن تعاليم القرآنِ المكّي الأولى في الوعد والوعيد، أو الجنّة والنار، أو الحساب والعقاب، أو الإيمان بالله.. إلاّ عَرَضاً، وفي معرضِ كلامه على الصدقات وواجب الاحسان. والأمر واضح جدّاً، في القرآن كما في الانجيل: مَن يحبسْ أحشاءه على اغاثة المسكين لن يدخل الجنّة. مَن لا يتصدّق بماله ويعمل الحسنات لن يكونَ في عدادِ الأبرار. مَن لا يصنع الخيرَ لا يدخل ملكوت السماوات. فالأغنياء، في الإنجيل كما في القرآن، لا يدخلون الجنّة. قال الإنجيل: « إن دخول الجمل في سمّ الابرة أيسر من دخول الغني ملكوت السماوات » (متى ١٩ / ٢٤). وقال القرآن: « لا يدخلون الجنّة حتى يلجّ الجملُ في سمّ الخياط » (٧ / ٤٠).

هذه هي تعاليم إنجيلِ الإبيونيين وقرآنِ المكّيين. تعاليمُ واضحةٌ صريحةٌ في الزكاة والصدقة، ومواقفُ محدّدةٌ من الفقر والغنى، ونظرةٌ رحيمةٌ إلى اليتامى والمساكين، ووعدٌ بالجنّة لصانعي الحسنات، ووعيدٌ مخيفٌ لداخلي النار بسبب بخلهم وحبسِ أحشائهم عن اليتامى والمساكين والجياع.

أولاً: الصَدقَة والزَّكاة

الزكاة ركن من أركان الإسلام الخمسة. بل « إنّ الزكاة هي الشريعة بكمالها »[٦]. وإنّ تعبير « تزكّى يعني أسلم »[٧]. وهي قيمة دينية واجتماعيّة سواء. وهي كالصلاة أو عديلها. كما الصلاة تطهّر النيّات والقلوب، كذلك الزكاة تطهّر الأيدي والأموال. وقد أشير إليها مع الصلاة، منذ السور المكيّة الأولى، حتى « يصحّ أن يُقال: إنّ تشريع الزكاة، في العهد المكّي، هو الوحيد بين التشريعات غير التعبّدية، إذ إنّ جلّ هذه التشريعات انّما كانت في العهد المدني.. فاقتضت حكمةُ التنزيل فرضَ الزكاة فرضاً على أغنياء المسلمين ليؤدّوها بدافعٍ من إيمانهم كالصلاة، ولا تكون بصفة التبرّع التطوعي الذي يكون المرء فيه مختاراً »[٨].

وكثيراً ما حثّ القرآنُ على إقامة الزكاة والصلاة معاً، وأوردهما معاً، لأنّ لكليهما فعلاً واحداً في التطهير والتزكية. قال: « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »[٩]. ومن فعلهما « كان عند ربّه مرضياً »[١٠]، و « لهم أجرهم عند ربّهم »[١١]، وأجرهم في الآخرة عظيم[١٢]، إذ يكفّر الله عنهم سيئاتهم[١٣]، ويمكّنهم في الأرض هنا[١٤]، و« بالآخرة يوقنون »[١٥]. و« الذين لا يؤتون الزكاة هم كافرون »[١٦]. وبالنتيجة، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة هم على

---

(٦) رسائل الحكمة الدرزية ٦ / ٤٩.
(٧) ديمونبين، محمد (فرنسي) ٥١٢.
(٨) دروزة، تاريخ الجنس العربي ٦ / ١٠٣.
(٩) ٢ / ٤٣، ٨٣، ١١٠، ٢٢ / ٧٨، ٢٤ / ٥٦، ٣٣ / ٢٠، وغيرها مئات المرّات في القرآن..
(١٠) ١٩ / ٥٥.
(١١) ٢ / ٢٧٧.
(١٢) ٤ / ١٦٢.
(١٣) ٥ / ١٢.
(١٤) ٢٢ / ٤١.
(١٥) ٢٧ / ٣، ٣١ / ٤.
(١٦) ٤١ / ٧.

دين القيّمة[١٧]. فبالزكاة والصلاة، إذن، يكون الإيمان والإسلام والآخرة الصالحة. وبغيرها لا يكون إسلام ولا إيمان ولا جنّة.

وفي الأحاديث النبويّة صورة واضحة أيضاً عن علاقة الزكاة بالصلاة. قال الرسول: « الصلاة نور والزكاة برهان »[١٨]. وقال: « لا أفرّق بين الصلاة والزكاة »[١٩]. وزاد « لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة »[٢٠]. بل إنّ دعوته إلى الزكاة هي كدعوته إلى الصلاة، ودعوته إلى الصلاة كدعوته إلى الزكاة. ومن آمن بالرسول وطلب من الله الصلاة عليه، كأنّه تزكّى وتطهّر. قال: « صلّوا عليّ فإنّها زكاة لكم »[٢١].

******

ثمّ إذا كانت رسالة المسيح ابتدأت بـ« التوبة » كمدخل لملكوت الله، فإنّ رسالة محمّد ابتدأت بأفعال الرحمة والصدقة والزكاة. وهي كلمات تحتل قلب القرآن، وتملأ صفحاته، من أوّله إلى آخره. وكما « التوبة » المسيحية تطهّر من الخطايا وتؤهّل للملكوت، كذلك « الصدقة » في الإسلام تطهّره، أو بحسب قول القرآن « تزكّي ». والزكاة كالآيات، كلاهما يطهّر. أي إنّ الزكاة تطهّر كسماع آيات الله البيّنات. بل في سماعها تطهير وتزكية. وهذه المعادلة بين الزكاة والآيات تفوق المعادلة بين الزكاة والصلاة. ومع هذا فهي بمستوى الاثنين معاً. جاء في القرآن: « كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا

(١٧) القرآن ٩٨ / ٥.
(١٨) سنن النسائي، باب الزكاة ١، ابن ماجة، باب الطهارة ٥.
(١٩) مسند ابن حنبل ١/ ١١ و١٩ و٣٦ و٤٨.
(٢٠) صحي البخاري، باب الاعتصام ٢ و٢٨، باب الزكاة ١، باب المرتدين ٣، مسلم، باب الإيمان ٣٢، أبو داود، باب الزكاة ١، الترمذي، الإيمان ١، النسائي، باب الزكاة ٣، باب التحريم ١، باب الجهاد ١.
(٢١) مسند ابن حنبل ٢ / ٣٦٥.

ويزكّيكم »[٢٢]. أو أيضاً: « يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة »[٢٣].

ويعادل الصلاة والآيات التصدّق بالمال. والثلاثة معاً يؤدّون فعل الزكاة. والصدقة بالمال هي أيضاً تزكّي وتطهّر وتفتح أبواب الجنّة. جاء في القرآن: « خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها »[٢٤]. وجاء أيضاً: « الذي يؤتي ماله يتزكّى »[٢٥]... وهكذا تتمّ المعادلات كلّها. وتتعيّن الأولويّات في الإسلام.

وهناك أيضاً معادلات ثانوية، ولكن لا تقل أهميّة عن تلك. ولا بدّ من ذكرها لإعطاء صورة كاملة عن مقام الصدقة والزكاة في الإسلام. جاء في القرآن أنّ الله لا يقبل توبة من لا يتصدّقون بأموالهم. قال: « ألم يعلموا أنّ الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات »[٢٦]. الصدقة والتوبة معادلة رابعة. وخامسة تقوم على معادلة بين النجوى والصدقة. قال الرسول: « إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة »[٢٧]، وأيضاً: « لا خير في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقة أو معروف »[٢٨].

ولكنّ شرطاً على المتصدّقين بمالهم، وهو أن لا يمنّ المتصدّق بما يتصدّق به، وأن لا يسيء إلى المتصدَّق عليه بالتكدير والتعيير، لأنّ المنّة تهدم الصدقة. قال: « يا أيّها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ

---

(٢٢) سورة البقرة ٢ / ١٥١.
(٢٣) ٣ / ١٦٤، انظر: ٦٢ / ٢، ٢ / ١٢٩.
(٢٤) سورة التوبة ٩ / ١٠٣.
(٢٥) سورة الليل ٩٢ / ١٨.
(٢٦) سورة التوبة ٩ / ١٠٤.
(٢٧) سورة الحديد ٥٨ / ١٢.
(٢٨) سورة النساء ٤ / ١١٤.

والأذى »[٢٩]. والمتصدِّق على الفقير كأنّه يقرض الله. والله يضاعف ما يقرض. قال: « إنّ المصدّقين والمصدّقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم »[٣٠]. هؤلاء أجرهم عند ربّهم، لأنّ « الله يجزي المتصدّقين »[٣١] جزءاً كبيراً.

وفي الحديث النبويّ معادلة أخرى، وهي بين الصدقة والصيام، إلى جانب الصلاة، وقد اعتبرها النبيّ « سهماً » روحياً قاطعاً، ما مورست بروح الإسلام والإيمان. قال: « وسهام الإسلام الصوم والصلاة والصدقة »[٣٢]. هذا بالإضافة إلى كونها تنجّي من الهلاك والنار. قال: « من استطاع منكم أن يتّقي النار فليتصدّق »[٣٣]. والحسنة عند الله تساوي ألوفاً، إذا ما أعطيت للفقير واليتيم بروح الإيمان. قال: « والله يضاعف الحسنة ألفي حسنة »[٣٤]. و « كلّ حسنة تضاعف عشراً إلى سبعمائة ضعف »[٣٥]. وكيفما كانت الحسنة، وبأيّة قيمة كانت، فهي عظيمة. وهي الفعل الوحيد في الدين لا يحسب بحسب كمّيته. وقد جاء على لسان النبي: « أفضل الصدقة الصدقة »[٣٦]. أي هي مقياس ذاتها، أو هي عطاء وأخذ، يعني « نعمة ». وآخر دعوة الرسول يقول فيها لأمّته: « صلّوا وتصدّقوا يا أمّة محمّد »[٣٧].

---

(٢٩) سورة البقرة ٢ / ٢٦٤.
(٣٠) سورة المجادلة ٥٨ / ١٨.
(٣١) سورة يوسف ١٢ / ٨٨.
(٣٢) ابن حنبل ٦ / ١٦٠.
(٣٣) ابن حنبل ٤ / ٢٥٦.
(٣٤) ابن حنبل ٢ / ٢٩٦.
(٣٥) ابن حنبل ٢ / ٢٦٦، ٤٤٣، ٤٤٧، ٤ / ٣٤٦، ٢ / ٢٩٦.
(٣٦) البخاري، النفقات ٢، مسلم، الزكاة ١٥، أبو داود، الزكاة ٣٩، النسائي، الزكاة ٦ و٥٣، ابن ماجة، مقدمة ٢٠، باب الأدب ٣، ابن حنبل ٢ / ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٧٨، ٣ / ٣٧٠، ٤٠٦، ٤٣٤، ٥ / ٤١٦.
(٣٧) مسند ابن حنبل ٦ / ١٦٤.

ثانياً: اليَتَامى اليَتَامى...

القرآن يذكّر محمّداً: « ألم يجدْكَ يتيماً فآوى »[٣٨]؟ ومحمّد يتذكّر ويدعو صحبَه ويذكّرهم: « ارحموا اليتامى.. فإنّي كنت في الصغر يتيماً »[٣٩]. الله يدعو محمّداً بقوله: أمّا اليتيم فلا تقهر »[٤٠]. والدين القيّم هو الذي يدعو إلى انصاف اليتيم: « أرأيت الذي يكذّب بالدين؟ فذلك الذي يَدْعُّ اليتيم »[٤١]. والبيت الصالح التقي هو ذاك الذي يضمّ يتامى يُحْسَنُ إليهم: « خيرُ بيتٍ بيتَ فيه يتيمٌ يُحسَنُ إليه. وشرُّ بيتٍ بيتٌ فيه يتيمٌ يُساء إليه »[٤٢]. والذين يستحقون الجنّة هم أولئك الذين يعنون باليتامى: « فمن ضمّ يتيماً من بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله، وجبت له الجنّة »[٤٣].

يخشى أن تكون « هذه الأمّة أكثر الأمم مملوكين ويتامى »[٤٤] على ما جاء في كتب الأحاديث. ولكنّها بالفعل هي كذلك. فالحروب قضت على الرجال واستبقتِ النساءَ أراملَ والأولادَ يتامى. والغزوات المستمرّة الدائبة والظلم الحاصل في المجتمع، والأوبئة السارية، والجهد المميت في تحصيل لقمة العيش، قضت بأن يكون في أمّة الإسلام يتامى لا حصر لهم...

---

(٣٨) سورة الضحى ٩٣ / ٦.
(٣٩) السيرة الحلبية ١ / ٨٢.
(٤٠) سورة الضحى ٩٣ / ٩.
(٤١) سورة الماعون ١٠٧ / ١ ـ ٢.
(٤٢) سنن ابن ماجة، باب الأدب ٦، ٣٥.
(٤٣) مسند ابن حنبل ٤ / ٣٤٤.
(٤٤) ابن ماجه، باب الأدب ١٠، مسند ابن حنبل ١ / ١٢.

ومن الطبيعي، في عمليّة الإصلاح الاجتماعي، أن يكون لهؤلاء اليتامى اهتمامٌ خاصٌ من قِبَلِ المصلح الذي يريد البدء بأي مشروع اصلاحي. همُّ هؤلاء المحرومين يستحثُّ مشاعرَ كلِ مصلح. والاهتمامُ بهم يقوّمُ خطوات الدعوة. فليس كالأطفالِ الأبرياء العزّل، الذين ظلمهم المجتمع، ما يحرّك نخوةَ الناسِ واندفاعَهم. وليس كهؤلاء ما يستحثُّ المصلحَ للإقدام بدون تردّد. الطفولة البريئة المحرومة جَنَّةُ الله على الأرض. « كأس ماء بارد » لطفلٍ يَفتحُ أبواب السماء. لمثل الأطفال ملكوتُ الله. ولأجلِ براءتهم يُنعَمُ على أهل الأرض. الطفلُ اليتيم ذخيرةٌ لمدينته. والحاني عليه يمتلك كنزاً ثميناً.

هذه الطفولة التي شاحَ نظر القرآن عنها، ليس لها فيه ذكر[٤٥]، ولا الأحاديث النبويّة الكثيرة تفرد لها كلمة حقّ[٤٦]. ومسلمو اليوم، كدروز هذا العصر، قرآنيّون، يوصون بـ« قتل أطفال المشركين »[٤٧]، ويعلنون على الملأ: « علّموا أولادكم الحقد »[٤٨]... غير ذلك كان « مصلح قريش »، بل عكس ذلك بالتمام. كل شيء، عند محمّد، كان من أجل طفل يتيم محروم بائس. فهو كان كذلك. بل أكثر من ذلك. كان يتيم الأب والأم، يفتقد لحنان الأخ والأخت. عاش طفولةً معذّبة. وكثيراً ما عرف بـ« يتيم عبد المطلب ».

والذي نستخرجه من آداب القرآن المحمّدي ـ وهو غير قرآن عثمان بن عفّان الذي ظلم الطفولة ـ هو العناية الفائقة باليتامى حيث الاهتمام بهم يفوق كل حدّ. والآيات « المحمّديّة » كثيرة، وتعاليمها صريحة، وأسلوبها واضح، ووقعها عنيف، لا تحتاج إلى تفسير أو تأويل. وهي تتوزّع على

---

(٤٥) يتكلّم القرآن عن أطفال يرون عورات النساء أو لا يرون (٢٤ / ٣١، ٥٩)، أو عن طفولة هي كمرحلة من مراحل النشوء الإنساني (٢٢ / ٥، ٤٠ / ٦٧).

(٤٦) جلّ ما تتكلّم الأحاديث عن الصلاة على الأطفال الذين يموتون باكراً.

(٤٧) انظر مسند ابن حنبل ١ / ٢٩٤.

(٤٨) في خطاب للوزير الدرزي وليد جنبلاط في كفر متّى بتاريخ ٩ / ٩ / ١٩٨٤.

مختلف عهود التنزيل، وتَذكُر « اليتيم » واليتامى في كل مناسبة، في معرض الكلام على الفقراء والمساكين والمستضعفين، كما في معرض الكلام على الجنّة ومستحقّيها؛ في كلامه على الارث والزواج والجهاد، كما في كلامه على كل قيمة روحيّة... كم وكم حضّ القرآن على القسط مع اليتامى، ومعاملتهم بالحسنى، والانفاق عليهم، واطعامهم، والحفاظ على أموالهم.. وبلاغة الآيات خير دليل:

جاء في سورتَي الإسراء والأنعام قوله: « ولا تقربوا مالَ اليتيم الاّ بالتي هي أحسن »[٤٩]. هاتان السورتان تتكلّمان على اليتيم ضمن الوصايا القرآنيّة العشر. وبذلك يولي القرآن العناية باليتامى طابعَاً إلهيّا وناموساً قُدسياً[٥٠]. وفي سورة الفجر المكّية يعرض القرآن حالَ الكافرين الذين « لا يُكرِمون اليتيم. ولا يَحضُّون على طعامِ المسكين »[٥١] ويتوعّدهم بنار لا تطفأ. وفي سورة البلد المكّية يُعطي صورةً عن الإنسان المؤمنِ الذي يريدُ بلوغَ الجنّة والسعادة. هذا الإنسان عليه، لكي يستحق الجنّة، أن يعملَ على « فكِّ رقَبة (أي تحرير أسير)، أو إطعامٍ في يوم ذي مَسْغَبَة (أي جوع)، يتيماً ذا مقربة (أي قرابة)، أو مسكيناً ذا متربة (لاصق لفقره بالتراب) »[٥٢].

وكذلك القرآن المدني، فهو يكمّل صورةَ الاهتمام باليتامى. ويذْكُرُهم، تارة مع الوالدين وذوي القربى[٥٣]، وطوراً مع المساكين والمستضعَفين الذين

(٤٩) ١٧ / ٣٤، ٦ / ١٥٢.
(٥٠) انظر هذه الآيات التي تذكّر بوصايا موسى..
(٥١) سورة ٨٩ / ١٧ ـ ١٨.
(٥٢) سورة البلد ٩٠ / ١٣ ـ ١٦.
(٥٣) انظر: ٢ / ٨٣ و١٧٧ و٢١٥، ٤ / ٨، ٣٦، ٨ / ٤١، ٥٩ / ٧..

يحتاجون إلى العطف والحنان والكفاية[٥٤]. ويشدّد على حفظ أموالهم، لأنّ « الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً »[٥٥]. وينصح بقوله: « وآتوا اليتامى أموالهم. ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيّب »[٥٦]. ويطلب العدلَ معهم والإقامة بالقسط[٥٧] وقسمةَ أرزاقهم بدقة وعناية[٥٨]، واشراكَهم بالمغانم[٥٩]. ولهم، في كل حال، مع الله والرسول والوالدين، شركة في الخِمْس.

******

وجدير بنا التوقّف عند سورة النساء التي تعير اليتامى اهتماماً بالغاً، والتي فيها الأمر بزواج نساء أربع. وهو أمرٌ فَهِمَهُ المسلمون على أنّه سماحٌ الهي « لأجل الشهوة »؛ فيما الحقيقية هو « زواج لأجل الرحمة ». و « العدلُ بين النساء »، الذي يتكلّم عليه القرآن، هو، في الواقع « عدلٌ في اليتامى ». وأولى بهذه السورة أن تكون عدّة سور، لتنوّع مواضيعها، واختلاف أسلوبها. وأَولَى بالقسم الأوّل منها (آية ٢ ـ ٣٨) أن يُسمّى « سورة اليتامى »، لا سورة النساء، كما هو عليه التقليد، على أنّ أقساماً أخرى تعود إلى القسم الأوّل[٦٠].

بعد مقدّمة مستقلّة (آية ١) تبتدئ السورة بالتوجّه إلى الناس في

---

(٥٤) المراجع السابقة بالإضافة ٤ / ١٢٧.
(٥٥) ٤ / ١٠.
(٥٦) ٤ / ٢.
(٥٧) ٤ / ٣ و١٢٧.
(٥٨) ٤ / ٨.
(٥٩) ٨ / ٤١، ٥٩ / ٧.
(٦٠) سورة النساء ٤ / ١: مقدمة. وهي آية مستقلّة من العهد المكّي. ٢ ـ ٣٨: زواج لأجل اليتامى، وكلام على الارث وكيفية هذا الزواج، ٣٩ ـ ١٢٦: قضايا عامة متنوعة المواضيع، ١٢٧ ـ ١٢٨: عودة إلى الزواج لأجل اليتامى؛ ١٢٩ ـ ١٧٥: عودة إلى قضايا عامّة؛ ١٧٦: عودة إلى أحكام الارث..

معاملتهم اليتامى.. وفي معرض الكلام على القسط في اليتامى والعدل فيما بينهم، تدخل الإشارة إلى نكاح النساء مثنى وثلاث ورباع (آية ٣)، ثمّ قوله: « وإنْ خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة » (آية ٣). ويفهم المسلمون: إن خفتم ألاّ تعدلوا بين النساء الأربع، لأجل غيرة أو حسد بينهنّ، فزواج من واحدة لا غير، هو الأفضل. أمّا المعنى الحقيقي، من خلال الإطار العام للنصّ، فهو: إن خفتم ألاّ تعدلوا مع يتامى نساءٍ أربع فخذوا واحدةً قد تستطيعون الاهتمامَ بيتاماها والعدلَ معهم، وتعطونهم من أموالكم بدلَ أن تُعطوا السفهاء، وتُعنَونَ بهم هكذا إلى أن يبلغوا سنَّ النكاح، فتساعدونَهم بما لهم عندكم من أموال هي لهم شرعاً، بسبب زواج الرجل من أمّهم.

قد لا يبطل هذا المفهوم نظريّة تعدّد الزوجات، ولكن لا يكون تعدُّد إلاّ إذا كانت الزوجات « نساء »، كما في الآية، أي نساء لهنّ أولادٌ يتامى يجب إعالتُهم. فهو إذن زواج لأجلِ الرحمة، لا زواج لأجل الشهوة... وإذا أعدنا النظر في آيات تعدّد الزوجات في الإسلام، على ضوء هذا المفهوم، نستطيع أن نفهم لماذا لم يتزوّج الرسول إلاّ من نساء ثيّبات. وزواجه من عائشة، وحدها كانت بكراً، فيه ألف ألف تعليل وتحليل[٦١].

وسوى عائشة، لا نجد مبرّراً لزواج النبيّ من نساء أرامل: لا الشهوة

---

(٦١) عائشة بنت أبي بكر الصديق، تزوّجها النبي بعمر الطفولة (؟)، وهو يكبرها بخمس وأربعين سنة (؟)، تزوّجها بعد العجوز خديجة (؟)، أمّها نصرانيّة، وسيرتها مع محمّد ومع سائر نسائه مشبوهة، قتلت له ولداً وحيداً أنجبه من ماريّة القبطيّة، وقع بينها وبين نساء النبي بغضٌ وحسدٌ وضغينة، نقل عثمان مصحفه عن مصحفها، اتّهمت في شرفها، فبرأها النبي، بسببها قال علي: « المرأة شرّ كلّها »، ووقع بينه وبينها معارك كادت تقضي على الإسلام... هل زواج النبيّ منها بعمر البراءة صحيح؟ هل هو انتقام من عاطفة مكبوتة بسبب زواجه من خديجة التي تحكمت به؟ أم أنه زواج سياسي؟ لأجل مصلحة سياسية، أو لأجل الانتفاع بمال أبي بكر الصديق أبيها؟ زواج محمّد من عائشة سرّ من أسرار النبوّة، وقد أتعبته في حياتها العاطفية، وباحتكارها جميع لياليه على حساب أخريات...

كانت وظلّت جامحةً وقد بلغَ الثلاثَ والخمسين سنة، ولا يمكن بعدما كان يكتفي بخديجة ثماني وعشرين سنة أن يتحوّل بعد موتها إلى رجلِ شهوة. وبعض المسلمين اكتشفوا ذلك رغم قلّتهم، فقال مجيد الصيمرى: « ليس من المعقول بعد اجتياز النبي (ص) مرحلةَ الشبابِ وفترةَ القوّةِ والفتوّة.. أن ينقلبَ إلى رجل شهوةٍ، تغريه النساءُ، ويفتُنه الجَمَال، وتلحّ عليه الشهوةُ فيستجيبُ لاشباعها.. ولم يكن الزواجُ في نظر الرسول (ص) صلةَ ذكورةٍ وأنوثة،.. فيكون زواجُه ممّن تزوّجهنّ استجابةً لغريزةٍ مكبوتةٍ، ورغبةً جنسيةً عارمة »[٦٢].

واقتصار محمّد على خديجة وحدَها، وزواجُه الفلتان بعد موتها، قد يكون لسبب من الأسباب: إمّا تلفيقٌ من كتبة السيرة، وتزويرٌ في التاريخ؛ وإمّا لفرطِ سيطرةِ خديجة عليه، وهي التي طلبت يدَه، وأقنعته بالزواج منها، ثمّ لعبت دوراً هامّاً في رفع شأنه، وفي غناه، وفي إعلان نبوّته، مع ابن عمّها القسّ ورقة؛ وإمّا لاجحافٍ عاطفيٍ لحقه منها، وهي تكبره خمسَ عشرة سنة، فعوّض عن اجحافه العاطفي المكبوت بزواج كثيرٍ، بل بزواج ابنة ستّ سنين؛ وامّا لأجلِ غايةٍ سياسيّة يرتبطُ بنسائه العديدات بمختلف العشائر والقبائل، ويتقرّب منها جميعها بالمصاهرة ليستطيعَ أن يكونَ له منعةٌ في كل قبيلة...؛ وإمّا بسبب اهتمامهِ البالغ باليتامى والمساكين، فَعَدَّدَ زوجاتِه ليُعدّدَ معه الغزاة والفاتحين..؛ وإمّا أخيراً، تعددُ زوجاتِ النبيّ اختراعُ المسلمين الفاتحين الذين عَرفوا فتياتِ الرومِ الجميلاتِ ونساءَهم المتحرّرات، فأوجدوا في القرآن والسيرة مبرِّراً لهم، فلصقوا بالنبيّ ما سمحوا به لأنفسهم!!!

أمّا المسلمون فيقفون عند واحد من سببين: الأوّل يكمن في قوّة النبي على الشهوة والنكاح، فأوجدوا له حديثاً يقول فيه: « حُبّب إليّ من دنياكم

(٦٢) مجيد الصيمرى، الزواج في الإسلام، وانحراف المسلمين عنه، الدار الإسلامية، بيروت، سنة ١٩٧٩، ص ٤٥.

ثلاث: الطِيبُ والنساءُ وقرّةُ عيني في الصلاة »[٦٣]. ولكنّ هذا الحديث ينقصه ما جاء في القرآن: « زيّن للناسِ حبُّ الشهوات من النساء والبنين.. ذلك متاع الحياة الدنيا »[٦٤].

والسبب الثاني هو اتّصال النبي، بواسطة المصاهرة، بمعظم قبائل العرب، لكي يكونوا له عوناً ونصرة في دعوته. ولكنّ نساءَ النبيّ لم تكن غريبات عنه، فهنّ من قبيلته ومن قرابته. ولئن شذّت ماريّة القبطية فلأنّ سبباً ما وراء ذلك. الاّ أنّ الباقيات من أقربائه: سَودة بنت زمعة هي امرأة أحد أبناء أعمامه الذين تحمّلوا الأذى لأجله؛ وعائشة هي بنت صديقه ورفيقه منذ الصغر؛ وحفصة بنت عمر بن الخطّاب خليفة أبي بكر؛ وزينب بنت خزيمة زوجة عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب أحد أبناء أعمامه الذي استشهد ببدر؛ وأم سلمة زوجة أحد المجاهدين في بدر أيضاً، وقد رفضت أوّلاً الزواج بسبب أطفالها، ولكنّ النبيّ تكفّلهم فرضيت؛ وأم حبيبة امرأة ابن عمّته عبد الله بن جحش الذي تنصّر في الحبشة... الخ. فهل يعقل أن يكون إذن سبب سياسي؟

بقي أن يكون السبب « اليتامى ». زواج النبي الكثير، إنْ صحّ ذلك، هو لأجل اليتامى، وإنْ لم تكن الشهوة الجنسية غائبة، إلاّ أنّه يعتبرها ضعفاً طبيعيّاً في الإنسان، ولا يجب أن ينساق إليها.

******

ولنعد بعد هذه الجولة بين نساء النبي إلى تعاليمه في اليتامى، فهي كثيرة في الأحاديث النبويّة، وشديدة اللهجة، وموجبة في صيغتها. وكثيراً ما تشمل هذه الأحاديث اليتامى مع المساكين، لأنّ كليهما في وضع سيّئ.

---

(٦٣) كنز العرفان للسيّودى ١ / ٢٢٢.
(٦٤) سورة آل عمران ٣ / ١٤.

والمجاهد في سبيلهم كالمجاهد في سبيل الله. قال: « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله »[٦٥]. وقال أيضاً: « ما مِن إمام أو وَالٍ يغلقُ بابَه دون ذوي الحاجة والخلّة والمسكنة إلاّ أغلقَ اللهُ أبوابَ السماء دون خلّته وحاجته ومسكنته »[٦٦]. وفي عقيدة الرسول أن حبّ المساكين أمر الهيّ فقال: « أمرني بحب المساكين والدنوّ منهم »[٦٧]، ولذلك « كان رسول الله (ص) يعود المساكين ويسأل عنهم »[٦٨].

هؤلاء المساكين، في رأي النبيّ، يتقدّمون جميعَ الناس في دخولهم الجنّة. قال: « يدخل فقراءُ المسلمين الجنّةَ قبل الأنبياء ـ وفي رواية ـ قبل الأغنياء »[٦٩]. وقال أيضاً: « أوّل مَن يدخلُ الجنّة مِن خَلقِ اللهِ الفقراءُ والمهاجرون »[٧٠]. وأيضاً: « فإذا عامّة مَن يدخلُها الفقراء »[٧١]. وله مثل ذلك أحاديث كثيرة.. ولم يكن على الجنّة إلاّ أن تعترض على نوعيّة الذين يدخلونها وهم كلّهم فقراء. « قالت الجنّة: يا ربّ! مالي لا يدخلني إلاّ فقراء الناس؟! »[٧٢].

لكنّ هذا الاعتراض لم يمنع النبيّ من أن يؤكّد مراراً وتكراراً على أنّ أحسن درجات الجنّة هي للمساكين. قال: « أبشروا صعاليك المهاجرين بالفوز يوم القيامة على الأغنياء بخمسمائة سنة »[٧٣]. وفي رأيه « أنّ فقراء

---

(٦٥) بخارى، نفقات ١، أدب ٢٥ و٧٦، مسلم، زهد ٤١، ترمذي، برّ ٤٤، النسائي، زكاة ٧٨، ابن ماجة، تجارات ١، ابن حنبل ٢ / ٣٦١.
(٦٦) الترمذي، أحكام ٦، ابن حنبل ٤ / ٢٣١.
(٦٧) ابن حنبل ٥ / ١٥٩.
(٦٨) النسائي، جنائز، ٤٣، الموطّأ، جنازة ١٥.
(٦٩) ابن حنبل ٣ / ٢٢٤.
(٧٠) ابن حنبل ٤ / ١٦٨، دارمي، رقاق ١١٨.
(٧١) ابن حنبل ٥ / ٢٠٩.
(٧٢) بخارى تفسير سورة ٥٠ / ١، ترمذي، جنّة ٢٢، مسلم، جنّة ٣٤...
(٧٣) ترمذي، زهد ٣٧، داود، علم ١٣، حنبل ٣ / ٩٦، ٢ / ٣٤٣، ٤٥١...

المهاجرين يسبقون الأغنيــاء يوم القيــامة »[٧٤]. بل إنّ « أهـل الجنّـة هم الضـعفاء المظلـومين »[٧٥]. وتقول الجنّة: « لا يدخلني إلاّ ضـعفاء النـاس »[٧٦]. أمّـا النـار فملؤهـا الأغنيـاء والنسـاء. قال: « واطّلعتُ في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء »[٧٧]...

هذه الأحاديث الوافرة، صحّت نسبتها إلى النبيّ، أو لم تصحّ، تفسّر مـا جـاء فـي القرآن عن اليتامى، والفقراء، والأذلّة، واليتامى، والأسرى... وهي في كل صـفحة مـن صـفحاته، وفـي صميم كل تعاليمه الإلهية أو الاجتماعيّة، التعبّديـة أو الاشـتراعيّة... وهـذا مـا يـدلّ، مـرّة أخـرى، على أنّ نظرة محمّد « الإبيونية » كانت في انطلاقه دعوته، وفـي مسـار جهـاده. وسـوف يكـون لنا أيضاً أدلّة أخرى، فيحسن لدينا البرهان الأكيد.

---

(٧٤) صحيح مسلم، باب الزهد ٣٧، ابن حنبل ٢ / ١٦٩.
(٧٥) ابن حنبل ٢ / ٢١٤، ٣٦٩، ٥٠٨، ٤ / ١٧٥.
(٧٦) انظـر: صـحيح البخـاري، تفسـير سـورة ٥٠ / ١، الترمـذي، بـاب الجنّـة ٢٢، أحمـد بـن حنبـل ٢ / ٤٥٠، ٥٠٧، ٣ / ١٣، صحيح مسلم، باب الجنّة ٣٤، وابن حنبل أيضاً ٣ / ٧٨، ٧٩...
(٧٧) مسند أحمد بن حنبل ٢ / ١٧٣.

ثالثاً: الجَنَّة جزَاء المحْسِنين

جاءت الجنّة في مواضيع الدعوة المحمّدية الأولى، وقبل أن يدخل النبيّ في تفصيلها ووصفها تكلّم على مستحقّيها والداخلين إليها، فإذا هم المحسنون، والذين يعملون الصدقات. فـ« مَن يعملْ الصالحات، وهو مؤمن، فلا يخاف ظلماً ولا هضماً »(٧٨)، و « الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك خير البريّة »(٧٩)، والذين « يُسارِعون في الخيرات أولئك من الصالحين »(٨٠).

لا إيمان إذن بدون العمل الصالح. كلا الإيمان والعمل الصالح شرط أساسي للفوز بالجنّة. ولا عمل صالح إن لم يكن أوّلاً وآخراً من أجل المساكين والمحرومين واليتامى. والمحسنون في الدنيا هم في الآخرة فائزون: « وآتيناه في الدنيا حسنة، وإنّه في الآخرة لمن الصالحين »(٨١). والمتصدّقون بمالهم هم الصالحون، فيما المنافقون في الآخرة يلتمسون من ربّهم أن يؤخّر أجلهم ليتصدّقوا فيكونوا من الصالحين: « لولا أخرّتني إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين »(٨٢).

فالعمل الصالح يرفع صاحبَه. والذي يعمل السيّئات له في الدنيا والآخرة عذابٌ شديد(٨٣). و « الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم »(٨٤)، ويملّكهم الله في الأرض(٨٥)، ويكثّر لهم ذرّيتهم(٨٦)، ويكفّر عنهم سيّئاتهم(٨٧)، ولهم من عند الله مغفرة(٨٨)، وأجر كبير(٨٩)، أو

---

(٧٨) ٢٠ / ١١٢.
(٧٩) ٩٨ / ٧.
(٨٠) ٣ / ١١٤.
(٨١) ١٦ / ١٢٢.
(٨٢) ٦٣ / ١٠.
(٨٣) ٣٥ / ١٠.
(٨٤) ٢٢ / ٥٠.
(٨٥) ٢٤ / ٥٥.
(٨٦) ٤٦ / ١٥.
(٨٧) ٢٩ / ٧.
(٨٨) ٣٥ / ٧، ١١ / ١١، ٥ / ٩.
(٨٩) ٣٥ / ٧، ١٧ / ٩، ٥ / ٩.

أجر غير منون[٩٠]. والله لا يضيع له أجراً[٩١]، بل يجزيه عدلاً[٩٢]، ويوفيه أجره[٩٣]... هؤلاء « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم، وحسن مآب »[٩٤].

أمّا كيف تكون الجنّة لاستقبال المحسنين فحدّث عن المشتهيات والملذّات على أنواعها، من حُور عِيْنٍ، عُرْبٌ تُرْبٌ كواعِب[٩٥]، إلى مآكل دائمة لا تنتهي[٩٦]، وظلال وارفة[٩٧]، وأنهار عذبة[٩٨]، وغرف ومنازل[٩٩]، وأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً[١٠٠]، وقصور عالية[١٠١]، ونمارق مصفوفة، وزرابيّ مبثوثة[١٠٢]، وفرش مرفوعة[١٠٣]، وأسرّة مصفوفة وموضونة[١٠٤]... والذين يستحقّون كل هذه الجنّة هم الذين عملوا في دنياهم احساناً وبراً. فلننقل بعض ما جاء في القرآن:

قال: « الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنّة »[١٠٥]، وقال: « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنّة »[١٠٦]. وقال: « إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربّهم أولئك أصحاب الجنّة »[١٠٧]. وقال: « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنّهم من الجنّة غرفاً[١٠٨]... ويضاف إلى ملذات الجنّة أنهار تجري دفّاقة، يذكرها القرآن، ويذكّر بها في كل مناسبة. يقول: « وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار.. »[١٠٩].

---

(٩٠) ٤١ / ٨، ٨٤ / ٢٥، ٩٥ / ٦.
(٩١) ١٨ / ٢، ٣٠، ٢ / ٢٧٧.
(٩٢) ١٠ / ٤.
(٩٣) ٤ / ١٧٣، ٣ / ٥٧.
(٩٤) ١٣ / ٢٩.
(٩٥) أى: جميلات. متعفّفات، فتيات بعمر ٣٣، مكعّبة الصدور.
(٩٦) ١٣ / ٣٥.
(٩٧) ١٣ / ٣٥.
(٩٨) حاشية ١٠٩.
(٩٩) ٢٩ / ٥٨.
(١٠٠) ٧٦ / ١٣.
(١٠١) ٢٥ / ١٠.
(١٠٢) ٨٨ / ١٦.
(١٠٣) ٥٦ / ٣٤.
(١٠٤) ٥٢ / ٢٠.
(١٠٥) ٢ / ٨٢.
(١٠٦) ٤ / ١٢٤، ٤٠ / ٤٠.
(١٠٧) ١١ / ٢٣.
(١٠٨) ٢٩ / ٥٨.
(١٠٩) ٢ / ٢٥، ٤ / ٥٧، ١٤ / ٢٣، ١٨ / ١٠٧،.. ٦٩ مرة..

وربّما يكون من حظّ الصالحين، الذين يعملون الصدقات والحسنات، خروجهم من النار، إذا ما كان نصيبهم العذاب لهفوة صنعوها في حياتهم الدنيا. فأعمال البرّ والاحسان التي عملوها في دنياهم قد تشفع بهم عند الله وتغيّر حكم الله فيهم. تقول الآية: « يخرج (الله) الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور »[١١٠]، لأنّ الله لا يضيّع أجر إنسان محسن[١١١]. والقاعدة في الإسلام هي: « من كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً »[١١٢].

وإذا كان عدل الله أن يجازي كلَ إنسان بحسب أعماله فإنّ الله، في ما يخصّ الحسنة، يجزي المحسنين أضعافاً مضاعفة. ومراراً يذكّر القرآن بهذا التصرّف الإلهي الرحيم. قال: « إن تك حسنة يضاعفها »[١١٣]، بل « من جاء بالحسنة فله عشر مثلها »[١١٤]. وقال: « للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، ولدار الآخرة خير »[١١٥]. و « من جاء بالحسنة فله خير منها »[١١٦]. و « من يقترف حسنة نزد له فيها حسناً »[١١٧]... لأنّ الله « مع المحسنين »[١١٨]. وما يفعل الإنسان من خير يعلمه الله[١١٩].

ويحدّد القرآن أنواع أعمال البرّ، فإذا هي: اطعام المساكين، وتحرير الأسرى[١٢٠]، والإحسان إلى ذوي القربى واليتامى[١٢١]، وأبناء السبيل، والسائلين.. « ويسألونك ماذا ينفقون؟ قل: ما أنفقتم من خير فللوالدين، والأقربين، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل »[١٢٢]، و « الجار الجُنب (أي البعيد)، والصاحب بالجَنب (رفيق الطريق)، وما ملكت أيمانكم (من الرقيق) »[١٢٣]. هذه الآية كانت، في تاريخ المسلمين، القاعدة في توزيع المغانم.

---

(١١٠) ٦٥ / ١١.
(١١١) ٧ / ١٧٠.
(١١٢) ١٨ / ١١٠.
(١١٣) ٤ / ٤٠...
(١١٤) ٦ / ١٦٠.
(١١٥) ١٦ / ٣٠.
(١١٦) ٢٧ / ٨٩، ٢٨ / ٨٤.
(١١٧) ٤٢ / ٢٣.
(١١٨) ٣٣ مرّة في القرآن.
(١١٩) ٢ / ١٩٧ و٢١٥...
(١٢٠) ٢ / ١٧٧.
(١٢١) ٢ / ٨٣.
(١٢٢) ٢ / ٢١٥.
(١٢٣) ٤ / ٣٦.

رابعَاً: السور المكّيَّة الأولى

لسنا نعلم إذا كان محمّد يعي دوره النبويّ بالقدر الذي كان يعي دوره الاجتماعي الخطير. ولكننا نعلم، علم اليقين، بأنّ محمّداً لم يكن، قبل الأربعين من عمره نبيّاً، مع أنّ أهل السير علموا ذلك، وجعلوه نبيّاً منذ بدء الخليقة. ونعلم أيضاً، بالتأكيد، أن القرآن المكّي لم يطلق على محمّد ولو لمرّة واحدة، لقب أو اسم نبيّ. ونعلم أخيراً أنّ الله، إذا ما أراد أمراً، يستطيعه، انطلاقا من ظروف المجتمع، ودون تكليف نفسه بإرسال الرسل والأنبياء.. فمعطيات التاريخ أولى من معطيات الغيب لنفهم أعمال الله..

أربعين سنة، قبل الدعوة، عاشها محمّد، ينظر ويشاهد، يسمع ويتسمّع، يشعر ويتحسّس، ينفعل ويتفاعل. عاشها محروماً من كل شيء. ولم يكن أحد يشبهه بشدّة حرمانه. هذا أمر أسهبنا في الكلام عليه. وينقصنا، الآن، أن نتعرّف على أولى تعاليم محمّد، لنرى إذا كانت وحياً من السماء، أو هي من وحي مجتمع فاسد عاش النبيّ فيه وتأثّر به وانفعل بمفاسده.. وإذا تتبّعنا السور القرآنيّة بحسب نزولها الزمني، لا بدّ من أن تنكشف لنا بعض أسرار المهمّة المحمّدية.

ونرجو ألاّ تقلّ قيمة التدخّل الإلهي عند الذين يؤمنون به، إذا ما قلنا إنّ للوحي السماوي مصدراً بشريّاً، ودوافع اجتماعيّة، وعوامل تاريخيّة، وظروفاً إنسانيّة، وأوضاعاً شخصيّة... دفعت بمحمّد إلى مباشرة دعوته الإصلاحية. وربما يكون الوحي لاحقاً لهذه الدوافع، لا سابقاً عليها. وقد شاء، محمّد ليعطي رسالته بعدا سماويّاً، ودعوة إلهية، لينفذ بها إلى قلوب سامعيه، ويوسّع دائرتها حتى ما وراء حدود الجزيرة العربيّة.

على هذا نستعرض السور القرآنية بحسب نزولها التاريخي، معتمدين على ما اتّفق عليه المسلمون والمستشرقون في أبحاثهم عن « أسباب النزول » وعن « تاريخ القرآن ».. فنرى ما هي أولى مواضيع الدعوة المحمّدية، وبالتالي نرى مدة وعي محمّد لدوره النبويّ.

فسورة العلق (رقم ٩٦ في مصحف عثمان) وهي السورة الأولى في تاريخ النزول. نزلت في أبي جهل، صاحب المال الكثير، بشهادة ابن المنذر عن أبي هريرة وابن جرير والترمذي عن ابن عبّاس. موضوعها: إن الرسول أوعد أبا جهل، وندّد به، ووصف حاله، بأن « طغى » (آية ٦) عليه ماله، وكثر « غناه » (آية ٧)، ونسي، لكثرة ماله وأرزاقه، أنّ إلى الله « الرجعى » (آية ٨) وحسن « المآب ». فراح أبو جهل « ينهي » النبيّ عن صلاته ودعوته (٩ ـ ١٠)، ويهزأ به... في هذه السورة يطعن محمّد بالغنى والأغنياء من خلال طعنه بأبي جهل، ويندّد بالذي يتّكل على مال وثروته. هذا قد ضلّ السبيل، ومنع الهدى عن الناس، ولا يهتمّ بيوم الدين حيث الحساب العسير والنار الموقدة التي « سيجرّ إليها بناصيته » (آية ١٥).

وسورة المدّثر (رقم ٧٤) وهي الثانية في التاريخ، نزلت في الوليد بن المغيرة صاحب « المال الممدود » (آية ١٢)، والطامع منه بالمزيد (آية ١٥). وقد عاند الرسول في رسالته (٢٣)، واتّهمه بالسحر، وبأنّه يسعى لأغراض شخصيّة، فتوعّده النبيّ بالعذاب والارهاق صعوداً ونزولاً (١٧). وقد يتساءل المعذّبون في النار، أمثال الوليد، عن الذي أوصلهم إلى الجحيم. فيجيبون أنفسهم: « لم نَكُ من المصلّين. ولم نَكُ نُطعمُ المسكين. وكنّا نخوضُ مع الخائضين (في الباطل وجمع الثروة). وكنّا نكذّبُ بيوم الدين » (٣٩ ـ ٤٠). هؤلاء لا تنفعهم شفاعة الأنبياء (٤٨)، لا يؤمنون بالكتب المنزلة (٥٢)، لأنّ القرآن الذي يقرأه محمّد عليهم ليس هو إلاّ « تذكرة » (٥٤ ـ

٥٦) للإنجيل الذي يورد منه هذه المعاني. وهو « الإنجيل العبراني » الذي يحذو حذو انجيل متى ٢٥ / ٣٥ ـ ٤٦.

وسورة اللهب (رقم ١١١) الثالثة في النزول، نزلت في عمّ النبيّ، عبد العزّى، الملقّب بأبي لهب. هذا كان لمحمد عدوّاً لدوداً، لغناه وكثرة ماله وأرزاقه. لقد أهلكه مالُه في نارٍ ذاتِ لهب، بسبب بخله وعدم اهتمامه باليتامى والمساكين، أمثال ابن أخيه، وأهلك معه امرأتَه، أم جميل، أخت أبي سفيان، وستبقى معه في النار، مشدودة في عنقها بحَبْلٍ من مَسَد، أي من ليف متين. كلاهما يتعذّب بماله، وبحبسِه الطعامَ عن الجائعين (١ ـ ٥). في قصّة أبي لهب إشارةٌ إلى قصّة غنيّ الإنجيل (لوقا ١ / ١٩ ـ ٣١) الذي منع عن الفقير طعامه.

سورة قريش (رقم ١٠٦) الرابعة في الزمن. نزلت في قبيلة قريش، قبيلة النبيّ، الغنيّة بالمال والثروة والتجارة الواسعة، صيفاً وشتاءً، فيما بين اليمن وبلاد الشام. وقد جمعت الأموال الطائلة والأرباح الباهظة. يذكّر النبيّ أهل قبيلته بأنّهم سدنة الكعبة، وعليهم أن يعبدوا ربّها. فهو الذي « أطعمهم من جوع »، وأغناهم بعد فقر، وأمّنهم من خوف (آية ١ ـ ٤)، ورزقهم من « واد غير ذي زرع ». لقد وفّر الله لهم الأموال بسبب قدسيّة البيت، وسقايتهم حجّاجه، وأمان الأشهر الحرم؛ فيما غيرهم يُتَخَطَّفُ من أرضه. ومع هذا، فهم، على كثرة رزقهم، لا يهتمّون بمسكين أو خليع جائع. وبدل أن تكون الكعبة بيت عبادة وصلاة، أصبحت معهم بيت تجارة ومال (انظر متى ٢١ / ١٣).

سورة الكوثر (رقم ١٠٨) السادسة في التاريخ، نزلت في أميّة بن خلف الذي جمع مالاً كثيراً (آية ٢)، وحسب أنّ ماله سيخلده (آية ٣). لقد ضلّ السبيل، وسيطرحه الله في النار (آية ٤)، وينبذه نبذاً أبدياً (٥ ـ ٩). كان أميّة يهزأ بالنبيّ ويَهْمَزُه ويَلْمَزُه (آية ١)، أي يعيبه ويعيّره لفقره وكثرة عياله،

واتّباع الفقراء له دون الأغنياء... تتوقّف هذه السورة على من يتّكل على ماله وكثرة بنيه، ويهزأ بالفقراء والمساكين. هذا نصيبه النار والهلاك الأبديين. وفيها أيضاً دعوة إلى الزهد في معرض ذمّ المال (انظر مقابلتها في انجيل لوقا: ويل لكم أيّها الأغنياء، وفي إنجيل متّى، فصل ٢٧ بكامله).

سورة الماعون (رقم ١٠٧) السابعة في تاريخ الوحي. نزلت في العاص بن وائل الذي كان يدفع اليتيمَ بعنف (آية ٢)، ويمنع الطعام عن المسكين (آية ٣)، ويبطل عنهم الماعون، « أي ما يعوزهم من ابرة وفأس وقدر وقصعة » (تفسير الجلالين على آية ٧). هذا وأمثاله لهم نار جهنم. وفي السورة أيضاً ذكر على أنّ اطعام المساكين يعادل الصلاة إلى الله. فمن لا يطعم المسكين كأنّه لا يصلّي، أو كأنّه يصلّي وهو ساهٍ عن صلاته، أو كأنّه يخادع الناس (آية ٤ ـ ٦). إنّها سورة « الكذب العملي في الدين »[١٢٤]، أو سورة الذين يمنعون الحاجةَ عن أهلها، ويوقفون المساعدة عن المحتاجين إليها.

سورة التكاثر (رقم ١٠٢) الثامنة: « عن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: نزلت في قبيلتين... تفاخروا بكثرة الأموال والأولاد والرجال حتى الذين ماتوا منهم ودفنوا. وعدّوا الموتى تكاثرا، وأحصوهم لزيادة أعدادهم والتفاخر بهم ». والسورة بمجملها « حملة على تفاخرهم بنعيم الدنيا دون الآخرة »[١٢٥]. وهي في حقّ الذين ينشغلون عن طاعة الله ومحبّته بكثرة المال والرجال والمفاخرة بعدد الأولاد.

سورة الفيل (رقم ١٠٥) التاسعة: نزلت في أبرهة، قائد الجيوش الحبشيّة إلى اليمن، ومنها إلى مكّة، يريد صرف الحجّاج عن كعبتها إلى كنيسة بناها في صنعاء، وذلك قصد منافسة مكّة في تجارتها وأموالها وأرباحها التي

---

(١٢٤) الحداد، القرآن والكتاب ٢ / ٣٨٥ حاشية ١.
(١٢٥) المرجع نفسه، ٢ / ٣٨٤.

تجنيها من موقعها ومقام الكعبة فيها... في هذه السورة عبرة لأهل قريش الذين يحوّلون الكعبة إلى سوق تجارة، كما قصد أبرهة، وسيضربهم الله كما ضرب أبرهة وجماعته. وفيها أيضاً إشارة إلى غنى مكّة ودورها التجاري..

سورة الليل (رقم ٩٢) العاشرة. قيل نزلت في أبي بكر الصديق الذي أعتق « بلاَلاً » عن الاضطهاد. فأبو بكر هو « الأتقى »، ومضطِهدُ بَلال هو « الأشقى ». وفي السورة أيضاً دعوة إلى الاحسان: فمن يعطي من ماله احساناً يعطه الله أكثر ممّا يعطي. ومن يبخل بماله ستكون مجازاته النار. إنّ المال لا يغني أحداً (آية ١١)، بل الهدى واتّباع الصراط المستقيم هما غنى الإنسان (آية ١٢). والذي يسخو بماله يتزكّى بسخائه (آية ١٨). ومن يعطي ممّا له فسيرضيه الله بالجنّة (آية ٢١) من أجل سخاء كفّه واحسان قلبه.

سورة البَلَد (رقم ٩٠) الحادية عشر: نزلت في أبي الأشدّ بن كلدة الذي ظنّ أنّه، لشدّة بطشه، لا يقدر عليه أحد، ولا يوازيه أحد بجمع المال واسرافه ايّاه على عداوة محمّد. إلاّ أنّ الله يرى ذلك، ويجازيه على عمله السيّئ. وسوء أبي الأشدّ في أنّه لم يحرّر أسيراً (آية ١٣)، ولم يطعم جائعاً (١٤)، ولم يقرّب إليه يتيماً (١٥)، ولم يرحم مسكيناً (١٦). فسوف لا يستطيع الافلات من نار جهنّم. في هذه السورة « دعوة إلى الزهد.. إلى العدالة الاجتماعيّة.. والاصلاح الاجتماعي.. »[١٢٦].

سورة الانشراح (رقم ٩٤) الثانية عشر. قال السيوطي: « نزلت لمّا عيّر المشركون جماعةَ محمّد بالفقر ». من معانيها إنّ الله فرّج عن ضيق محمّد وجماعته، وحطّ عنه ثقل الفقر والعسر، وشرح له صدره بزواجه من خديجة « سيّدة نساء قريش وأعظمهنّ شرفاً وأكثرهنّ مالاً »[١٢٧] ـ لا بالنبوّة، أو أعجوبة شقّ الصدر،

---

(١٢٦) الحداد، القرآن والكتاب، ٢ / ٣٩٤ حاشية ٧.
(١٢٧) سيرة ابن هشام ١ / ١٩٩، الحلبية ١ / ١٤٧.

كما يقول المسلمون ـ (آية ١ ـ ٢). هذا الفقر الذي أثقل كاهل محمّد (٣)، أصبح، بعد زواجه من خديجة، غنى، والعسر أصبح يسراً (٤ ـ ٦). وبمقدور محمّد، بعد هذا الانشراح (آية ١) أن يتفرّغ إلى مهمّته الاصلاحية (٧ ـ ٨). هذه السورة تصوّر وضع محمد بعد غناه، وتدعوه إلى الإصلاح الاجتماعي، والتفرّغ إلى الصلاة والدعوة إلى الله.

سورة الضحى (رقم ٩٣) الثالثة عشر. يقال إنّها نزلت على محمّد بعد انحباس الوحي عنه مدّة تتراوح بين سنتين وثلاث سنين. يعزّي الله فيها قلب رسوله بأنّه لم يتركه ولم ينسه ولم يبغضه (آية ٣). بل على محمّد أن يصبر: قد تكون النهاية خيراً من البداية (٤)، وسوف يعطيه الله أحسن ممّا أعطاه حتى الآن (٥). وانقطاع الوحي كان بسبب موت القس ورقة الذي قال عنه صحيح البخاري: « ولم يَنشَبْ وَرَقَة أن توفّي وفَتَر الوحي »[١٢٨]. وأيضاً بسبب موت خديجة التي « كانت له وزير صدق يشكو إليها » همومه[١٢٩]، وموت عمّه أبي طالب الذي كان له « عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة ونصراً على قومه »[١٣٠]. ولكي يتأكّد محمّد بأنّ الله لا يتركه، فليتذكّر نعمة الله عليه في يتمه وفقره (آية ٦ ـ ٨)، وكيف أغناه الله وهداه. وإذا كان هذا الذي صنعه الله مع محمّد، رغم يتمه وفقره، فعلى محمّد أن يصنع الشيء نفسه مع اليتامى والمساكين والسائلين منه عوناً ورحمة (آية ٩ ـ ١١).

سورة عَبس (رقم ٨٠) الرابعة عشر. فيها « عتاب للنبيّ الذي عبس في وجه أعمى وتولّى عنه، وتصدّى لمن استغنى من صناديد قريش »[١٣١]. ومعناها أنّ الذي كثر ماله وزادت عليه ثروته، أن يتبرّر بصنع الصدقة، ويفعل الحسنات

---

(١٢٨) صحيح البخاري بشرح الكرماني، ١ / ٣٨.
(١٢٩) سيرة ابن هشام ٢ / ٤٥، انظر ١ / ٢٢٤.
(١٣٠) المرجع نفسه، ٢ / ٤٥ ـ ٤٦.
(١٣١) الحداد، القرآن والكتاب ٢ / ٣٨٨.

مع أصحاب الفاقة، فتغفر له ذنوبه (آية ٥ ـ ٧).. وإنْ لم يفعل فعلى محمّد أن يتصدّى له، وأن لا يقبله في جملة أصحابه. وما هذه التعاليم سوى « تذكرة » (آية ١١) لما في الصحف الأولى (آية ١٣) حيث لا ينفع المال للفوز بالجنّة كما جاء في متى ٥ / ٣. وعندما تكون الصيحة في اليوم الأخير، لا شيء يفيد الإنسان، لا مال، لا أخ، لا أب، لا أم، لا صاحبة ولا بنون (آية ٣٣ ـ ٣٧) قابل مع متى ١٠ / ٢١.

سورة القلم (رقم ٦٨) الثامنة عشر. نزلت في الوليد بن المغيرة صاحب الأموال الطائلة. وفيها قصّة أصحاب بستان حَرَموا من ثمارِه مساكين (آية ١٧ ـ ٣٣). ومفادها أن أصحاب البستان جاؤوا إلى البستان وقطفوا ثماره في الصباح الباكر حتى لا يشعر بمجيئهم المساكين، وكي لا يفيدوهم بثمرة من ثماره. فكان أن بلاهم الله وأحرقَ بستانهم، فحرمهم منه كما حَرموا هم الفقراءَ من ثماره. ثم جاء واحد من أصحاب البستان ينصح رفاقَه بالتوبة، ويدعوهم للرجوع إلى الله، فراحوا يلومون بعضُهم بعضاً على ما صنعوا بالفقراء، وتابوا إلى الله ليردّ لهم بستانهم. فكان لهم ذلك بعد توبتهم، وبعد أن قرّروا إغاثة كل مسكين محروم. إنّها سورة « منّاع الخير » عن أهله (آية ١١). وهي تقابل مع ما ورد في متى عن العملة الذين أُرسلوا إلى الكَرْمِ وعن أجرتِهم (متى ٢٠ / ١ ـ ١٦)، ومع مَثَلِ الكرّامين القتلة في الإنجيل نفسِه (متى ٢١ / ٣٣ ـ ٤٥).

سورة الأعلى (رقم ٨٧) التاسعة عشر. فيها إشارة إلى ذكر الله الذي يعتني بالجميع. فهو « الذي اخرج المرعى » (آية ٤) ووفّر الغنى (آية ٨) للذين يؤمنون. ولكن إن فضّلَ هؤلاء المؤمنون الآخرةَ على الدنيا (آية ١٦ ـ ١٧) كما ورد في التوراة (آية ١٨ ـ ١٩)، فيتطهّرون ويتزكّون ممّا بين أيديهم (آية ١٤). إنّها سورة الصلاة والإيمان والعمل الصالح.

******

وهكذا تتوالى السور المكيّة الأولى، في ما بين سنة ٦١٠ و٦١٥، في موضوعها العام الذي تعبّر عنه هذه الآية المردّدة والمكرّرة على لسان محمّد، أحسن تعبير. تقول: « الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ». وقد جاءت مثلاً في سورة التين (رقم ٩٥) ورقم نزولها ٢٠، وسورة العصر (رقم ١٠٣) ونزولها ٢١، وسورة البروج (رقم ٨٥) ونزولها ٢٢، وسورة المزمّل (رقم ٧٣) ونزولها ٢٣، وسورة القارعة (رقم ١٠١) ونزولها ٢٤، وسورة الزلزال (رقم ٩٩) ونزولها ٢٥، وسورة الانشقاق (رقم ٨٤) ونزولها ٢٩... إلى ما هنالك... وكلّها تعلّم: لا يدخل الجنّة إلاّ من عمل حسنة أو عملاً صالحاً مع اليتامى والمساكين والفقراء وغيره من أصحاب الحاجة.

ويسترعي انتباهنا ما جاء في سورة الفجر (رقم ٨٩) وهي الخامسة والثلاثون في تاريخ النزول. جاء فيها قولها بحرفيّته عن تجّار مكّة الذين ظنّوا أنّ الكرامة بكثرة المال والإهانة بالفقر والعوز (آية ١٥ ـ ١٦)، يجيبهم القرآن على هذه البدعة بقوله: « كلاّ. بل لا تكرمون اليتيم. ولا تحاضّون على طعام المسكين. وتأكلون التراث (الميراث) أكلاً لمّاً (شديداً). وتحبّون المال حباً جمّاً » (آية ١٧ ـ ٢٠).. هؤلاء، عندما يواجهون ربّهم، سيقول كل واحد منهم، نادماً على ما لم يصنعه من خير مع الفقراء: « يا ليتني قدّمت لحياتي » الخير والإيمان والأعمال الصالحة وأعمال البرّ (آية ٢٤). ولكن، وبكونهم لم يفعلوا، لا بدّ من العذاب لهم (آية ٢٥ ـ ٢٦).. تذكّرنا هذه السورة بقول الإنجيل « طوبى لكم أيّها المساكين فإنّ لكم ملكوت الله.. ويل لكم أيّها الأغنياء قد نلتم عزاءكم » (لوقا ٦ / ٢٠ و٢١)[١٣٢].

ثم نرى في سورة المطفِفين (رقم ٨٣) وهي السابعة والثلاثون قوله: « ويل للمطفِّفين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم

---

(١٣٢) انظر الحداد، المرجع المذكور آنفاً، ٢ / ٣٨٢.

يُخسِرون » (آية ١ ـ ٣). ثم يحذّرهم محمّد من يوم عظيم إذا ما استمرّوا على التلاعب بالموازين. وكثيراً ما عاد إلى تحذير تجّار مكّة من هذا الغش العظيم في المكاييل[١٣٣].

وفي سورة الحاقة (رقم ٦٩)، الثامنة والثلاثون، إنّ الذين عملوا حسنة يعيشون في جنّة عالية وفي عيشة راضية (آية ٩ ـ ٢٤). والذين يهلكون هم المتّكلون على مالهم الذي لم يغنهم شيئاً (آية ٢٨ ـ ٢٩). هؤلاء سيسمعون صوت الله يقول عن كل واحد منهم: « خذوه فغلّوه، ثم الجحيم صلّوه.. إنّه كان لا يؤمن بالله العظيم، ولا يحضّ على طعام المسكين. فليس له اليوم ههنا حميم (صديق). ولا طعام إلاّ من غسلين » (طعام مرّ خاصّ بأهل الجحيم) (آية ٣٠ ـ ٣٦). لهذه السورة شبه كبير بالأناجيل الازائيّة[١٣٤]، حيث النار الأبديّة معدّة للذين لم يصنعوا برّاً مع أحد الفقراء.

وفي سورة الذاريات (رقم ٥١) التاسعة والثلاثون نقرأ « إنّ المتّقين في جنّات وعيون.. إنّهم كانوا قبل ذلك محسنين.. وفي أموالهم حقّ للسائل والمحروم » (آية ١٥ ـ ١٩). وفي سورة الواقعة (رقم ٥٦) الواحدة والأربعون نرى « أصحاب الشمال.. في سموم وحميم.. إنّهم كانوا قبل ذلك مترفين » (آية ٤١ ـ ٤٥)؛ وهي سورة الهالكين بسبب غناهم وترفهم على حساب الفقراء. قابل مع متى ٢٥ / ٣٢. وفي سورة المعارج (رقم ٧٠) الثانية والأربعون، وهي سورة المخلّصين بسبب أنّ « في أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم » (آية ٢٤ ـ ٢٥). وسورة الرحمن (رقم ٥٥) الثالثة والأربعون وهي كسورة المطفِفين في معانيها. وسورة الدهر (رقم ٧٦) حيث أسباب الخلاص للمتّقين تقوم على كونهم كانوا « يطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ». (وكانوا يقولون

---

(١٣٣) انظر القرآن: ١٧ / ٣٥، ٢٦ / ١٨١، ١١ / ٨٤ و٨٥، ٦ / ١٥٢.. الخ..
(١٣٤) انظر متى ٨ / ١٢، ٢٤ / ٥١، ٢٥ / ٣٠، لوقا ١٠ / ١٦...

لهم): إنّما نطعمكم لوجه الله. لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً (آية ٨ ـ ٩). فوقّاهم الله الهلاك (آية ١١) وأجزاهم الجنّة وما فيها من خيرات وملذّات (آية ١٢ ـ ١٣).

وفي سورة الاسراء (رقم ١٧) ذكر للوصايا العشر، كما في سورة الانعام (٦ / ١٥١ ـ ١٥٣) حيث وصية جديدة، وهي: « لا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن » (آية ٣٤). وفيها أيضاً: « وآت ذا القربى حقّه، والمسكين، وابن السبيل.. ولا تجعل يدك مغلولة (أي قابضة بخيلة).. ولا تقتلوا أولادكم خشية الاملاق (الجوع).. وأوفوا الكيل إذا كلتم.. » (آية ٢٦ ـ ٣٥).. وغير ذلك من وصايا هي معظمها، في حقّ الفقراء والمساكين واليتامى.. أي في معرض اصلاح وضع اجتماعي فاسد.

******

وهكذا استمرّت دعوة محمّد الاصلاحية، طوال العهد المكي، أي ١٣ سنة، وقد توقّفنا على المرحلة الأولى منها، أي ما بين سنة ٦١٠ و٦١٥. ولكن، لم تبرح تعاليمه هي هي في جميع مراحل القرآن، وإنْ بأسلوب متنوع مختلف. ولن نترك هذه التعاليم تفلت منّا، فنهملها. فهي لنا برهان واضح أكيد على طبيعة دعوة محمّد الاصلاحيّة.

جاء في سورة النساء ٤ / ٣٦ ـ ٤٠: « اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين احساناً، وبذى القربى، واليتامى، والمساكين، والجار ذى القربى، والجار الجنب (البعيد)، والصاحب بالجنب (الرفيق)، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم (من أرقاء وعبيد). إنّ الله لا يحبّ من كان مختالاً فخوراً » (بماله وغناه). ومثلها ما جاء في سورة البقرة ٢ / ٨٣، وسورة الروم ٣٠ / ٣٨[١٣٥].

(١٣٥) انظر أيضاً: ٢ / ١٧٧، ٢١٥... وغيرها.

وفي دعوة محمّد من يتخلّف عن واجب ديني فعليه أن يعوّض عن تخلّفه بفعل حسنة مع مسكين ما. « فمن لم يستطع (الصيام مثلاً) فاطعام ستين مسكيناً »[١٣٦]، أو أقلّه يتوجّب « على الذي (لا) يطيقونه (الصيام) فدية طعام مسكين »[١٣٧]... والذي يرتكب كبيرة أو صغيرة في حقّ إيمانه « فكفّارته اطعام عشرة مساكين »[١٣٨]... وكذلك الذي يصنع منكراً، فيتصيّد بحجّ أو بعمرة، مثلاً، « فكفّارة طعام مسكين »[١٣٩]...

وأعظم ذنب يقترفه إنسان هو أن يأكل مال اليتامى، فكأنّه، بعمله هذا، يأكل في بطنه ناراً، ويصنع شرّاً كبيراً. وحظّه في الآخرة هلاك نفسه: «وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ.. وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ... إِنَّهُ كَانَ حُوباً (ذنباً) كَبِيراً »[١٤٠]، و « إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً. وسيصلون سعيراً »[١٤١]...

ثمّ تجلّت دعوة محمّد الاصلاحيّة في ما وضعه من شرائع وقوانين لدولة اسلاميّة يحفظ فيها حقّ اليتيم والمسكين. فسعى، أوّل ما سعى، إلى الحدّ من طغيان الأغنياء وأصحاب الثروة، ففرض بأن يكون عليهم للمساكين حصّة من ثروتهم، سمّيت « الزكاة »، وقد جعلها أحد أركان عقيدته، كما رأينا. وقد عيّن القرآن الذين يستفيدون من « الزكاة » و « الصدقات »، فإذا هي « للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلّفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل فريضة الله »[١٤٢].

---

(١٣٦) سورة ٥٨ / ٤.
(١٣٧) سورة ٢ / ١٨٤.
(١٣٨) سورة ٥ / ٨٩.
(١٣٩) سورة ٥ / ٩٥.
(١٤٠) سورة ٤ / ٢.
(١٤١) سورة ٤ / ١٠.
(١٤٢) سورة ٩ / ٦٠: الفقراء هم الذين لا يجدون ما يقع موقعاً من كفايتهم، المساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم، العاملين عليها من جاب وقاسم وكاتب وحاشر، المؤلّفة قلوبهم ليُسلموا، الرقاب أي فكّها، الغارمين أهل الدَين.. الخ.

ثمّ منع الرسول تكديس الأرزاق والأموال في أيد قليلة من الناس، وذلك للحدّ من الخلافات والفروقات بين طبقات المجتمع. فسنّ قوانين، في كيفيّة توزيع الثروة و « الارث »، لا يزال يعمل بها حتى اليوم. فدعا إلى اشراك الأولاد والزوجات والاخوة والأخوات في كل شيء. ويخصّ بالذكر، في شريعته، اليتامى والمساكين. فيقول: « إذا حضر القسمة (قسمة الميراث) أولو القربى، واليتامى، والمساكين، فارزقوهم منه. وقولوا لهم قولاً معروفاً »[١٤٣].

وكذلك دعا الغزاة والمجاهدين إلى أن يشركوا معهم في غنائم الحرب المستضعفين الذين لم يتمكّنوا من الغزو والجهاد. فقال : « واعلموا: أنّ ما غنمتم من شيء، فإنّ لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »[١٤٤].. ثم دعا إلى توزيع « الفيء » كلّه على المعوزين. والفيء هو ما يؤخذ بدون قتال[١٤٥].

وكذلك أيضاً منع كنز الأموال واحتكارها. وتوعّد المحتكرين بأنّ أموالهم المكدّسة ستكون عليهم في الآخرة ناراً وسعيراً تحرق أجسامهم وتأكل أعضاءهم: « والذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم. هذا ما كنزتم لأنفسكم. فذوقوا ما كنتم تكنزون »[١٤٦].

... كل ذلك. وغير ذلك، من شرائع في الزواج، والسرقة، والزنى، والجهاد، والدية، والارث، .. كان في سبيل اصلاح مجتمع اختبر محمّد فساده.

---

(١٤٣) سورة ٤ / ٨.
(١٤٤) سورة ٨ / ٤١.
(١٤٥) سورة ٥٩ / ٧.
(١٤٦) سورة ٩ / ٣٤.

خَاتِمَة الفَصْل السَادِس

لـم تبـرح صـورة اليـتم والفقـر والحالـة العسـيرة مـن مخيّلـة محمّـد طـوال دعـوة محمّـد الاصلاحيّة. وكانت هذه الصورة لا تزال حيّة قويّة في العهد المكّـي الأوّل، أي مـن مبعثـه حتـى الهجـرة الأولـى إلـى الحبشـة (٦١٠ ـ ٦١٥ م)... وإذا أردنـا أن نصـف القرآن المكّـي هذا، قبـل الهجـرة الحبشـيّة، لاسـتطعنا وصـفه بــ« قـرآن اليتـامى ». ونعنـي بـذلك: إنّ كـل مـا فـي القـرآن المكّي، من تعاليم ومواقف، اجتماعيّـة كانـت أم عقائديّـة دينيّـة، هـي فـي سـبيل العنايـة والاهتمـام بهؤلاء المساكين الفقراء اليتامى، وقد اختبر محمّد في نفسه كل هذه الحالات.

وليس علينا، والحالة هذه، أن نجحف بحقّ القرآن وتعاليمه الدينية، لأنّ محمّداً عرف أن يقدّم لنا الأمور الماورائيّة في معرض كلامه على أمور أرضيّة حياتيّة واجتماعيّة، هي في غاية الأهميّة والخطورة. وليس هذا بالأمر العجب، فتربيـة محمّد كانـت « إبيونيـة »، فـي بيـت جدّه، وعمّـه، وفـي رعايـة القس ورقـة بـن نوفـل، رئـيس « الإبيـونيين »، « الحنيفيـين »، فـي مكّـة. وكانت تعاليم الإبيونية في العناية بالفقراء تتغلّب على ما سواها مـن تعـاليم. وقـد جـاء كتابنــا « قسّ ونبيّ » دليلاً كافياً وساطعاً على هذه الناحية الهامّة...

ولـم يمـضِ العهد الأوّل علـى محمّـد وصـحابته بخيـر وسـلام. لقـد اضـطهدتهم قـريش، وطردتهم، فرحلوا إلى الحبشة مرّة ثانية. وتحمّلوا في رحيلهم المشقّات. فما كان على محمّد، في بدء العهد الثـاني (٦١٥ ـ ٦٢٠ م)، إلاّ أن يشدّد مـن عزائم أصـحابه، ويعدهم بخيـرات سماويـة ينالونها مكافأة لتصبّرهم. ولم يكن لمحمّد من خيرات الأرض شيء حتى يعدهم به. وكـان أخصّ ما وعدهم به،

بعد رجوعهم إلى مكّة، بزواجهم الميمون بـ« حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون »[١٤٧]. وفي العهد الثالث (٦٢٠ ـ ٦٢٢ م) وعدهم بـ« جنّات تجري من تحتها الأنهار »[١٤٨]. وفي بداية عهدهم بالمدينة، وعدهم بـ« مغانم كثيرة »[١٤٩]، وذلك بعد أن أصبح لديه منها نصيب، بسبب غزواته وسراياه.

ويبدو أنّ المسلمين الأوّلين ما كانوا ليتحمّسوا للجهاد والفتح لو لم تأخذ هذه المواعيد المنتظرة بألبابهم وعقولهم. وقد حفظ لنا التاريخ بعضَ أقوال تشير إلى الدوافع العميقة التي استحثّت المقاتلين للحرب والجهاد حتى الشهادة والاستشهاد. فها هو عكرمة بن أبي جهل، في معركة حمص، يشرح لنا سبب قتاله المستميت، ويقول: « إنّي أرى الحورَ متشوّقاتٍ إليّ. ولو بَدَتْ واحدةٌ منهنّ لأهل الدنيا لأغنتْهم عن الشمسِ والقمر. ولقد صدقنا رسولُ الله في ما وعَدَنا »[١٥٠]. وها هو أيضاً أبو هريرة يحرّضُ قومه على القتال ويقول: « يا أيّها الناس! سارعوا إلى معانقة الحور العِين في جوار ربّ العالمِين »[١٥١]. وكأنّ كلمة السرّ في القتال كانت عندهم: « أطعنوا الصدور تنالوا الحُور. وشرّعوا الأسنّة تنالوا الجنّة »[١٥٢].

ويحاول علماء المسلمين تفسير استماتة الفاتحين بما ينتظرهم في الجنّة من طيّبات وشهوات. فأبو هريرة يفسّر لنا، مثلاً، فَرَحَ غلامٍ مسلمٍ قتيل، فيقول: « نظرتُ إلى الغلام، عندما سقَط وهو يشيرُ باصبعهِ نحو السماء، ولم يَهُلْهُ

---

(١٤٧) القرآن: ٥٦ / ٢٢، ٢٠ / ٥٢، ٤٤ / ٥٤، ٣٧ / ٤٨...
(١٤٨) يرد تعبير « جنّات تجري من تحتها الأنهار » أكثر من خمسين مرّة...
(١٤٩) القرآن: ٤ / ٩٤، ٤٨ / ١٩ و٢٠. انظر المرجع في مكان آخر من البحث.
(١٥٠) الواقدي (+ ٢٠٧ هـ) فتح الشام، ١ / ١٥٧.
(١٥١) المرجع نفسه، ١ / ٢٠٦، ٢١١.
(١٥٢) المرجع نفسه، ١ / ٢١٩، ٢٨٤.

ما لحقه، فعلمتُ أنّ ذلك لفرحِهِ بما عاين من الحور العِين »[١٥٣]. وغلامٌ آخر يشهد ويقول: « رأيتُ في إحدى القبّتين (في الجنّة) حُوراً لو برزنَ لأهل الدنيا لماتوا شوقاً إليهنّ »[١٥٤].

ثم ذهب علماء الصحابة، الموثوق بهم وبكلامهم، كالمقداد، ومعاذ بن جبل، وغيرهما، يحمّسون الفاتحين على دخول بلاد النوبة والسودان، قائلين: « معاشر المسلمين! اعلموا أنّ الجنان قد فُتحتْ، والملائكة قد أشرفتْ، والحُور تزيّنتْ، وأشرفتْ من الجنان »[١٥٥]. ثم يحرّضونهم على خوض القتال: « أبشروا بالحور والولدان في غرفات الجنان. وأنّ الجنّة تحت ظلال سيوفكم »[١٥٦].

لكنّنا في الحقيقة نسأل: هل هذا من صميم دعوة محمّد، أم من دعوة المسلمين لأجل حماسة الفاتحين؟ مع أنّنا نعلم أنّ هذه التعاليم وأمثالها يزخر بها القرآن، المكّي والمدني، على السواء. ولكن، يحق لنا أن نسأل أيضاً: هل هي من جوهر الدعوة المحمّدية، أم أضيفت على القرآن من عهد الفتوحات، لترغّب الفاتحين في جهادهم وقتالهم، وتبرّر ارتخاءهم أمام فتيات الفرس والروم؟ ومواصفات الحُوريات كمواصفاتِ هذه الفتيات في كل حال. ومن أين للنبيّ أن يصفهنّ بما لم يرَ شيئاً منهنّ! اللهمّ إلاّ إذا كان لاوعيه، منذ رحلات طفولته إلى الشام، ما زال يعمل فيه.

ومع هذا، تبقى هذه الأمور جانبيّة وثانويّة بالنسبة إلينا وإلى القرآن. المهمّ في دعوة محمّد، لا ما يركّز عليه المسلمون الفاتحون، أو إذا شئت

(١٥٣) فتوح الشام، ١ / ٢٢٥.
(١٥٤) المرجع نفسه، ٢ / ٨٨.
(١٥٥) المرجع نفسه، ٢ / ٢٤٣.
(١٥٦) المرجع نفسه، ٢ / ٢٥٩.

المسلمون القرآنيون، نسبة إلى القرآن الذي جمع في عهد الفتوحات، لأنّ في القرآن العثماني منها ما يجعلنا نضلّ عن تعليم القرآن المحمّدي... المهمّ إذاً بالنسبة إلينا ما جاء به محمّد من تعاليم، لا ما حلا لعثمان ولجانِ جمعِ القرآن تدوينَه. ولكي نعرف ذلك، لا بدّ لنا من الرجوع إلى الدافع الأساسي في بدء الدعوة.

والدافع الأوّلى، ينبت، في كل حال، من عمق شعور شخصيّة الداعي. وفي عمق شخصيّة محمّد، كما يشير القرآن نفسه، فقر ويتم وعسر وحرمان. والذي دفع هذا الشعور الشخصي العميق إلى الانفعال وضع مجتمع مكّة. فتلاقى بذلك، في بدء البعثة المحمّدية، دافعان: دافع حرمان شخصي رهيب، ودافع جوع في طبقة « الأذلّة » أرهب. فما تكون النتائج إذن غير ثورة، وجهاد، وتعليم رفيع في حماية الجائعين!!

خَاتِمة البَحث

نَبيّ الرحْمَة وقرْآن الشَريعَة

ثلاثون قضيّة بحثنا فيها، ووضعنا كمشكلات أمام أعيننا لا كمسلّمات. انطلقنا من الشك إلى المعرفة. ولا ندّعي أنّنا، فيما توصّلنا إليه، حصلنا على اليقين. وأنت، إنْ عرفت، شككت وبعد الشك واظب معنا على البحث عن الحقيقة. وإنْ كانت هذه القضايا، عندك، من المسلّمات، ولا تريد البحث فيها، فلنا منك أمنية: أن تؤمن بحرّيتك العقليّة، وأن تؤمن بأنّ الله سيفاجئك في منعطف من منعطفات الحريّة. فلا تخف على الله إذن. بل خف على حرّيتك من إله جعلته في قبضة عقلك ويديك.

ثلاثون قضيّة عالجناها بروية وهدوء وحرّيّة. لا خوفاً على الله، ولا انكاراً للوحي؛ بل محبّة بالإنسان الحرّ، وسعيا حثيثاً متواصلاً نحو المعرفة، معرفة المعطيات التاريخيّة، والجغرافيّة، والدينيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة. وإذا عجزتْ هذه المعطيات عن أن توفّر لنا بعض المعرفة، فالله قريب. وإيماننا بالوحي، والنبوّة، والرسالة، والدعوة، والعصمة، والكتاب المنزل، والشريعة الإلهيّة،... لا يزال حيّاً. فالله مجيب. واعتقادنا بـ« الدين الذي ارتضاه الله » لعباده الصالحين، لا بدّ من أن يكون « الإسلام ». فالله سميع.

ثلاثون قضيّة حاولنا معرفتها، دون أن نكفّ عن البحث المتواصل فيها. فلا تكفّ أنت أيضاً. ولا تأخذ منها موقفاً، لا قابلاً بها ولا رافضاً لها. جلّ همّنا أن نكون وإيّاك أحراراً، أحراراً في العقل وفي الممارسة، أحراراً من نظريّة « الشعب المختار ». فالله، إنْ كان حقاً، لا يؤثر شعباً على حساب شعب، ولا يرذل شعباً ويحبّ آخرين. كلّنا أمام الله ضارع ليعطينا

نعمة البحث عنه، ويرفع عنّا، بنعمته، رذيلة « الاطمئنان » إليه. وخشيتنا أن تكون عصمة الإنسان المتديّن، في اطمئنانه، تضاهي عصمة الأنبياء. لكنّ فرقاً عميقاً بين العصمتين: عصمة المتديّن في ارتياحه واسترخائه، وعصمة الأنبياء جعلت من كل واحد منهم « إنسان خصام ونزاع للأرض كلّها » (أرميا ٥ / ١٠).

فلا نطمئنّ إذن لئلا نكون من عصبة المعصومين. وشيطان هذا الدهر لا يريد منّا أكثر من ذلك. فمن أين تدخل نعمة الله وشيطان العصمة رابض على الأبواب! وإليك الدليل: لكي يحظى إنسان خيّر محبّ بنعمة القداسة يتوجّب عليه: الزهد، والتقشّف، والابتعاد عن شهوات الجسد وملذّاته، والتخلّي عن مباهج العالم ومغرياته، وعذاب نفسه بالألم والدموع، وتجنّب الأميال والأهواء.. وبكلمة تحمل عند المسيحيين بعدها، وهي كلمة « الصليب ». فكيف إذن يحصل الإنسان على الله بعقل مطمئنّ، دون « صليب »! وأنت تعلم الآن لماذا « الشعب المختار »، وأبناء « المعصومين » المطمئنّين قد « صلبوا » المسيح! الجواب: لأنّهم مطمئنّون، فيما هو يقلقهم.

كلّ مرّة يظنّ الإنسان نفسه مطمئنّاً معصوماً، يمارس عمليّة « الصلب » لا محالة. ولا أحد « يصلب » غير الذي يظنّ نفسه من أبناء « شعب الله المختار ». ولا أحد يستطيع أن « يصلب » غير هؤلاء. وكم وكم من شعب يرى نفسه مختاراً في هذه الأرض! ومصيبة الأرض بهم. هل يترك لنا هؤلاء نافذة لنرى بدورنا وجه الله! أم أنّهم لله محتكرون! ومن احتكر الله أيتورّع عن احتكار خيرات الأرض! أيستطيع أن يكون محبّاً؟ منفتحاً؟ متواضعاً؟ خيّراً؟ يصعب ذلك.

ولا تظنّن أنّ اليهود وحدهم ألّفوا « شعب الله المختار ». هؤلاء قد لا يكونون شراً من سواهم، لأنّ أمرهم معروف، وعمليّة « الصلب » نفّذوها حتى النهاية. وهم على النهاية مشرفون. وقد لا تكون مديدة... الدروز أيضاً يؤلّفون « شعباً مختاراً »، أوصدوا عليهم الأبواب، ومنعوا غيرهم من الدخول

إليهم، ورصدوا على « الحكمة » في الستر المهول، وادّعوا « المعرفة » لِيُبْقُوا غيرَهم في الجهل؛ فاحتكروا « الله »، وحجزوا عليه في خلواتهم... هؤلاء أيضاً يمارسون « الصلب »، لأنّهم كذلك، أي لأنّهم « عصموا » أنفسهم واطمأنوا، واعتصموا في الجبال لطمأنينتهم. ولطمأنينتهم هذه لوّنوا الجبل بالدم الأحمر. ولئن لم يكن لهم « مسيح » يصلبوه، لكنّ لهم « مسيحيين » معدّين للصلب والذبح كل حين. والمسيحيون، في كل حال، يكمّلون نزاع المسيح الأبدي.

ما زلنا مع « المعصومين »، « المطمئنّين »، « المرتاحين »، « المسترخين ». لم يكن محمّد من بين هؤلاء، لكنّ هؤلاء جعلوه منهم وبينهم. ولو كان منهم لما انفعل لأوضاع جنّ بها جنونه. أعداء محمّد هم « آكلو أموال اليتامى ظلماً »، وأعداء أتباع محمّد هم « المجاهدون » « الفاتحون » باسم الله. وكلام محمّد لهؤلاء: من أقامكم على الله مدافعين! أَيُظْلَمُ عبادُ الله لأجلِ الله! والذين « صلبوا » محمّداً ليسوا « كفّار قريش »، بل الذين اتّبعوه. وهذا خطرهم. ولو كانوا « شعباً مختاراً » لبان شرّهم؛ لكنّهم « أمّة » أنزلتِ الله، أو كلامَ الله، في « كتاب لا يصلب ». وهذه عثرتنا معهم.

ثلاثون قضيّة تواجه « كتاباً لا يصلب »، فكيف لا يكون أتباعه « مطمئنّين »؟! فيه حقائق الهية أزلية أبدية، نزلت الواحدة بعد الواحدة، فسمّرت الدهر، وجمّدت الدم في عروقه. وقد لا يكون عند الله حقائقُ غيرها ينزّلها، لئلا يكون ظالماً. وحاشاه من ذلك. ولكنّنا نحمده عليها، فهي لنا كفاية. « جبريل نزل والإنسان كفر! نعوذ بالله ». ولو كان في الكتاب الذي نزّله جبريل بعضُ اللين، كما كان لمحمّد، لفرّ الكتابُ وهجر، كما فرّ محمّد من قريش وهجر. ولكن، من أين للكتاب أن يلين، وفيه « الحقّ اليقين » (٦٩ / ٥١)؟ وكيف للحقّ اليقين أن لا يسحب وراءه « مطمئنّين »؟ وهذه أيضاً عثرتنا، مع الكتاب لا مع صاحبه، بل مع « المطمئنين » إلى ما في الكتاب من حقائق منزلة.

سيرة محمّد سيرة إنسان أدّى رسالة، وعاش حياة مضطربة في كل نواحيها ومستواياتها: بين فقر وغنى، وضلالة وهدى (٩٣ / ٦ ـ ٨)، وكعبة ذات آلهة عديدة، ومجتمع يتناحر فيه أعزّة وأذلّة، وقبيلة فيها « كفّار » كما فيها « حمس »، ومدينة تجارية كمكّة، وثانية زراعية صناعيّة كيثرب، وهجرات متتالية من مكان إلى آخر، واضطهاد متواصل، وغزوات في كلّ اتّجاه، ونساء ثيّبات تتجاذب قلبه، وتتنافس غيرة وضغينة، ويهود تربّصوا به شرّاً، وأحزاب نصرانيّة شاء توحيدها... لم يكن محمّد « مطمئنّاً »، ولم ينم على ديباج وحرير...

أمّا تبّاع محمّد فهم « مسلمون ». مسلمون « مطمئنّون »، « مستسلمون » لما في « الكتاب الذي لا يصلب »، من نبوّة هي خاتمة النبوّات، ورسالة هي كمال الرسالات، وشريعة هي تمام الشرائع، وكتاب فيه « الحقّ اليقين »، وعقيدة لا يشوبها أيّ، ويقين ليس فيه من الشكّ هنة، وحقائق منزلة لا يداخلها ارتياب، وعصمة في كل المستويات: في اللغة، والبلاغة، والايجاز، والتعبير، والأسلوب، والاعجاز... هؤلاء هم « المطمئنّون »، « القرآنيّون ».. فكيف يكونون إذن « محمّديين »؟! والاختلاف بين الاثنين يكمن في الصميم!

لم يأتِ محمّد بدين جديد، ولا بتعاليم لم تستلهم مجتمعَه. ولم يكن في خلده أن يكون رسولاً إلى غير جماعته وقومه. ولم يدعُ يوماً إلى إله غير إله بني إسرائيل. ولم يع أنّه نبيّ على مستوى موسى وعيسى، أقلّه في مكّة. ولم تضطهده قريش « لأنّه سفّه » آلهتها، بقدر ما اضطهدته ولاحقته لأنّه سفّه تجّارها وأعزّتها. ولم يهجر إلى يثرب بسبب وحي جديد، بقدر ما هجر بسبب « اليتامى والمساكين ». ولم يغزُ في سبيل الله، بقدر ما غزا في سبيل المغانم وقوافل التجارة المحمّلة ليستولي عليها ويرفع من شأن فقرائه الأذلّة...

أمّا « المسلمون » فجعلوا كل حركة من حركات محمّد إلهاماً ونبوّةً ووحياً. وجعلوا ثورته الاجتماعيّة دعوة في سبيل الله. واعتبروا تعاليمه تنزيلاً من السماء،

فيما هي تعاليم اصلاحيّة لمجتمع فاسد بأمّه وأبيه. وقالوا بأنّ محمّداً رسول الله إلى العالمين، فيما هو أرادهم رسلاً لمجتمع يكونون فيه خيّرين محسنين. وأرادوا الإسلام ديناً ارتضاه الله للناس أجمعين، بينما شاءه هو حضارة ومدنيّة وثورة على مفاسد اجتماعيّة ظُلِم فيها كثيرون.

فـ« القول بأنّ الإسلام فكرة دينيّة محضة، وأنّ ظهوره وتغلّبه على وثنية العرب (؟) وانتشاره السريع بين أكثر أمم الشرق، وفتوحات الخلفاء الراشدين وبني أميّة الواسعة، ترجع إلى الحماسة الدينية، أو التعصّب الديني، يُعَدُّ اليومَ قولاً جزافاً بعيداً عمّا أثبتته الأبحاث التاريخيّة والاقتصاديّة، كأبحاث الأستاذ فيلهوزن والأمير كايتاني والأستاذ لامنس ونولدكه وعضو أكاديميّة بطرسبرج بارتولد، وغيرهم، فقد أصبح اليوم من المقرّر أنّ الإسلام، كغيره من الأديان الكبيرة، ليس فقط فكرة دينية، بل مسألة اقتصاديّة واجتماعيّة أيضاً؛ أو بالأحرى هو مسألة اقتصادية واجتماعيّة أكثر منه فكرة دينية.

قال الأمير كايتاني: « إنّ الإسلام لم يكن حركة دينيّة، إذْ لم يكن فيه دينيّاً إلاّ الظاهر، أمّا الجوهر فإنّه كان سياسيّاً واقتصاديّاً ». ومن فضل مؤسّس الدين الإسلامي ومظاهر عبقريّته أنّه أدرك مصدر الحركة الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي ظهرت في أيّامه في مكّة عاصمة الحجاز، وعرف كيف يستفيد منها ويسخّرها لأغراضه السامية، دينيّة كانت أو اجتماعيّة.

يظنّ كايتاني أنّ « الإسلام هو آخر مهاجرة هاجرها العرب؛ وأنّ الدافع إليها هو ما كان يدفع سابقاً إلى مثلها في جزيرة العرب، أي جفاف أرضهم المستمرّ، وما يتبع ذلك من الضيق والفقر ».

ويقول المستشرق الهولاندي كوخيه: « إنّ الداعي إلى ظهور الحركة الإسلاميّة هو الدين، إلاّ أنّ القبائل العربيّة، وسكّان مكّة والمدينة، أقبلوا

عليه، ودخلوا فيه، لأسباب غير دينيّة ».

ومعنى ذلك أنّ صاحب الدين الإسلامي استعمل الدين، كغيره من أصحاب الأديان الكبيرة، قبله وبعده، واسطة للوصول إلى أغراض أخرى لا علاقة لها بالدين أصلاً، أو لها علاقة ضعيفة.

على كلّ، لا ريب في أنّ الحركة الإسلاميّة بنت عصرها، ووليدة ذلك الوسط الاجتماعي الذي تكوّن في مكّة في أواخر الجيل السادس بعد المسيح. فإذا أردنا أن نقف على منشأ تلك الحركة التي أدّت إلى ظهور الإسلام، لا بدّ لنا من معرفة ذلك الوسط وتلك الأسس الاجتماعيّة التي قامت عليها حياة مكّة، وما يجاورها من بلاد الحجاز »[1]. وهذا ما حصل.

وما حصل أثبتناه في ثلاثين قضيّة، اعتبرناها معطيات لا مسلّمات. ولا بدّ لنا من التذكير بها وإعلان النتائج:

١ً - مكّة « واد غير ذى زرع ». طبيعة فقيرة. أرض قاحلة. جفاف عامّ.

٢ً - مكّة عوضّت عن فقر طبيعتها بموقعها الجغرافي التجاري الهام.

٣ً - مجتمع مكّة هو مجتمع تجاريّ، لا زراعيّ ولا صناعي. مجتمع حركة.

٤ً - في كل مجتمع تجاري طبقتان: أغنياء وفقراء. لا حدّ وسط بينهما يحفظ توازناً أو اعتدالاً.

٥ً - قريش، قبيلة محمّد، كلّها كانت « تجاراً »، وجلّهم أعزّة أغنياء.

٦ً - محمّد وحده، منها، كان راعياً، فقيراً، ضالاً، ذا عسر وفاقة.

٧ً - أضف إلى ذلك وضعه العائلي: فهو يتيم الأب والأم، لا أخ له ولا أخت. لا مال عنده ولا رزق... حياة محروم بائس يخار جوعاً.

---

(١) انظر بندلي جوزى، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، دار الروائع، بيروت، بلا تاريخ، ص ٢٣٨ و١٧ وما بعدها.

٨ً - جلّ أعمامه وأقربائه أغنياء لم يهتمّوا به: وحده عمّه أبو طالب « كثير العيال قليل المال » أخذه على عاتقه وكفله.

٩ً - دفعه عمّه إلى التجارة ليحصّل قوته، وقد أصبح عليه مع أولاده العديدين عالة. فرحلَ محمّد إلى التجارة وهو دون الثالثة عشرة.

١٠ً - خدم عند خديجة « سيّدة قريش »، بأمانة وإخلاص، فأكسبته عيشه، وأكسبها أمانته. فتلاقيا، وتزوّجا، وأعدّا للمستقبل عدّة.

١١ً - وكان القسّ ورقة بن نوفل، ابن عمّ خديجة، هناك؛ وهو رئيس الإبيونيين النصارى في مكّة. وقد عاش محمّد في رعايته ٤٤ سنة.

١٢ً - كان محمّد يختلي ويتعبّد في غار حراء، مع القس ورقة، فتعلّم منه العبادة والصلاة والتأمّل والخلوة. وتدرّب على يده.

١٣ً - وهو القسّ ورقة الذي زوّج خديجة من محمّد. وأقنع خديجة بهذا الزواج، لأجل غاية في نفسه. فدخلت خديجة بمخططه.

١٤ً - قام كل من القس ورقة وخديجة في تدبير أمور محمّد وتدريبه؛ واتّفقا على إعطائه دوراً اجتماعيّاً ودينيّاً هامّاً. فاقتنع بما كلّف به.

١٥ً - وقصدُ القس والزوجة أن يكون محمّد « خليفة » القسّ على كنيسة الإبيونيين. لكنّ نجاح محمّد جعله، بنظر أصحابه، « نبيّاً ».

١٦ً - والنبوّة لم تكن أمراً بدعاً في الإبيونية. فالنبيّ، عند الإبيونيين، هو كل صاحب رسالة، اجتماعيّة كانت أم دينيّة.

١٧ً - لكنّ أصحاب السير النبويّة راحوا، في مفهوم النبوّة، بعيداً، فحمّلوا محمّداً حملاً لم يشر القرآن المكّي إليه. وأوجدوا له الأدلّة في التوراة والإنجيل وتنبؤات الأحبار والرهبان والملوك...

١٨ً - وبعد موت محمّد بعشرين سنة ونيّف، وكانت مغريات بلاد الشام فعلت في نفوس الفاتحين فعلها، فأوجدوا في القرآن وفي حياة محمّد مبرّرات لمغرياتهم وشهواتهم. والأصل ليس كذلك.

١٩ً - وبعد مائة وخمسين سنة ونيّف، وضعت كتب السير، وكان كل شيء قد تغيّر، وتطوّر، وتركّز في دولة العبّاسيين؛ فوضعت أساطير في حياة محمّد، وأسندت إليه أحاديث بمئات الألوف. وهو منها براء.

٢٠ً - وكما محمّد دعم تعاليمه الاجتماعيّة بتعاليم دينية، كذلك الفاتحون برّروا فتوحاتهم العربيّة (بسبب الجوع والحرمان) بجهاد مقدّس في سبيل الله. والله الإسلام من جهادهم براء.

٢١ً - لنعد إلى الوراء، إلى كتاب القس ورقة، وهو « الإنجيل بحسب العبرانيين »، خاصّ بالإبيونيين. كان القسّ ينقله إلى العربيّة.

٢٢ً - ترجمته إلى العربيّة تسمّى القرآن المكّي. تعاليمه، وعقائده الدينيّة، وفرائضه، وممارساته التعبديّة... هي نفسها في القرآن المكّي.

٢٣ً - حثّه على الاهتمام بـ« اليتامى والمساكين » والفقراء.. من تعاليم الإبيونيين الأساسيّة. ولم نجد في بدء رسالة محمّد غير هذه..

٢٤ً - حماسة محمّد إلى رفع شأن « اليتامى » تأتي من وضعه الشخصي، ومن اختباره الفقر والعسر الكبيرين. وفعَل اليتم فيه فعله، وانفعل محمّد ليتمه، فكانت « ردّة الفعل » عنده عنيفة، جارفة.

٢٥ً - قرار محمّد، بعد غناه بمال خديجة، كان صعباً. وصعوبته هذه أعطته دفعاً جديداً. فاستعان بالمال لمحاربة المتموّلين.

٢٦ً - ثورة محمّد ابتدأت، في مكّة، لأجل اليتامى والمساكين، وانتقلت إلى المدينة لأجل محاربة الأغنياء والجهاد في سبيل الثروة كما في سبيل الله.

٢٧ً - دين محمّد لم يكن جديداً على قريش. ولم تكن محاربة قريش له بسبب معتقد جديد. قريش قبلت في كعبتها كل صاحب عقيدة. التاجر يهمّه الكسب والأرباح ولو على حساب الحقيقة والعقيدة.

٢٨ً - عربيّة قريش جاءتها من لغتها، لا من عرق أو انتماء جنسي ما.

والعربيّة جاءت من « غرب » الفرات، لا من اليمن، بواسطة تجّار مكّة، والواعظين المبشّرين من رهبان نصارى الحيرة والأنبار.

٢٩ً - لغة القرآن عربيّة - نصرانيّة، وتعاليمه إبيونية - نصرانيّة، لكنّ جهاده، كفتوحات خلفائه، كان بدافع الجهد والجوع والحرمان.

٣٠ً - وأطرف ما يكون أن تكون أوّل حرب حدثت بعد موت محمّد، هي حرب وقعت بين المسلمين أنفسهم، بسبب دفع الزكاة. وهي « حرب الردّة ». ومعناها: المتخلّف عن الزكاة كالمرتدّ عن الإسلام.

هذه معطيات تاريخية، بعضها يحتاج إلى مزيد من البحث، وبعضها ساطع كنور الشمس. وكلّها تستدعي رسم علامة استفهام كبيرة على ما قدّمه لنا « المطمئنّون ». ويكفينا منها رسم هذه العلامة، لنشير إلى خطر جسيم في عمق عقل « المطمئنّين ». فهل يعاد النظر في مفهوم جوهر الإنسان، أي مفهوم الحريّة؟ هل يتحرّر الإنسان من « الكلام الفوقي » ليصبح مسؤولاً عن كلامه هو؟ حدّث هذا الإنسان « المطمئنّ » عن مشكلة ما فيسقّط عليك الآية بعد الآية حتى يفحمك بكلام فوقي، منزل، وبآيات من « كتاب لا يصلب ». حدّث هذا الإنسان عن أيّة مشكلة بشريّة، اجتماعيّة كانت أم دينيّة، عاطفيّة كانت أم عقلانيّة، تاريخيّة كانت أم مستقبليّة..، فينزّل عليك حشداً من الملائكة، وشحنة من آيات الله، تسدّ عليك منافذ القلق والشك. ويقول مطمئنّاً ومتعجّباً في آن معاً: « جبريل نزل والإنسان كفر!!! نعوذ بالله ».

مع هؤلاء: كل حوار باطل من أساسه. وهم المنتصرون مسبقاً لا محالة. والحقائق عندهم في ملفّات جاهزة. واليقين يقدّمونه لك ببسمة ساخرة. والمعرفة علميّة حسابيّة لا موضع للشكّ فيها. والله في العبّ والجيب. والدين في « كتاب ». والشريعة من الكتاب، ونظم الحياة والكون محدّدة في الكتاب

عينه. والعلوم كلّها، من طبيّة وفيزيائيّة وكيماويّة وفلكيّة وتحت أرضيّة وكونيّة..، تستنبشها من آيات هذا الكتاب... فأيّ حوار يكون مع هذا الاطمئنان العظيم!

... ويبقى لك عندنا تنبيه ونصيحة: اتّق « ردّ فعل » المطمئنّ. احذر منه الانتقام. واخش ثأره الإلهيّ منك. فإنّه يعمل لله، ويجاهد في سبيله ويدافع عن حقوقه، وينتقم منك اكراماً لله عينه... وما زلنا وايّاك نسأل عن حرّية الإنسان وكرامته!

... ثمّ بعد، عليك أن تسأل ـ وأنت مؤمن بالله وقدرته ـ ومن حقّك أن تسأل: كيف يكون الإسلام ديناً ودولةً، عقيدة وشريعة، تعاليم إلهيّة وتعاليم اجتماعيّة.. فهل يكون المجتمع في خدمة الدين؟ أم الدين في خدمة المجتمع؟ أم كلاهما يكمّل بعضهما بعضاً لأجل تثبيت ملك الله؟

لكنّ المجتمع يتطوّر ويتغيّر، والإسلام شريعة أزليّة أبديّة. الدين، بمعناه الحقيقي، صبغة روحيّة عميقة في إنسان رهيف الشعور، متواضع العقل، نحيل الوطء على الأرض، زاهد بكل ما في الدنيا، روحانيّ المسلك والسيرة، يربطه بالله سعيُه الحثيث المتواصل نحو قداسة نفسه، وخلاصها، ولا يرى العالم إلاّ بمنظار هذه القداسة... وإلاّ كان الدين شرائع ونظماً وقوانين وعقائد، قد تفيد مجتمعاً ولا تلزم آخر، وتطبّق في عصر دون عصر، وتصلح لشعب ولا تصلح لآخر..

أمّا إذا كان الدين شريعة الهيّة سرمديّة تلزم الإنسان في كل مجتمع وعصر، فأين حرّيّة الإنسان مع شريعة جامدة؟ وأين جزاء الإنسان مع إله يجبره ويقيّده في أطر تاريخيّة زمنيّة بالت وزالت؟ وكيف يتصرّف البشر مع كتاب لا يصلب؟

ثمّ إذا كان الدين اصلاحاً لمجتمع ما، فقليلاً ما يصحّ لإصلاح مجتمع

آخر، لأنّ سبب وجود هذا الدين هو ما كان يوجد في المجتمع من فساد دعا إلى إصلاحه. وعندما يرفع الزمان، بتطوّره، بعض تلك المفاسد، يزول، لا محالة، مبرّر وجود بعض تعاليمه... وهذا ما تنبّه إليه بعض العلماء المسلمين، في كلامهم على الناسخ والمنسوخ، عندما قالوا: هناك آيات في القرآن نُسِخَتْ أحكامُها ولم تُنْسَخُ تلاوتها؛ أي أزيل العملُ بحكم الشريعة، وبقيت الآية التي تشير إليها.. وفي هذا القول تبرير مخيف لتأخّر الشريعة الالهيّة عن الالتحاق بتطوّر المجتمعات.

وإذا كان المجتمع والدين يتكاملان لأجل تثبيت ملك الله، فهل يوجد بين الاثنين تكافؤ؟ كيف ذلك؟ والأوّل منهما بتطوّر رهيب، والثاني ثابت جامد لا يتزحزح! أيشدّ الدين بالمجتمع إلى التخلّف؟ أيتحكّم بالإنسان إلى هذا الحدّ فيبقيه في حمايته وتحت مراقبته؟ أيحدّ من طموحه فيخليه من ذاته؟ أيجعل مصير الإنسان في المجتمع كمصيره مع الله وأحسن؟ يبدو منه ذلك طالما خيرات الجنّة وشهواتها هي صورة عن خيرات الأرض وشهواتها.

في الإسلام من ذلك كثير: مجتمع أهل الجنّة كمجتمع أهل الدنيا. الدين دولة، والعقيدة شريعة. كلاهما في مستوى واحد. فأين يكمن الشرّ إذن؟ بل قل: كيف تكون الحياة الروحيّة؟ والسعادة الروحيّة؟ بل كيف يكون الله؟ أإلى هذا الحدّ، وفي هذا المستوى، يكون « الله الصمد »؟ وكيف يكون متعالياً هنا ويحيط به الإنسان هناك؟ أيكون الإنسان هو الذي ارتفع، أم يكون الله هو الذي هبط؟

وأين الخلاص أيضاً؟ لنفترض الشريعة القرآنيّة طبّقت ومورست في مكان ما على الأرض، فهل لا يكون هذا المكان صورة كاملة تامّة عمّا سيكون في السماء؟ ليس في الأمر، إذا ما حدث، عجب. بل العجب أن لا يكون عند الله أفضل ممّا نزّل علينا في بيئة الخلعاء والصعاليك وآكلي أموال اليتامى!

والعجب الأكبر أن يكون عنده في السماء شريعة أفضل. وفي كلتا الحالتين نحن في دولة الله محرومون من الأفضل؛ ونحن معه، هنا وهناك، مظلومون. ويكون معنى ذلك: أنّ محمّداً الذي جاء رحمة للمحرومين، ترك لنا، بنظر أتباعه طبعاً، كتاباً وشريعةً أحكما علينا، باسم الله، حرماناً أبدياً. وبذلك يكون محمّد رسول رحمة، ويكون القرآن شريعة ظلم أبدي. والمسلمون، في كل حال، قرآنيون لا محمّديون، أي الهيّون لا إنسانيّون، ودينيّون لا اجتماعيّون... وما ينتج عن ذلك من خطورة في مفهوم الخلاص.

ويبقى، بعد ذلك أن يكون « خليفة » القس ورقة أرحم بنا من « خلفاء » القرآن. وذهب المسلمون بصورة محمّد المكيّة الجليلة الرحيمة، ووضعوا مكانها صورة الهيّة ألصقوها بمحمّد المدني. والمدينة، كما نعلم، تعوّدت الظلم منذ عهد اليهود. ونسفت رحمةَ مكّة وربَّ كعبتها الرحيم. و « الرحيم » بالعباد أبهى ممّن جعله العباد « رحماناً ». الرحيم إله مكّة، والرحمان إله المدينة الذي أخضع القبائل والعشائر لأجل أن يبقى رحماناً.

كم هي المدينةُ مدينةٌ لمكّة. ولكنّها دونها في الرحمة. مكّة أنشأت للناس خلاصاً، والمدينة أعطت العالم حرباً. تلك جاءت بالعقيدة، وهذه جاءت بالشريعة. تلك رحمة، وهذه جهاد... وكم القرآن مدين لمحمّد، وهو دونه في الرحمة. محمّد جاء للناس بالخلاص من ظلم اجتماعي مهول، والقرآن دفع بالمخلّصين إلى ارتكاب المظالم. ذاك جاء بتعاليم إبيونية رحيمة، وهذا جاء بالقتال والجهاد والفتوحات والغزوات. وكيف يكون الفرق إذن بين خلفاء محمّد وخلفاء القرآن؟!

محمّد قد مات، والموت للأنبياء خلاص البشر. والقرآن لن يموت، وبقاؤه في الأرض كعين رقيب جسّاس رهيب على البشر. وليت في العين بعض الرحمة، لكان رُفِعَ ظُلْمُ الشريعة عن يتامى مكّة ومساكينها، ومحمّد منهم ومثلهم مظلوم.

المصَادر والمَراجِع

١. ابن حبيب (أبو جعفر محمّد)، + ٢٤٥ هـ، كتاب المحبر، مطبعة دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر آباد، ١٩٤٢ م.

٢. ابن حنبل (الإمام أحمد)، + ٢٤١ هـ، المسند، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر القاهرة ١٣٧٥ هـ.

٣. ابن دريد (محمد بن الحسن.. الازدى)، ٣٢١هـ، الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٥٨ م.

٤. ابن سعد (محمّد)، + ٢٣٠ هـ، الطبقات الكبرى، ٨ مجلّدات، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ، تحقيق احسان عبّاس.

٥. ابن العبري (غريغوريوس الملطي)، + ٦٨٥ هـ، تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، بلا تاريخ.

٦. ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)، + ٢٧٦ هـ، كتاب المعارف، تحقيق ثروت عكاشه، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠ م.

٧. ابن النديم (محمد بن اسحق بن محمد)، + ٣٨٥ هـ، الفهرست، المكتبة التجاريّة القاهرة ١٣٤٨ هـ. ودار المعرفة بيروت ١٩٧٨ م.

٨. ابن هشام، + ٢١٣ هـ السيرة النبويّة، ٤ أجزاء قدّم لها وعلّق عليها وضبطها طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل بيروت ١٩٧٥.

٩. الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد)، + ٢٥٠ هـ، أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار، جزءان، دار الأندلس مدريد، بلا تاريخ.

١٠. الألوسي (محمود شكري)، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣ مجلّدات، تحقيق محمد بهجة الأثرى، المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٥.

١١. البخاري (محمد بن إسماعيل بن ابراهيم)، + ٢٥٦ هـ.، الجامع الصحيح، ٤ أجزاء، طبعة الحلبي، القاهرة، بلا تاريخ.

١٢. البخاري، التاريخ الكبير، ٨ أجزاء، تحقيق الشيخ عبد الرحمن المعلمي، دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر آباد، ١٣٧٨ هـ.

١٣. البلاذرى (الامام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر)، + ٢٧٩ هـ.، فتوح البلدان، علّق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨.

١٤. الترمذي، الجامع الصحيح، المعروف بـ« سنن الترمذي »، مطبعة البابي، القاهرة ١٩٣٧.

١٥. الثعالبي (عبد الرحمن)، الجواره الحسان في تفسير القرآن، الجزائر، ١٣٢٣ هـ.

١٦. الجلالين.. (جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي)، قرآن كريم، المعروف بـ« تفسير الجلالين »، مكتبة الملاح، دمشق، بلا تاريخ.

١٧. الجمحي (محمد بن سلام بن عبيد الله)، ٢٣٢ هـ.، طبقات فحول الشعراء، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، دار المعارف القاهرة ١٩٥٢.

١٨. جوزي (بندلي)، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، دار الروائع بيروت، بلا تاريخ.

١٩. الجوهري (اسماعيل بن حماد)، + ٣٩٣ هـ.، الصحاح، ٦ أجزاء، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، دار الكتاب العربي القاهرة ١٣٧٧ هـ.

٢٠. الحداد (الأستاذ)، القرآن والكتاب، جزءان، لا دار نشر، ولا تاريخ، سلسلة دروس قرآنية.

٢١. الحلبي (علي بن برهان الدين)، + ١٠٤٤ هـ.، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، ٣ أجزاء، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٠ م.

٢٢. الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت سنة ١٩٧٩ م.

٢٣. الخشني (مصعب بن محمّد بن مسعود)، + ٦٠٤ هـ، شرح غريب سيرة ابن اسحق. جزءان، نشره يوسف برونله، مطبعة هندية القاهرة ١٩١١ م.

٢٤. دروزة (محمّد عزّة)، تاريخ الجنس العربي، ٨ أجزاء، وبخاصة الجزء الخامس، المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت ١٩٨٣.

٢٥. الزّبيرى بن بكّار (+ ٢٥٦ هـ)، جمهرة نسب قريش، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، القاهرة ١٣٨١ هـ.

٢٦. الزمخشري، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مطبعة محمد مصطفى، القاهرة ١٣٥٤ هـ ٤ أجزاء.

٢٧. السهيلي (+ ٥٨١ هـ)، الروض الانف... من شرّاح السير النبويّة.

٢٨. السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)، الاتقان في علوم القرآن، جزءان في مجلّد واحد، المكتبة الثقافيّة، بيروت ١٩٧٣.

٢٩. الشريف (أحمد ابراهيم)، مكّة والمدينة في الجاهليّة وعهد الرسول، دار الفكر العربي، سنة ١٩٦٥.

٣٠. الطبري (محمد بن جرير)، + ٣١٠ هـ، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ١٠ أجزاء، ذخائر العرب، دار المعارف.. ١٩٧٩ م.

٣١. علي (د. جواد)، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠ أجزاء، دار العلم للملايين بيروت ـ مكتبة النهضة بغداد، ١٩٦٨ م.

٣٢. قطب (سيّد)، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، بلا ت.

٣٣. لامنس (الاب هنرى.. اليسوعي)، النصارى في مكّة قبيل الهجرة، المشرق مجلّد ٣٥، سنة ١٩٣٧.

٣٤. لامنس، الأحابيش والنظام العسكري في مكّة، المشرق، مجلّد ٣٤.

٣٥. مالك بن أنس (الامام)، + ١٧٩ هـ، الموطأ، نشره الأستاذ محمود فؤاد عبد الباقي، جزءان، مطبعة الحلبي القاهرة ١٣٧٠ هـ.

٣٦. المسعودي، + ٣٤٦ هـ، التنبيه والاشراف، دار صعب بيروت، بلا ت.

٣٧. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف داغر، دار الأندلس بيروت ط٢، ١٩٧٣، ٤ أجزاء في مجلّدين.

٣٨. مسلم (بن الحجاج بن مسلم القشيري)، + ٢٦١ هـ، الجامع الصحيح، نشره محمد فؤاد عبد الباقي، ٥ أجزاء، الحلبي، القاهرة ١٩٥٦.

٣٩. النيسابوري، غرائب القرآن وغرائب الفرقان، المطبعة الأميرية القاهرة، ١٣٢٣ هـ.

٤٠. الهمداني (أبو الحسن بن أحمد)، كتاب صفة جزيرة العرب، تحقيق عبد الله النجدى، القاهرة ١٩٥٣، وفي ليدن بريل ١٨٨٤.

٤١. وات (مونتجومرى)، محمد في مكّة، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بلا تاريخ.

٤٢. الواحدي، أسباب النزول، مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٩٦٨.

٤٣. الواقدي (محمد بن عمر بن..)، + ٢٠٧ هـ، كتاب المغازي، تحقيق د. مارسون جونس، مؤسسة الأعلمي بيروت ١٩٦٦.

٤٤. الواقدي، فتوح الشام، جزءان في مجلّد واحد، دار الجيل، بيروت بلا تاريخ.

٤٥. وهبه (حافظ)، جزيرة العرب في القرن العشرين، ١٩٥٦.

٤٦. اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب)، + ٨٩٧ م، تاريخ اليعقوبي، جزءان، دار صادر، توزيع دار صعب بيروت، بلا تاريخ.

٤٧. Lammens, H., La Mecque à la veille de l'Hégire, Impr. Cath., Beyrouth 1924.

٤٨. Lammens, H., Le Berceau de l'Islam. Le Climat. Les Bédouins, Rome 1914.

٤٩. Lammens, H., La cité de Taïf à la veille d l'Hégire, Beyrouth 1912.

٥٠. Lammens, H., L'Arabie occidentale avant l'Hégire, Beyrouth 1928.

مواضيع البحث

[Blank Page]

مواضيع البحث